بريطانيا والشرق الأوسط

من اقدم العصور حتى ١٩٥٢

بقلم

سر ريدر بولارد

Sir Reader Bullard

سفير بريطانيا في ايران

خلال ١٩٣٩ ـ ١٩٤٦

نقله الى العربية

حسن احمد السلمان

مطبعة الرابطة ـ بغداد

١٩٥٦

كلمة المعرب

يجتاز الشرق الاوسط اليوم مرحلة دقيقة من حياته المليئة بالصراع والكفاح . فقد تكامل وعيه ، ونما شعوره القومى ، وأصبح مدركا لاهميته الدولية ومقامه بين الامم المتحضرة . يقف بين مفترق الطرق تتجاذبه مصالح لا يدرى الى أى منها يستجيب . وفى هذا الظرف الحرج وجدت ان القارىء العربى فى حاجة ماسة الى ما يوضح له حقائق العلاقات الاقتصادية والسياسية بينه وبين دول الغرب والشرق . ولا سيما منها علاقات بريطانيا بأقطار الشرق الاوسط ـ تركيا وايران والاقطار العربية . فلم أجد من بين الكتب التجديدة التى عنيت بهذا الموضوع خيرا من الكتاب الذى أقدمه اليوم لابناء العربية . فهو والحق دراسة مركزة لنشوء العلاقات بين بريطانيا وأقطار الشرق الاوسط ؛ كيف بدأت تلك العلاقات ، وكيف نمت وما هى المصالح التى أحكمت أصولها . ولا ريب ان المؤلف ، السر ريدر بولارد ، أقدر من حاول الخوض بهذا الموضوع المشتبك المعقد . فقد خبر الشرق الاوسط عن كثب وعالج مختلف شؤونه فى العراق وفى ايران ، واطلع اطلاعا واسعا على تاريخه ، وآداب لغاته ، وعرف نفسيات أبنائه وأدرك ميولهم وآمالهم . ولهذا جاء كتابه ممثلا صورتين متباينتين تعكس الاولى وجهة النظر البريطانية وتعكس الاخرى نظرة نقاد السياسة البريطانية ، من بريطانيين وغيرهم من أبناء الشرق الاوسط . وعندى ان المؤلف حاول ان يعطى القارىء الانكليزى فكرة واضحة عن علاقات بريطانيا بالشرق الاوسط ، لا تعصب فيها

ولا مغالات • وهذا ما يجعل الكتاب كبير الاهمية لكل من يرغب من أبناء العربية بالاطلاع على تطور تلك العلاقات • كذلك يستطيع القارىء العربى استقصاء حقيقة الاحداث التاريخية ، والدوافع لها ، والنتائج الناجمة عنها ان أجهد نفسه بعض الجهد فى ارجاعها الى أصولها الاقتصادية • واننى لكبير الامل بان أبناء العربية فى ظروفهم الراهنة سيجدون فى هذا الكتاب ما ينيرهم لهم سبيل حاضرهم ومستقبلهم •

بغداد ١٩٥٧/١/١

حسن أحمد السلمان

مقدمة المؤلف

مما يعتقد ان جزائر القصدير[١] ، التى تاجر الفينيقيون مع ساكنيها ، هى شيلز أو كورنول من بريطانيا • وقصة « التاجر الصورى العظيم »[٢] ، التى كتبها ماتيو ارنولد ، تشير الى ذلك بوضوح • فمما ورد فى تلك القصة ان تاجرا صوريا ، بعد ان جابه مزاحمة اغريقية عنيفة ، اضطر الى البحث عن أسواق جديدة فيما وراء مضيق جبل طارق • وثمة تجار فينيقيون آخرون ، زادوا فى توغلهم حتى بلغوا الساحل البريطانى ، حيث فكوا الحبال عما كانوا يحملونه من حزم • أما ما كانت تحتويه تلك الحزم فلم يوضح ارنولد كنهها • وكان فى استطاعته ان ينظم قائمة مستفيضة بما تضمه من اسماء سلع ثمينة ، لو انه رجع الى الاصحاح السابع والعشرين من العهد القديم ، الذى اورد فيه كاتبه اسماء طائفة من السلع التى كانت تؤلف تجارة صور والاقطار المجاورة لها يوم ذاك • وكانت صور عهدئذ أهم مدن فينيقيا ، كما كانت فينيقيا نفسها ملتقى سبل برية وبحرية عديدة • ولقد يسر ذلك الوضع الممتاز للفينيقيين استيراد مختلف اصناف البضائع من صقليا واسبانيا وبلاد الاناضول ومن مصر وبلاد العرب والعراق ومن غير هذه من الاقطار الشرقية ؛ كما يسر لها المقايضة بتلك البضائع • ومما لا ريب فيه ان اولئك الفينيقيين الذين قصدوا شيلز من أجل القصدير ، كانوا يدفعون عوض القصدير بضائع شبيهة بتلك التى كانت السفن

---

(١) Kassiterides.

(٢) Grave Tyrian Trader.

البريطانية فى عهد الملكة اليزابث ، تنقلها من اقطار الشرق ، أى المنسوجات الفاخرة المختلفة الانواع ، ومواد الصباغة والتوابل .

والاوضاع التى جعلت من فينيقيا مركزا تجاريا ممتازا ، وهبتها أهمية ستراتيجية . لانها كانت حلقة وصل بين امبراطوريات عظيمة ـ سوقا تجاريا هاما فى أوقات السلم ، وميدانا حربيا ، أو طريقا للمواصلات هاما فى زمن الحرب . ومع ان تلك الامبراطوريات تداعت ، فقد ظل الشرق الاوسط ، الاقليم الذى كان يضمها ، هدفا لمصالح حيوية لدول ظهرت للوجود حديثا ، هى فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا والمانيا وايطاليا واخيرا الولايات المتحدة الامريكية . وقد ادت تلك المصالح الى ظهور « قضايا » ذات علاقة اصيلة بالشرق الأوسط مختلف عليها ويكفى ان نورد هنا اهم تلك « القضايا » وهى مشكلة المضايق وقناة السويس ، وايران والخليج الفارسى ، وخط بغداد الحديدى ، وفلسطين .

ومع ان الشرق الاوسط فقد اهميته كحلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب بعد ان اكتشف الطريق البحرى للهند ، فانه ظل محتفظا باهميته الستراتيجية . وكم تضاعفت هذه الاهمية بعد اكتشاف النفط فيه ، واستغلال هذه المادة استغلالا واسعا جدا ، ولا سيما بعد ان تطورت المواصلات الجوية العالمية . ان مداخر النفط الواقعة على امتداد خط مستقيم بدايته فى العراق أو فى شمال ايران ، مخترقا جنوب ايران ، ومارا من الساحل الغربى لجزيرة العرب حتى قطر ، تعادل بما فيها من كميات نفطية جميع تلك التى يتوقع وجودها فى النصف الغربى من الكرة الارضية . وربما زادتها مقدارا . يضاف الى ذلك ان اهم الخطوط الجوية الحالية التى توصل اوربا مع الهند واستراليا والشرق الاقصى تمر من الشرق الاوسط ـ من القاهرة فبغداد،

فالضفة العربية من الخليج الفارسى • وتتلاقى الطرق التجارية القديمة بالطرق التجارية الحديثة فى موقع تحتضنه انابيب النفط الناقلة للنفط من العراق ، عبر الفرات حتى البحر المتوسط ؛ ذلك ما كان يعرف بفينيقيا • وثمة موقع أثرى آخر ليس ببعيد عن ذلك الموقع هو ما كان يعرف بارماكدون فى فلسطين ، حيث كان يعيش فيه اولئك الذين كانوا يتلون سفر الرؤيا ، وهم منتظرون حدوث تبدل فى اوضاعهم • فاذا ما كانت ترضيهم الحروب التصويرية ، فليعلموا ان معركة كهذه بدأت فى الشرق الاوسط •

حجاج وصليبيون

- ١ -

اذا ما استثنينا قصة جزائر القصدير سابقة الذكر ، لا محيص من ترك حقبة من الزمن لا تقل عن ألف عام ، بين عهدى التاجر الفينيقى والحاج الانكليزى ، ان اردنا الرجوع الى أقدم الوثائق التى تشير الى صلة بريطانيا بالشرق الاوسط . فقد كان حجاج اقطار حوض البحر المتوسط يتقاطرون على الاراضى المقدسة منذ أوائل القرن السابع للميلاد ، بينما ظلت بريطانيا فى عزلة مردها عوامل ، منها بعدها عن الشرق ، وضعف النفوذ الرومانى فيها ، وغزو السكسونيين الوثنيين لها ، واخيرا ما كان يحدث من صراع بين المبشرين الرومان والمبشرين الايرلنديين فى نشرهم الدعوة المسيحية فيها . وقد لعبت تلك العوامل دورا هاما فى ابقاء بريطانيا بعزلة روحية عن اوربا حتى عام ٦٦٣ ؛ عندما اعترف فى مجمع وثبى بسيادة روما على انكلترا . وفى أوائل القرن الثامن امضى ويليبولد[١] الانكيزى عشرة أعوام ـ من ٧٢١ حتى ٧٣١ ـ فى رحلة كان يهدف منها الحج الى الاراضى المقدسة . وربما اوحى لويليبولد بهذه الرحلة حاج فلمنكى الجنسية اضطر الى النزول الى الساحل الانكليزى بعد غرق سفينته وهو فى طريق عودته لبلاده . فروى قصة رحلته الى المؤرخ بيد[٢] ، فضمنها هذا بكتابه « التاريخ الاكليريكى »[٣] . واضطر ويليبولد الى اتخاذ الطريق البرى المار من

---

(١) Willeibald. (٢) Bede. (٣) Eclesiastical History.

أواسط أوربا ، لان الخلافة العربية فى اسبانيا كانت مانعا يحول دون سلوك الطريق البحرى عبر البحر المتوسط للوصول الى الاراضى المقدسة • ولم يستقم الطريق البرى الا بعد ان تغلبت جيوش شارل مارتل على العرب عام ٧٣٢ •

وتكشف قصة ويليبولد هذا ، عن مبلغ مشاق السفر يوم ذاك وكثرة اخطاره • ومع ما كان ينتشر فى جبال الالب وايطاليا من قطاع للطرق ، فقد استطاع هذا الحاج بلوغ نابولى ومنها ارتحل الى سراكوزا فمورنا ، فشايوس فساموس واخيرا بلغ مدينة افيسس بالقرب من ازمير • ومنها سار مشيا على الاقدام حتى اضاليا • وبلغ شمال سوريا عبر قبرص ، حيث كاد يهلك جوعا ، ثم توجه الى حمص • وفى هذه المدينة القى القبض عليه واودع السجن ، ثم اطلق سراحه وزود بجواز يخوله زيارة جميع الاماكن المسموح بزيارتها للمسيحيين •

ومن المعروف ان بطريق القدس بعث برسائله الى الملك الفرد ، اسوة بما بعثه منها الى ملك الفرنك • شارحا فى تلك الرسائل عوز الكنيسة فى فلسطين وفقرها • فقد كانت الكنيسة فى حاجة ملحة الى المال للابقاء على المعابد المسيحية من الانهدام ، ولفدية المسيحيين من الاسر وتخليص ممتلكات البطريق من راهنيها • ومقابل المساعدات التى قدمتها انكلترة ، استلمت من البطريق مجموعة من الوصفات الطبية كانت اكثر بساطة بتركيبها ، مما كان يستعمله الانكلو سكسون يوم ذاك من وصفات فى معالجة مرضاهم • وقد ظلت تلك الوصفات عماد الكتب الطبية الانكليزية لسنوات ليست بقليلة العدد • ويفسر المؤرخون قصة الهدايا التى بعث بها الملك الفرد الى القديس توماس فى الهند بانها قدمت الى ضريح القديس توماس فى اديسا (اورفا)

وليس الى الهند •

ولم تكن التقوى وحدها هى التى دفعت بالناس الى الشرق الأوسط ، بل ان الاستطلاع الفكرى هو الذى دفع اثيلارد[1] الى ارتياد مصر وفلسطين وبلاد العرب • « وكان ارثيلارد هذا ذا نكتة بارعة ورغبة ملحة للاطلاع ولمعرفة ما كان يتداوله الناس عن تلك الاصقاع » • وثمة بعثة مؤلفة من ثلاثة اشخاص أوفدها ادورد العـراف ، قصــــدت اسقف افيسس للتثبت من صحة ما رأه الملك فى نومه • فمما تراءا للملك فى نومه ان « السبعة النيام » ، المضطجعين على جانبهم الأيمن استداروا فاضطجعوا على جانبهم الايسر • فكان هذا نذيرا لكارثة ستحل فى البلاد ، وستدوم اربعة وسبعين عاما • ومما يروى ان البعثة لاقت ترحيبا حارا وانها شاهدت « النائمين » وتثبتت من صحة رؤيا الملك • و « ان وقوع الكوارث التى تنبأ بها الملك لم يتأخر ميقاته » •

ان صلات الشرق الاوسط ببريطانيا ، كما تنم عنها المكتشفات الاثرية ، أو كما هى ممثلة فى تأثير الفن الشرقى والبيزنطى بالفن الانكليزى ، أو ممثلة فى المنافع التى جنتها انكلترة وغيرها من اقطار اوربا خلال القرون الوسطى ، نتيجة انتقال العلوم اليونانية اليها عن طريق العرب ، خارجة عن نطاق هذا الكتاب • وان كان من المفيد ان نشير هنا الى ان بعض مسكوكات بغداد التى ضربت فى عهد خلفاء عباسيين مختلفين اكتشفت فى اوركنيس، وربما جاء بها بعض قرصان جنوب اوربا • كما ان المسكوكات السكسونية التى اكتشفت فى الشرق الاوسط هى ولا ريب من أثر الصليبيين • على اننا لا ندرى ما هى البواعث التى دعت « أوفا » حاكم مرشيا فى القرن

---

(١) Athellard.

الثامن ، الى اتخاذ دينار بغداد الذهبى عملة للتداول فى مدينته • وربما كانت الدوافع التى دعت الى استعمال « البزنت » واسطة المتعامل خلال السنوات المتأخرة هى الدوافع ذاتها التى بررت استعمال الدينار فى مرشيا • ومهما كانت المبررات ، ففى الامكان مشاهدة نمـــوذج فـريد من تلك المسكوكات فى متحف ادنبرة • ومع قدم تلك المسكوكات ، ومع ان وسطها ختم بختم « أوفا » ، فان الحروف العربية لا زالت ظاهرة عليها • ولو قدر لسكان مرشيا يومئذ قراءة تلك الحروف لاعتبروا استعمالها كفرا وهرطقة • فانهم وان كانوا يوافقون على « الله اكبر » فسـيعتبرون « لا شـريك له » الحادا وكفرا •

- ٢ -

ومع كثرة ما نشاهد فى الكنائس الانكليزية من تماثيل فرسان على الاضرحة ، فان الحركة الصليبية لم تلق التشجيع الكافى فى انكلترة • وربما عزى ذلك الى بعد الخطر الاسلامى عنها ، أو لوجود متسع كاف للجيش النورمانى فى انكلترة المحتلة حديثا • ومهما كان الامر فان المساهمة الانكليزية فى الحروب الصليبية كانت قليلة بالنسبة الى المساهمة الفرنسية • والحقيقة ان فرقة انكليزية ساهمت فى الاستيلاء على احدى المدن التى كانت بايدى العرب ؛ ولكن هذه المدينة لم تكن من الاراضى المقدسة ، وانما كانت فى بلاد البرتغال حيث وصلت بعض الجيوش الانكليزية الصليبية فى طريقها للالتحاق بالملك الفرنسى لاراضى الشرق • فساعدت تلك الجيوش ملك البرتغال لاسترداد لشبونة من أيدى الكفرة ! ويقدر عدد الذين اشتركوا من الانكليز فى الحملة الصليبية الاولى باربعة أو خمسة الاف محارب •

وقد رافقتهم شخصيات معروفة بينها زوجة بولدوين التى توج زوجها أول ملك مسيحى للقدس • وكانت فى صحبة زوجها اثناء سفره فى الحملة فعاجلها الاجل قبل بلوغ الارض المقدسة •

ولقد طغت الاساطير الغرامية التى حيكت حول ريشارد الاول واللورد ادورد ـ ادورد الاول بعد ذلك ـ على ما قاما به من اعمال • ففى طريقه الى فلسطين استطاع ريشارد من الاستيلاء على قبرص ، وطرد حاكمها البيزنطى ، احد حلفاء المسلمين ، ولكنه باعها بعد ذلك الى تمبلرز[1] • فسلمها هذا بدوره الى غى دولوسينيان[2] ، فقطع بعمله هذا صلة الانكليز بتلك الجزيرة • ولم تتجدد تلك الصلة الا بعد سبعمائة عام • ولا ريب ان البراعة العسكرية التى كان يتحلى بها ريشارد ، ساعدت فى انتصار الصليبيين فى عكا وارصوف • ومع ما اصاب الجيوش المسيحية من تفكك ومن امراض فان شجاعة ريشارد هى التى دعت الى توقف الفتح الاسلامى لبعض اقطار اوربا الشرقية مدة طويلة والى صد الهجمات الاسلامية على القدس • كذلك ان الشجاعة الفائقة التى كان يبديها هذا الملك اثارت الحماس فى نفوس زملائه الذين تخلفوا عن الحملة ، كما اثارت اعجاب اعدائه • ومما جاء فى « اخبار جوينفيل »[3] ان الملك ريشارد قام باعمال جبارة اثارت الرعب فى قلوب المسلمين • ويقول هذا المؤرخ فى كتاب « الارض المقدسة » اذا ما بكى اطفال المسلمين فان امهاتهم يرعبنهم بذكر اسم الملك ريشارد • واذا ما انحرفت خيول المسلمين نحو شجرة أو اجمة ، فان فرسانها يصرخون بها « ويحكم اتحسبون الملك ريشارد فى أثركم » •

وجاء دور الملك أدورد متأخرا ، لانه بلغ الارض المقدسة بعد ان

---

(1) Templers. (2) Guy Delusignan. (3) Joinville's Chronicles.

انتهت الحملة التى اراد الانخراط بها ؛ ولذا فقد اقتصرت حركاته على غزو مراكز ثانوية لا أهمية حربية لها • على انه اظهر عبقرية فى خططه الدفاعية عندما فاوض ابن خان المغول فى ايران للقيام بحملة مشتركة على عدوهم مسلمى سوريا • وفشل هذا المشروع ولم يكن له يد فى فشله • وتاريخ الحروب الصليبية لم يعرفه باعماله هذه ، وانما اشتهر بعد ان حاول اغتياله احد الحشاشين فجرحه بخنجر مسموم ؛ تلك الفئة التى كان يبعث بها شيخ الجبل (لبنان) لاغتيال القادة المسيحيين •

ومع ان الدور الذى لعبه الانكليز فى الحروب الصليبية كان ثانويا ، فانه كان كبير الاثر فى تطور انكلترة اجتماعيا • فان جمع مقادير كبيرة من المال تفى بكلفة المعارك ، ولفدية الملك ريشارد الاول ، عجل فى نقل السلطة من ايدى الاقطاعيين الى طبقة التجار • وقد دعى ذلك الى الاستعانة برجال المال للاقتراض منهم ، فكان من نتائج ذلك ان احتل رجال المال المكانة التى كان يحتلها رجال الاقطاع • كما ساعد البعض من سكان المدن فى شرائهم جزءا من حرياتهم ، وتخلصهم من العبودية التى كان يفرضها عليهم الملوك • كذلك كان من أثر الحروب الصليبية ان وضع نظام معين للضرائب • فمثلا ان « عشر صلاح الدين »(١) • كان أولى الضرائب التى فرضت على الاموال المنقولة فى انكلترة • واكثر من ذلك ان الحروب الصليبية اذكت فى نفوس الانكليز ، وفى نفوس ابناء الاقطار الاوربية الاخرى الشعور القومى • وهذا ما يؤيد الرأى القائل بان قيام الشعوب باعمال مشتركة لما يقلل من التوادد بينها ، أو من احترامهم المتبادل •

وعندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها الرئيسى ،

---

(١) Saladine Tithe.

وهاجمت الجمهوريه البيزنطية ، لاسباب يطول بحثها ؛ وضعفت استحكامات الصليبيين بوجه المسلمين ، لم يشترك الانكليز فى تلك الحملة ، وانما انظموا الى البيزنطيين • وبحسب ما ورد فى وصف فيلاهاردوين[٢] عن حصار القسطنطينية « ان الفرنك اسندوا سلمين على جدران حصن بالقرب من البحر واعتلوها ؛ ودافع الانكليز والدنماركيسون وغيرهم ممن كانوا فى الحصن دفاعا مستميتا ، وصدوهم صدا شنيعا ، بعد ان أسروا عشرين محاربا منهم » • وحيثما صمد الانكليز والدنماركيون عجز المهاجمون عن اجتياز الحصن ، غير ان ثغرات حدثت فى مواقع اخرى أدت الى استسلام المدينة • وعندما ادخل وفد الفرنك القصر الامبراطورى لاجل المفاوضة كان الانكليز والدنماركيون حرس الشرف • وكان اولئك النفر من الحرس أهم أركان الحرس الامبراطورى ، الذى يؤلف الاسكندناويون[١] أكثريته • وقد زادت نسبة الانكليز فيه بعد الغزو النورمانى ، عندما كثرت هجرة الانكليز والدنماركيين من البلاد • ومما أورده هاكلويت[٢] بصدد الحرس الامبراطورى ، انه عندما كان يذهب الامبراطور الى مصلاه ويعود منه يتعالى صليل الرماح المشتبكة ، ويدعو الحرس الاسكندناوى بلسان انكليزى ، للامبراطور بطول العمر • ولا ريب ان كلا من الفرق الاخرى من الحرس يهتف بلسانه • ومع هذا فان كثرة الانكليز فى الحرس اكسبت القصة التى أوردها هاكلويت لونا خاصا •

ولم يشتهر الانكليز بكونهم حرس للشرف فقط ، بل عرفوا بمعاركهم فى الدفاع عن القسطنطينية ، وبالدور الذى قاموا به فى معارك اخرى ، عندما كاد الجيش التركى السلجوقى ان يبيد الجيش البيزنطى عن بكرة

Hakluyt. (٢) Varangian. (٢) Villahardouin. (١)

ابيه ، فى موقعة بالقرب من قونيا • وكتب الامبراطور رسالة الى هنرى الثانى ملك الانكليز ، يقول فيها « وكان معنا رجالكم العظام » • وليس لدينا ما يشير الى مصير الحرس بعد الغزو اللاتينى للقسطنطينية • ولكن الشواهد الحجرية للرموس ، التى ظلت بقاياها فى القسطنطينية حتى عام ١٨٦٥ ، كانت تحمل اسماء الاسكندناويين من أفراد الحرس • وقد رغب السفير الانكليزى يومذاك ، بنقلها الى المقبرة الانكليزية ، الا ان السلطات رفضت طلبه • واستعمل الناس تلك الاحجار فى البناء ؛ كما احترقت النماذج التى عملت على هيئة تلك الشواهد فى حريق شب فى المحل الذى جمعت به •

القسم الثانى

مغامرات تاجر

ظل الانكليز متخلفين فى التوسع التجارى ، الذى اعقب اكتشاف جزائر الهند الغربية ، وطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند • بينما اسرع الاسبان الى استكشاف جزائر الفلبين ، والفرنسيون جزيرة صوماترة ، والبرتغاليون العديد من الاراضى فيما وراء الهند • ولم ينشد البحارة والتجار الانكليز تثبيت اقدامهم فى بلاد الشرق وتوطيد تجارتهم معه الا بعد ذلك • وكان الفنيسيون (أهل البندقية) يسيطرون على تجارة الشرق وحدهم • ومنذ عام ١٥١١ بدأ الانكليز يتاجرون مع الجزر اليونانية ومع سوريا • فكانوا يستوردون الزبيب المعروف بزبيب كورنثيا من اليونان ، ويستوردون التوابل ، والحرير الخام ، والقطن ، والمنسوجات الاخرى من سوريا • ولم يقتصر هدفهم من الاتجار مع الشرق على الكسب وحده ، بل ايجاد اسواق للمنسوجات الصوفية التى تفيض عن حاجة بلادهم • ذلكم لان الانكليز كانوا لا يرضون بيع ما يتراكم لديهم من اصواف خام الى الاقطار الاخرى ، خشية مزاحمة ما يصنعونه من منسوجات ، بل كانوا يجاهدون فى سبيل تصريف ما كانوا ينتجونه من أقمشة الى تلك الاقطار •

وبدىء بالمتاجرة مع تركيا عام ١٥٣٣ عندما سافر انتونى جنكنسون[١] الى حلب • وفاز بالحصول من السلطان سليمان القانونى ، على رخصة

---

(١) Antony Jenkinson.

تجيز للتجار الانكليز المتاجرة مع الاتراك بشروط مماثلة للشروط التى يتاجر حسبها الفرنسيون والفنيسيون[٢] وســـواء أادت تلك المحاولة الى الربح التجارى السريع ، أم لم تؤد فان التجار الفنيسيون لم يرضوا بوجود مزاحمين لهم فى تركيا • وفى الوقت ذاته قام تجار آخرون بمحاولة ثانية لتأسيس علاقات تجارية مع أهل الصين ـ القطر الذى كان فيه مجال واسع لتصريف جميع ما يفيض من المنسوجات الصوفية الانكليزية • وقدر لهذه البعثة ان تفشل فى الوصول الى الصين باقتفائها الطريق الشمالى ـ الغربى ولذا فقد سلكت الطريق الشمالى ـ الشرقى • ومع هذا فقد هلك جميع اعضاء البعثة التجارية ، ولم يسلم منها الا ربان السفينة ، الذى ادركته سفينة عابرة ، فاوصلته الى مكان يقع فى شمال روسيا • فلما بلغ هذا الربان موسكو ، استطاع الحصول على رسالة من القيصر الى الملك ادوارد السادس، يدعو فيها التجار الانكليز الى ارتياد بلاده ، مانحا اياهم سوقا حرا ، وحريات مطلقة • وقد رأى جنكنسون ،بثاقب رأيه ، ان المتاجرة بمدى واسع مع الشرق ، لن تتحقق الا فى اقطار تقع شرق سوريا • ولهذا فانه عندما ارسل على رأس بعثة تجارية الى روسيا عام ١٥٥٧ رفع تقريرا مستفيضا مؤيدا فيه ما سبق ان اقترحه بشأن المتاجرة مع اقطار الشرق • وقد شق طريقه الى بخارا وسط مخاطر ، تبرر له ان يتفاخر ، بأنه أول من رفع صليب القديس جورج على مياه بحر الخزر •

ووجد جنكنسون بخارا لا تليق ان تكون مركزا للتجارة الانكليزية ومع ذلك فان بقائه فيها لم يكن بغير جدوى • فباتصاله بالتجار الهنود ، عرف ان بلاد البنغال لا تستهلك مقادير كبيرة من المنسوجات الصوفية •

---

(٢) سكان فنيسيا أو البندقية •

وفى طريق عودته وجد فى مدينة استراخان بضائع انكليزية كثيرة ، استوردها تاجر ارمنى من سوريا ، وعرضها باسعار لم يكن بمقدور جنكنســـون مزاحمتها • ولهذا لم يبق امامه الا بلاد فارس ، حيث المجال واسع لبيع المنسوجات الانكليزية • وبعد ان عاد الى انكلترة، استحصل رسائل من الملكة اليزابث موجهة الى قيصر روسيا والى « الصوفى العظيم »[1] • وعاد الى الشرق مخترقا روسيا حتى مدينة قزوين وكانت مقر الحكومة الفارسية يومذاك • وقد اغتنم جنكنسون فرصة قيام حرب بين تركيا وفارس ، وما اكثر ما كان يقع بينهما من حروب ، فحاول استمالة الشاه ، بعرضه عليه اكتشافه طريقا تجاريا امينا بعيدا عن الاعتـــداءات التركية • ولم ينجح بمحاولته تلك ، لان وفدا تركيا وصل الى قزوين واخذ يفاوض الشاه من أجل عقد صلح بين الدولتين • ومن الامور التى ساعدت على عرقلة المفاوضة مع الشاه طهماسب (شوتوماس كما كان يدعوه الانكليز) جهل الايرانيين لانكلترة ، وتعذر حصول من يستطيع قراءة رسائل الملكـــة ، التى كتبت باللغات اللاتينية والايطالية والعبرية ، واخيرا العداء الذى اظهره مستشاروا الشاه لجنكنسون نتيجة تعصبهم الدينى الذى لعب دورا هاما فى شل تلك المفاوضات • فعندما انتهى الاجتماع الاول نهاية غير مرضية ، لمناقشة دينية جرت اثناء الاجتماع ، وترك جنكنسون القصر ، مسح الخدم مواطىء اقدامه بالرمل تطهيرا لارض القصر من النجس •

ومع ما لاقته البعثة من بداية غير مشجعة ، فانها نجحت فى مسعاها التجارى • فقد اعقب هذه البعثة تعيين وكلاء مقيمين لشركة موسكو ، وبعد ذلك بستة اعوام منح الشاه التجار الانكليز امتيازا ، يمكنهم من الاقامة فى

---

(١) شاه ايران •

ايران والمتاجرة مع أهلها • وساعدت فى ذلك ان الشاه نفسه أبدى رغبة فى المتاجرة مع انكلترة ، وربما كان يبطن من وراء تلك الرغبة اغراضا غير اقتصادية • وصادف ان سافر وكيل الشركة الى تبريز ، فوجد أسواق تلك المدينة تزخر بالبضائع الانكليزية ، التى استوردها تجار ارمن ، من حلب أو من البندقية • وكان من أعمال تلك البعثة ان عقدت صفقات تجارية ومالية مع التجار الايرانيين ، مع ما كان يكتنف التجارة من مصاعب جمة ابرزها انتشار قطاع الطرق فى مختلف المسالك المؤدية للمدن الايرانية الهامة ، وشيوع القرصنة فى بحر الخزر ، وشدة القيود الروسية المفروضة على التجارة الاجنبية ، وتراكم الديون بذمم المتنفذين الايرانيين ، الذين اعتادوا التلكوء فى تسديد ما عليهم من ديون •

وليس المتنفذون الايرانيون وحدهم ، الذين كان على التجار الانكليز ان يحسبوا لهم حسابا ، فان هناك بعض المتنفذين الانكليز ، الذين يتحتم على التجار كسب رضاهم • فعندما ساهمت شركة شرق الهند فى طرد البرتغاليين من جزيرة هورموز فانها اضطرت الى تقديم جميع ما حصلت عليه من مغانم الى الدوق بكنجهام ، صديق الملك المدلل ترضية له • لقد جرى ذلك بعد نصف قرن من التاريخ الذى نحن بصدده ، ومع ذلك فانه يعكس صورة ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل • كانت جزيرة هورموز عند بدء نفوذ التجارة الانكليزية الى ايران ، هدفا للتجار الانكليز ، سيما وانها لم تكن تبعد عنهم الا مسيرة ستة اسابيع ، وانها سوقا حيا يسيطر عليه حكامها الايرانيون • وبعد ان احتلها البرتغاليون ، ظلت طيلة قرن كامل سوقا تجاريا زاخرا بالثروة والمال • فكانت البضائع تتوارد عليها من الصين ، وجزائر الهند الشرقية ، وسيام ، والهند ، وتستبدل تلك البضائع بالحرير والخيول

ولآلىء البحرين • وكانت تجارة شمال ايران يومذاك ضعيفة بالنسبة لما كانت عليه في جزيرة هورموز ذلكم لان الطريق الى شمال ايران طويل محفوف بالمخاطر • يضاف الى ذلك انه لم يكن من السهل مزاحمة التجار الارمن ، ولذا فقد اضطر وكلاء الشركات التجارية الانكليزية الى ترك مراكزهم التجارية في ايران • وقد تكررت المحاولة ذاتها بعد قرنين من التاريخ الذى نحن بصدده وللاسباب ذاتها فشلت المحاولة الثانية ايضا •

وكان ممثلوا التجارة الانكليزية في ايران ، يتمتعون بالنشاط والمقدرة؛ ومعروفون بالامانة والسمعة الحسنة • حتى ان الشاه عندما اراد تقديم هدية مالية الى الحرم الشريف بالحجاز ، فانه اشترى عملة انكليزية من اولئك الوكلاء ، زاعما ان ما كان لديهم من مال ، هو مال حصلوا عليه بطرق مشروعة ، وأساليب شريفة • بينما كان ما بين يده من مال « مجموع بطريق الخداع والضغط وباساليب غير شريفة » • ومال جمع بالكيفية المذكورة لا يليق تقديمه الى النبى الكريم • وعلى العموم فان ثقة الناس بالوكلاء الانكليز، وما كانوا يتمتعون به من سمعة حسنة ، ثبتت اقدامهم في الشرق الاوسط ، واتخذها التجار ركيزة لنشر تجارتهم في هذه الاصقاع • وجاء ، ما قامت به وزارة الحربية من تصرف ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى ، مثبتا للمعتقد السائد في الشرق الاوسط ، بأن كلمة الفرد الانكليزى وعدا عليه • ففى نهاية الحرب ، قدم تاجر تركى ، مجموعة كبيرة من السندات المالية ، التى تثبت صحة المبالغ التى استدانها منه الضباط الاسراء من الانكليز • من كان منهم في قيد الحياة اسرع ودفع ما كان بذمته ، ومن توفى سددت وزارة الحربية ما في ذمته من دين •

وبذلت جهود ، اثناء الفترة التى تمت بها محاولة تأسيس علاقات تجارية

مع ايران ، من اجل تحقيق مشروع جنكنسون في تركيا • ولان تلك الجهود جاءت بعد وفاة السلطان سليمان ، فقد اقتضى الحصول على اجازة جديدة ، لان مفعول اجازة السلطان تنتهي بانتهاء حكمه • وهذا ما دعى طائفة من تجار لندن الى ارسال مبعوث الى الاستانة ، ليمهد السبيل الى بعثة تجارية رسمية • وسافر أول سفير الى الباب العالي عام ١٥٧٨ مقتفيا طريقا بريا ليكون في مأمن من عيون مزاحمي التجارة الانكليزية في البحر المتوسط • ومع كل ما لاقاه من مقاومة من لدن السفير الفرنسي ، فأنه وفق في مهمته وعاد الى انكلترة حاملا رسالة من السلطان مراد الى الملكة اليزابث ، فيها تأكيدات وافية ، يسمح بحسبها للتجار الانكليز ان يدخلوا البلاد العثمانية ، ويتاجروا مع أهلها ، ثم لهم ان يتركوها دون ان يتصدى لهم من يمنعهم عن ذلك ؛ وبالشروط ذاتها التي يتمتع بها الفرنسيون ، والفنيسيون ، البولونيون واتباع ملك المانيا •

وقد منحت الملكة اليزابث ، عام ١٥٨١ ، أولئك التجار الذين قاموا بتلك المحاولة ، براءة المتاجرة وحدهم ، مع اقطار « السنيور العظيم » ـ السلطان • وكان هذا التخويل بداية لتأسيس شركة الشرق(١) ، التي ظلت قائمـــة حتى عام ١٨٢٥ ؛ وان كانت في اخريات أيامها شبحا لما كانت عليه عند أول تأسيسها • ولاقت الشركة معارضة شديدة في عام ١٦٠٥ ، عندما طلبت تمديد البراءة الممنوحة لها ، وتوسيع مجالات فعالياتها ، بحيث تشمل القيام ببعض الاعمال السياسية ، اضافة الى ما كانت تمارسه سابقا من اعمال تجارية في تركيا • ومما دفعها لهذا الطلب ، ان الشركة استطاعت اطلاق سراح عدد من الارقاء الانكليز ، كما انها تمكنت من اقناع الباب العالي ،

(١) Levant Company.

لرفض اقتراح تقدمت به اسبانيا لعقد اتفاق عدم اعتداء بين البلدين • لان الاتفاق سييسر لاسبانيا سحب جيوشها المرابطة عند الحدود التركية ، واستخدامها في حرب الارمادا مع الانكليز في عام ١٥٨٨ • وفي هذا ما يزيد من متاعب انكلترة •

ولا ريب انه لم يكن ثمة حدود معينة ، بين فعاليات الشركة التجارية منها ، والسياسية • فمن مهام السفير مراقبة القناصل عند تأديتهم وجائبهم التجارية والادارية • ومع انه كان الممثل الدبلوماسي للتاج لدى الباب العالي ، فان الشركة هي المسؤولة عن رواتبه ورواتب القناصل الذين يعينهم، وما يحتاجونه من تكاليف عملهم الرسمي • وقد ادت معارضة مطاليب الشركة السابقة الذكر ، الى جعل وظيفة السفير وظيفة سياسية ، وتقوم الحكومة بتعيين من يشغل هذا المنصب وبالانفاق عليه • أما القناصل فظلوا تابعين الى الشركة حتى عام ١٨٤١ • وعلاوة على ذلك فان الشركة هي التي تستخدم القسس للقيام بالطقوس الدينية للجالية الانكليزية • فقد أمضى القس ادورد بوكوك[١] ، خمسة أعوام بمدينة حلب ، في الخدمة الدينية للجالية الانكليزية • قبل ان يعين لاشغال كرسي استاذية اللغة العربية بجامعة اوكسفورد ، ذلك الكرسي الذي أوجده رئيس الاساقفة لود • وكان بوكوك هذا مستشرقا عظيما جمع طائفة من المخطوطات القيمة التي لا زالت مكتبة بودلين تحتفظ بها •

واستعملت القنصليات في سوريا قواعد لرحلات استكشافية هامة • ففي الرحلة الثانية قطع الربان روبرت نيوبري[٢] الطريق البري من حلب حتى البصرة • ثم سافر من هذه المدينة الى جزيرة هورموز • ومع كل ما بذله

(١) Rev. Edward Pocock. (٢) Master Robert Newberry.

الفنيسيون من جهود ، لتحريض الحاكم البرتغالى ضد نيوبرى ، فانه مكث فى مأمن لبضعة اشهر بهذه الجزيرة ، ثم سافر منها الى بندر عباس ، ومن هذه الى القسطنطينية عبر الطريق المار من بلاد فارس فتركيا • ثم عاد الى انكلترة بعد غياب عامين عن طريق رومانيا ، وبولونيا • وتعد رحلته الثالثة أهم رحلاته الثلاث ، لانه فى هذه الرحلة ، شق الطريق الى الهند والخليج الفارسى ، ولكنه لاقى حتفه بشكل مجهول • ودون رفيقه رالف فش جميع اخبار تلك الرحلة • ففى عام ١٥٨٣ سافر نيوبرى وفش واثنان من رفقائهما، من سوريا على ظهر سفينة « نمر لندن » ، السفينة التى خلد ذكرها شكسبير فى روايته مكبث ، سالكين الطريق الذى سلكه نيوبرى فى رحلته الاولى • فلما بلغوا جزيرة هورموز القى القبض عليهم وارسلوا الى غوا ، ولكنهم فروا منها متخفين • وفى طريق عودتهم اختلفوا فيما بينهم فسلك نيوبرى طريقا يذهب به الى شمال الهند ، وانقطعت اخباره ، ولم يعرف له من مصير • أما زملاؤه الباقون فعادوا الى ارض الوطن • ومع فقدان رئيس البعثة ، فان الرحلة تعد ناجحة فى مهمتها ، لانها اظهرت ان المتاجرة مع الهند عن طريق الخليج الفارسى محفوف بالمخاطر ، لما يظهره البرتغاليون من عداء نحو الانكليز ، وان الطريق الامين الوحيد هو الطريق البحرى وان كان طويلا جدا •

ومع ما كان يعانيه الرحالة الانكليز فى اسفارهم من مصاعب ومن اخطار ، فان عددا ليس بقليل منهم عاد الى انكلترة سالما • وان البعض أمثال جنكنسون ونيوبرى لم تثنهم المخاطر عن السفر الى الشرق الاوسط مرات متعددة • وكانت نسبة الوفيات بينهم عالية ، ولا تعزى تلك النسبة الى ما كان يلاقيه الاجانب من تعديات ، مع ان بعضهم ذهب ضحية تعديات قطاع

الطرق ، وان احدهم أحرقه ديوان التفتيش البرتغالى فى جزيرة هورموز ؛ وانما تعزى الى كثرة الاوبئة والامراض كالملاريا والدسنترى وغيرهما • وللتثبت من صحة تلك النسبة لا بد من مقارنة عدد الوفيات بين الاوربيين فى الشرق الاوسط وعدد الوفيات فى انكلترة حينذاك ، وقد كان سكان انكلترة فريسة للكوليرا وللتيفوس وحتى للطاعون • ومما كان يزيد فى وفياتهم استعمالهم العلاجات التى هى أقرب الى السحر منها الى العلاج الطبى •

ولم يكن من السهل على الرحالة الاجنبى تعلم لغات البلاد التى يرتادها فكان يحرف الكلمات الشرقية ويستعملها فيما يكتبه من كتب استعمالا مشوها• مثله كمثل الانكليزى الذى شاهد فى الهند موكب عزاء الحسين ، فكتب يقول ان الموكب ينادى « هوبسن ـ جوبسن » أى الحسن والحسين • وكان الاجنبى يسعى الى تقريب الكلمات الاجنبية الى لغته • فمثلا سمى الشاه طهماسب « شوتوماس » والخليفة عمر « هومر » وهكذا • ولا ريب ان جهله اللغات المحلية أوقعه فى مشاكل عدة • فرسائل الملكة اليزابث الموجهة الى شاه ايران كانت معنونة الى « الصوفى العظيم » • والانكليز بعملهم هذا كانوا لا يفرقون بين « الصوفى » و « الصفوى » لقب الاسرة الحاكمة • وان نعتهم الشاه « بالصوفى » لا يعنى تعظيمه • فالصوفى درويش يقضى حياته فقيرا • وقد استعمل اول سفير لدى الباب العالى اللغة اللاتينية فى مراسلاته مع الحكومة التركية • ولم يكن موفقا فى مراسلاته تلك • ففى احدى المرات ، كتب رسالة شديدة اللهجة ، متهما الموظف التركى المسؤول عن تحرير الرسائل ، بأنه أخطأ فى مواقع ثلاثة عند ترجمة رسالة السلطان ؛ وطلب الا تكرر تلك الهفوات •

ومع كل ما تقدم ذكره من مصاعب ومشاكل فقد استطاع اولئك الرحالة جمع معلومات كثيرة هامة عن الاقطار التي ارتادوها • فكانت رسائلهم الى رؤسائهم في انكلترة غير مقتصرة على المعلومات التجارية وحدها • وانما كانت تتضمن بعض الملاحظات عما يجتازون من طرق وعما يكتنفهم من أوضاع • وربما تناولت رسائلهم المعتقدات الدينية السائدة في الشرق • ونستطيع ان نؤكد ان البعض مما جاء في تلك الرسائل ، لا زال منطبقا على الاوضاع الراهنة بايامنا هذه ، في بعض اقطار الشرق الاوسط • فالسفن النهرية التي كانت تسير في نهر الفرات ، والاكلاك التي كانت تسير في نهر دجلة ، لم تتغير منذ ذلك التاريخ حتى الان • كذلك لم تتبدل أساليب المعيشة عند ساكني الاهوار ، وهم يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون في الامس • كان عربي الاهوار يومذاك يجهل استعمال البندقية ، ويخشاها ، ولكنه منذ عام ١٩١٤ اتقن استعمال هذا السلاح ، واخذ يهدد به الناس • وكان يسرق بندقية الجندي الانكليزي النائم ، بالمهارة ذاتها عندما كان يسرق ، في عام ١٥٨٣ ، محفظة جون الدريد من تحت رأسه •

أما التجار الانكليز فقد كانوا سريعين في ادراك ما يسيء الى أهل أقطار الشرق ، ويتفادون ذلك • فعندما طلب شاه ايران كميات كبيرة من البضائع الانكليزية ، ومن بينها مائة فرشاة للملابس ، كتب وكلاء شركة الشرق طالبين صنعها من غير شعر الخنزير • كما انهم حذروا شركتهم من نعتها الشاه بالصوفي • ولم يكن البعض من التقارير التي قدمها وكلاء الشركة عن مصادر الثروة في الشرق ، ذات أهمية للتجارة الانكليزية يومذاك • لكنها أصبحت بعد ذلك ذات أهمية بالغة ، بالنسبة للمصالح البريطانية • فمثلا عندما قدم أحد الانكليز القاطنين في ايران تقريرا ضافيا عن استعمال

سكان ايران ، زيت باكو وقودا ، وكانت باكو يومذاك اقليما فارسيا ، لم يعن به ، واهمل • وبعد مضى بضعة قرون استغلت المهارة الانكليزية ، والرأس مال الانكليزى ، فى انماء حقول نفط باكو ، وحقولا اخرى في جنوب المملكة • ودون جنكنسون فى تقاريره ، ان عرق السوس يكثر عند جانبى نهر الفولغا ، ولم يكترث احد بتلك الملاحظة ، فلما انتشرت صناعة التبوغ ، قامت احدى الشركات الانكليزية بتصدير عرق السوس من بلاد القوزاق ، وبلاد الاناضول ، ومن سوريا والعراق • ولا زال الكثير من الجنود البريطانيين ، الذين خدموا خلال الحرب فى العراق ، يذكرون « المكينة » بالقرب من البصرة • ويعنون بذلك ماكنة السوس حيث تحزم العروق وتصدر خارج العراق •

وقد بدأ الميل للارتياد يظهر عند الانكليز ، فى عهد هنرى السابع ، ونظمت رحلات الى روسيا قبل وفاة ادورد السادس • ولكن الاستكشاف والتوسع التجارى ، لم ينمو ويترعرع الا فى عهد الملكة اليزابث • ويعزو هاكلويت ذلك الى اهتمامها الخاص بتوسيع التجارة الانكليزية ، وحمايتها لها • ومع ان هذا المؤرخ يعترف بان الاسبانيين ، والبرتغاليين ، والفرنسيين، سبقوا الانكليز فى الارتياد التجارى ، الا انه ينوه باعجاب ، عن الاعمال الاستكشافية ، التى قام بها الانكليز فى عهد ملكتهم اليزابث • ومما اورده فى فاتحة « رحلاته » • — « أى ملوك هذه الارض خفقت بنوده على بحر قزوين قبل جلالتها ؟ بل أى منهم استطاع التعامل مع امبراطور ايران ، كما تعاملت جلالتها معه ، فاستطاعت الحصول على امتيازات كثيرة وحسنة لتجارتها ؟ بل من شاهد قنصلا انكليزيا فى طرابلس الشام وفى حلب والبصرة ؟ واكثر من هذا كله ، من سمع انكليزيا فى غوا قبل اليوم ؟ » •

الحق انه لم يشاهد احد قبل عهد الملكة اليزابث ، سفيرا انكليزيا لدى الباب العالى ، بالقسطنطينية أو قنصلا انكليزيا فى طرابلس أو حلب أو بغداد أو البصرة • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففى آخر يوم من أيام عام ١٦٠٠ منحت الملكة شركة شرق الهند براءة منحتها بها حق احتكار المتاجرة مع الشرق كله • فان ما كان يستورده البرتغاليون والهولنديون من بضائع غنية ، اثارت اطماع التجار الانكليز ، ودفعتهم الى المساهمة بتجارة رابحة كتلك التجارة • وان اندحار الارمادا الاسبانية ، دعت الانكليز الى تحدى الادعاء القائل بان الاسبانيين والبرتغاليين هم المحتكرون لتجارة الشرق • ومما يجب الا يغفل بهذا الصدد ، ان شركة شرق الهند أسسها اعضاء شركة الشرق • وشركة شرق الهند هى التى مكنت التجارة الانكليزية من النفوذ الى الشرق الاوسط عن طريق البحر الاحمر ، والخليج الفارسى •

وأولى المحاولات ، للاتجار مع موانى البحر الاحمر ، قامت بها سفينتان بلغتا عدن فى ابريل (نيسان) من ١٦٠٩ ، بعد ان امضتا عاما كاملا فى البحر حاملة بضائع حديدية ورصاصية وقصديرية وصوفية • ولم يقدر النجاح لتلك المحاولة ، لان عدن كانت يومذاك ميناءا صغيرا ، تقطنه حامية قليلة ولعدم تيسر تصريف البضائع فى ذلك الميناء الصغير ، اضطر الوكيل العام جون جوردين[١] للسفر الى صنعاء فى اليمن ، ومنها الى موخا ، ولكنه فشل فى اقناع باشا صنعاء ، لتخفيض الضرائب على البضائع المستوردة • كما ان الباشا حذره من السفر مرة اخرى داخل اليمن ، ما لم يحصل على جواز خاص من القسطنطينية •

وتمت البعثة الثانية بقيادة السر هنرى مدلتون[٢]، فى عام ١٦١٠ — ١٦١١

---

(١) John Jourdain.

(٢) Sir Henry Middlton.

ولم يكن مصيرها احسن من مصير البعثة الاولى • فعندما بلغ مدلتون ورفقاؤه مدينة موخا ، القى حاكم المدينة القبض عليهم ، واودعهم السجن ، ولكنهم فروا وعادوا الى سفينتهم • وانتقاما لما اصابهم ، حاصر مدلتون الميناء • وظل الميناء محاصرا الى ان غير حاكمه • واعتذر الحاكم الجديد ، مدعيا بان البعض من اتباع مدلتون اساءوا التصرف وتعرضوا بالنساء ودنسوا المساجد واحتسوا خمرة اشتروها من يهود المدينة •

وكانت الشركة تسعى للمتاجرة مع موانى البحر الاحمر ، تعويضا عما يلحقها من خسارة بمتاجرتها مع الهند • فقيمة المواد المصدرة الى الهند كانت لا تسد نفقات البضائع المراد نقلها الى انكلترة • ولهذا وجدت الشركة ، ان خير علاج للوضع ، هو نقل بعض بضائع الهند سواء اكانت انكليزية ، أم شرقية الى موخا ، لبيعها الى المصريين مقابل سبائك ذهبية • ومع ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل ، فقد ثبتت أقدامها فى الشرق حتى ان الانكليز أسسوا لهم معملا فى مدينة موخا ، وبقى هذا المعمل قائما حتى أواسط القرن الثامن عشر • فمن موخا استورد الانكليز القهوة ، الشراب الذى اثر فى الحياة الانكليزية تأثيرا بالغا ، بعد ان اتخذت محلات بيع القهوة ندوات اجتماعية يرتادها الناس •

وتجدد أمل المتاجرة مع ايران ثانية بعد ان ارسل الشاه رسائل الى جيمس الاول والى غيره من حكام اوربا • وكان مبعوث الشاه روبرت شيرلى(٢) احد الاخوين الانكليزيين الذين وضعا أسس الجيش الايرانى النظامى • وكان الغرض الاول من ايفاد شيرلى هذا ، ايجاد اسواق للحرير الايرانى الخام • ومع انه فشل فى مهمته لشدة الشروط التى كان الايرانيون يفرضونها ، فقد ساهم فى ايجاد علاقة تجارية مع انكلترة ، عندما استصدر

(٢) Robert Sherley.

من الشاه ثلاثة أوامر شاهانية تجيز لبواخر شركة شرق الهند ، دخول موانى الخليج • ونتيجة لذلك اتخذت جسك قاعدة للتجارة الانكليزية ، حيث قامت الشركة بشراء سبعين بالة حرير ، باعتها الى الشركات الانكليزية الاخرى بارباح عالية •

ولاقت محاولة الانكليز ، للنفود الى تجارة ايران عن طريق الخليج الفارسى ، مقاومة عنيفة من لدن البرتغاليين • ومع ان انكلترة كانت على وئام مع اسبانيا سنة ١٦٠٤ و البرتغال كانت احدى مقاطعاتها ، فان البرتغاليين الموجودين فى الهند لم يستقبلوها الاستقبال الحسن • وانهم لم يكتفوا باستعمال اساليبهم السياسية ، للتأثير على ملك الهند ، المغولى الكبير ، لمنع الانكليز من النفوذ الى الهند • بل واوعزوا الى سفنهم ، التى لم تكن محصنة التحصين الكافى ، لمهاجمة السفن الانكليزية • ومع ان السفن البرتغالية صدت على اعقابها ، فان السفن الانكليزية تكبدت خسائر كبيرة • وامتد الصراع بين الاثنين الى الخليج الفارسى ، حيث اضطرت السفن الانكليزية المثقلة بالحرير الايرانى ، الى صد هجوم برتغالى عنيف ، الامر الذى صير البرتغاليين فى عداء مع الشاه • فلما جاءت نجدة برتغالية الى جزيرة هورموز، استنجد الشاه بالانكليز ، لابعاد البرتغاليين من الجزيرة ، واستردادها منهم، مهددا فى حالة رفض الانكليز طلبه الغاء جميع ما منحه لهم من امتيازات تجارية • وقد ادى الهجوم المشترك على البرتغاليين فى الجزيرة ، الى طردهم منها ، والى اتخاذ جاسك على ساحل الخليج مركزا تجاريا بدلا من الجزيرة•

واخذت التجارة الانكليزية فى جاسك بالازدهار ، ولا يعزى الفضل فى ذلك الى التخلص من مزاحمة البرتغاليين ، بل الى فقرة وردت فى الاتفاق المعقود بين الشاه والانكليز • تعفى البضائع الانكليزية بحسبها من الضرائب

الكمركية وتشرك السلطات البريطانية بما يجنى من ضرائب على البضائع الاجنبية الاخرى • ولما وجد ان جاسك لا تفى بالغرض ، نقل الانكليز مركز تجارتهم ، الى بندر عباس ثم الى ابى شهر • واسست شركة شرق الهند ، عام ١٦٤٠ ، مصنعا لها فى البصرة ، ولضعف التجارة انكليزية مع العراق ، قضى على المشروع ولم يمض على تأسيسه اكثر من عشرين عاما •

ومع ان الخطر البرتغالى تقلص فزال ، فان السفن الاوربية التى تبحر نحو الشرق ظلت عرضة لهجمات القرصان العرب • وقضى على هذا الخطر باتفاق دولى مشترك ، عقد عام ١٧٧٠ ، عهد بحسبه الى الافرنسيين أمر حراسة الخليج الفارسى ، والى الهولنديين أمر حراسة البحر الاحمر ؛ بينما تعهد الانكليز بحراسة البحار الجنوبية •

واعيدت فى القرن الثامن عشر محاولة المتاجرة مع شمال ايران عبر روسيا • وجاء تفصيل هذه المحاولة فيما كتبه جوناس هونوى[1] فى رسائله • وكان هونوى هذا ، يتحلى بشجاعة جسمية ، مكنته من التغلب على المخاطر التى جابهها فى ايران ، لا تقل عن شجاعته المعنوية ، يوم ان حمل أول مظلة شهدتها لندن • وعندما تحدى صاموئيل جونسون ، وهاجم محلات شرب الشاى باحدى رسائله • وكان الهدف الاول لتلك المحاولة بيع الاصواف الانكليزية ، وشراء الحرير الخام من ايران • وكانت شركة الشرق ترغب فى عدم مزاحمة التجار الارمن ، الذين اتخذوا حلب مركزا تجاريا لهم ، والذين كانوا يجلبون البضائع الانكليزية عن طريق حلب الى ايران ؛ سيما وانه كان فى الامكان شراء الحرير الايرانى الخام فى أسواق سنت بطرسبورغ • ولكى تتحاشى الشركة الروسية (الانكليزية) وساطة الوسطاء

(١) Jonas Honway.

التجاريين ، استحصلت على اجازة من الحكومــة الروسية عام ١٧٤٣ ، للمتاجرة مع موانى بحر قزوين • وسمح للشركة ان تبنى سفينة فى روسيا، لتستخدمها فى تجارتها فى بحر قزوين • وحاولت الشركة ان تبنى سفينة اخرى فلاقت صعوبات جمة ، مردها ظهور المزاحمة التجارية الروسية •

والحقيقة ان العداء الروسى جاء نتيجة تصرفات البعض من الانكليز ، أمثال جون التون(١) ، الذى بدأ حياته بحارا ، ثم صار وكيلا للشركة الروسية فى شمال ايران • وفى اثناء وجوده فى ايران ، استخدمه الشاه ، لبناء سفن لمخر عباب بحر قزوين ، « على غرار السفن الاوربية » • ولم يكن متوقعا كما يقول هونوى ، ان يرحب الروس بظهور سفن ايرانية ، تجارية أم غير تجارية • فى بحر قزوين • وخوفا من أن يتنكر الروس للشركة استخدمت ما تتمكن عليه من ضغط ليعتزل ألتون خدمة الشاه • ولكنه رفض ذلك ، ويقال ان الشاه لم يسمح له باعتزال الخدمة • وبعد جهود جبارة استطاع بناء بعض السفن ، مع كل ما كان يعانيه من عدم رغبة الايرانيين فى العمل ، لانهم كانوا يسخرون اليه بدون اجر وبدون طعام •

وربما كانت المزاحمة التجارية وحدها كافية لوضع نهاية للمحاولة الانكليزية • ومع ذلك ، فقد كان للقنصل الروسى فى شمال فارس من الاسباب ، ما يبرر له مقاومة التجار الانكليز فانه عجز عن فرض ضرائب على التجارة الانكليزية ، شأن ما يفرضه على التجار الارمن ، وهذا ما جعله ان يقنع السلطات الروسية فى استراخان ، بمنع السفينتين الانكليزيتين من العودة الى ايران ، بزعم ان أى بضاعة فارسية تنقلها تلك السفن لا بد وان تكون ملوثة بمرض الطاعون • وكان من نتائج تلك المقاومة ان باعت

---

(١) John Elton.

الشركة الروسية ، السفينتين الى مزاحميها من التجار الروس بثمن بخس• وفى عام ١٧٤٦ ، منعت الحكومة الروسية ، الانكليز من المتاجرة مع مدن بحر قزوين • وبعد مدة وجيزة من هذا المنع ارتحل وكلاء الشركة عن ايران • وعندما حدثت الثورة التى اعقبت وفاة نادر شاه ، بلغت قيمة البضائع المنهوبة من مخازن وكلاء الشركة نيف وثمانين ألف جنيه • ويظن الوكلاء ان اكثر تلك المنهـوبات ، ذهب الى الروس ؛ وازدحمت دار القنصلية الروسية بكثير من البضائع المنهوبة •

القسم الثالث

بدء المسألة الشرقية

- ١ -

بعد ان تم الاتصال مع الهند عن طريق البحر ، صار من الطبيعي ان تتناقص التجارة البريطانية مع اقطار الشرق • فقد كانت كلفة النقل البحري للبضائع الهندية وللحرير الايراني المستورد الى بريطانيا عن طريق الخليج الفارسي ، اكثر رخصا مما كانت عليه قبل فتح قناة السويس • ولذلك سهل اعادة تصدير تلك المواد وبيعها في اسواق الشرق ، مزاحمة البضائع المستوردة اليها عن طريق العراق فسوريا • والواقع ان التجارة البريطانية كادت ان تتوقف في مصر ، مما دعى الى الغاء القنصليات البريطانية فيها • كما أوكل أمر الاشراف على المصالح البريطانية في سوريا الى العناصر الاجنبية الاخرى ولا سيما الايطاليين منهم • وقد جاء هذا الوضع في صالح فرنسا التي كانت تمشي تجارتها الشرقية مع مدى صداقتها الوطيدة لتركيا • فازدهرت تجارتها في الشرق ازدهارا كبيرا •

فلما أدرك الانكليز أهمية الشرق بالنسبة لمصالحهم أخذوا يعنون بشؤونه ؛ وكان هدفهم الاول استخدامه كأقصر الطرق الى الهند • ولذلك حاولوا عام ١٦٩٨ فتح طريق بري تجاري يوصل تجارة البحر الاحمر عبر مصر الى البحر المتوسط • ولكن محاولتهم هذه فشلت لان الباب العالي رفض السماح للبواخر التابعة لدول مسيحية الابحار في البحر الاحمر

لابعد من ميناء جدة • خشية نفوذ الاجانب الى المدن المقدسة ـ مكة والمدينة ـ القريبتين من ساحل البحر الاحمر • والحقيقة ان عوامل اقتصادية اخرى كانت الباعث لهذا المنع • فان ما كان يجبى من ضرائب فى جدة يضاف الى الخزينة التركية ، بينما تلك التى تجبى من الكمارك المصرية كانت تدخل الى جيوب المماليك • يضاف الى هذا ان الاهتمام بطريق البحر الاحمر سيقضى على الطريق البرى عبر العراق فسوريا •

ولقد كان المنع المذكور يتناقض والسماح الذى منح الى البواخر الانكليزية لزيارة جميع الموانىء العثمانية دون ان تجد ما يعيقها • وظل هذا المنع قائما حتى عام ١٧٧٦ عندما تغلب المملوك على بك على زملائه من المماليك وفرض استقلاله عن الباب العالى • ففتح ميناء السويس بوجه الاجانب وكتب الى حاكم البنغال مؤكدا الفوائد التى تجنى من الاتجار مع مصر • وعندما استلم الرسالة ورن هيستنج[١] بعث بهدايا كثيرة الى على بك واعدا ان سفنه ستبحر الى مصر فى العام التالى • غير ان ولاية على بك لم تدم طويلا فقد اغتصب الولاية منه زميل آخر • ومع ذلك فقد أكد المملوك المغتصب ، الدعوة السابقة الموجهة الى الهند بشأن التجارة البريطانية ، ووعد بخفض الرسوم الكمركية الى ٨ ٪ بدلا من تلك التى كانت تجبى فى جدة وقدرها ١٤ ٪ • على أن الحكومة البريطانية لم تنظر الى هذه الدعوة بتحمس خشية اغضاب الباب العالى ، وبالتالى الاساءة الى تجارة شركة شرق الهند[٢] •

وكان جورج بولدون[٣] اكثر المتحمسين للطريق عبر مصر • سيما بعد ان عين قنصلا بريطانيا فيها • فقد أسس طريقا لنقل البريد بين الهند

George Baldwin. (٣) East India Company. (٢) Warren Hasting. (١)

وبريطانيا عبر مصر • وكان البريد ينقل قبل هذا عبر حلب مارا بالخليج الفارسى • ومع ان نقل بريد الشركة كان يجرى بكفاءة عالية ، وباقصر مدة ممكنة ، فان الطريق الذى اوجده بولدوين قلل من الوقت اللازم لنقل البريد الى حد النصف أو الى ثلاثة أرباع ما كان يتطلبه سابقا • وقد اعترض الباب العالى على التدبير الجديد ، كما احتج بشدة على نقل البضائع بالطريق المصرى • وكانت ثمة أسباب اقتصادية دعت الى ذلك الاحتجاج ، والى جعل الباب العالى يشك في نوايا بريطانيا ؛ مما اضطر حكومة لندن الى الغاء طريق البريد عبر مصر ، والى الغاء تجارتها مع هذا البلد والى استدعاء بولدون • وحدث ان نشبت فى ذلك الحين حرب بين بريطانيا وفرنسا فكانت فرصة لبولدون ان يبرهن على أهمية الطريق الذى اوجده لارسال انباء الحرب الى سلطات الهند بوقت مكن تلك السلطات من الاستيلاء على بوندشرى وعرقلة النشاط الفرنسى فى الهند ، قبل ان يتسنى للفرنسيين فى الهند معرفة اخبار الحرب مع بريطانيا • وقد قيل بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، لو كان الطريق الجديد مفتوحا عندما عقدت الهدنة بين الطرفين المتحاربين ، لسلمت أرواح ما لا يقل عن ثمانين ضابطا بريطانيا ونيف وألفى جندى قتلوا بعد ان عقد الصلح بين فرنسا وبريطانيا •

وقد اثار النشاط البريطانى شك الفرنسيين • فان البريطانيين لم يكتفوا بتقليم أظافر الفرنسيين فى الهند ، بل أخذوا يثبتوا اقدامهم فى مصر • لقد كان الفرنسيون يحاولون منع البريطانيين فى عهد الملكة اليزابث من اقامة علاقات دبلوماسية مع ألباب العالى ، وهم الان يرون ضرورة عزل بريطانيا عن مصر • والواقع ان احتلال نابليون لمصر عام ١٧٩٨ لم يكن عملا اقتضته الظروف المفاجئة ، بل كان نتيجة تصميم وضعت اصوله قبل ثلاثين عاما من

وكانت السياسة الفرنسية فى مصر احدى مظاهر المسألة الشرقية التى بدأت بريطانيا تعنى بها فى القرن الثامن عشر . ويمكن تعريف المسألة الشرقية تعريفا كاملا بانهـــا معضلة املاء الفـراغ الحاصل نتيجة تقلص الامبراطورية العثمانية عن الحدود التى وصلت اليها فى أوج توسعها . وقد بدء هذا التقلص فى أواخر القرن السادس عشر نتيجة الضغط النمساوى . ومنذ نهاية القرن السابع عشر كان العامل الرئيسى فى المسألة الشرقية محاولة روسيا مضاعفة نفوذها على حساب تركيا ، أما عن طريق التوسع الاقليمى أو بالسيطرة على المضائق ـ البسفور والدردنيل ، أو بخلق حق لها للتدخل فى شؤون تركيا الداخلية .

وكان الحلف الفرنسى التركى الذى طالت مدته ، يهدف الى التفريق بين تركيا وبريطانيا . وزاد فى التباعد بين البلدين ان أهمية التجارة البريطانية مع روسيا جعلت الانكليز يعنون بتوطيد علاقتهم مع روسيا بدلا من تركيا . فقد أعلن شاثم[1] ان الصداقة البريطانية الروسية يجب ان تكون حجر الزاوية للسياسة الخارجية لبريطانيا . ولكن وليم بت[2] أخذ يشك فى نوايا الروس ؛ وكان محقا فى شكه ، لان السياسة التى اعلنتها الامبراطورة كاترين كانت تنطوى على اخراج الاتراك من القسطنطينية ، واعادة تأسيس الامبراطورية البيزنطية تحت تاج روسى . وبعد ان انتصرت روسيا على تركيا ـ والفضل فى ذلك يعود الى الضباط البريطانيين فى البحرية الروسية ، فرضت كاترين على تركيا عام ١٧٧٤ معاهدة كاينارجى . وبموجب هذه المعاهدة استطاعت روسيا استعادة نفوذها فى البحر الاسود ، كما اعطت

(١) Chatham. (٢) William Pitt.

نفسها حق التدخل فى الشؤون التركية الداخلية • وكما اضطر الباب العالى الى الموافقة على منح حق العبادة الى رعاياه من المسيحيين ، فانه كذلك اعطى وعدا باستعداده لتقبل أى طلب تتقدم به روسيا نيابة عن الاورثودوكس اليونان من المسيحيين •

وقد اثارت معاهدة كاينرجى خوف بريطانيا من مدى اتساع النفوذ الروسى فى تركيا • ومما زاد فى ذلك الخوف الهجوم غير المتوقع الذى قامت به روسيا على القرم بعد عقد تلك المعاهدة ببضع سنوات • وفاتحة تحول السياسة البريطانية عن روسيا ، اصدار الحكومة البريطانية أمرا يقضى بمنع جميع البحارة البريطانيين من الخدمة فى الاسطول الروسى • وكان وليم بت على استعداد لاعلان الحرب على روسيا ابقاء للتوازن الدولى • واذا ما كان فوكس من انصار روسيا فان بت كان يعتقد ان تركيا صديقة لبريطانيا• وقد اتفقت السياستان بعقد حلف بين بريطانيا وروسيا وتركيا ضد السياسة الفرنسية فى مصر •

وارسل البريطانيون اخبار فشل اسطول نابليون فى موقعة النيل الى الهند بواسطة رسول قام بالسفرة خلال سبعين يوما مقتفيا الطريق القديم عبر سوريا فالعراق ؛ ذلك الطريق الذى ظل متبعا حتى نهاية الحرب النابليونية • وقد لعبت الجيوش البريطانية دورا هاما فى القضاء على حركة نابليون لمنعه من بلوغ الهند • وكان ذلك عن طريق مساعدة الاتراك فى الدفاع عن عكا • فتغلبت الجيوش العثمانية على الفرنسيين الذين ارتدوا الى مصر ؛ واعقب ذلك عودة نابليون الى فرنسا • وبعد هذا حدث خلاف بين بريطانيا وتركيا سبب تصدع الحلف بينهما تصدعا لا مبرر له • فان الاسطول البريطانى حاول الدخول الى بحر مرمرة ولكنه اضطر الى

الانسحاب بعد ان علم بتحصين القسطنطينية تحصينا محكما بتحريض من الممثل الفرنسى فى تركيا •

وكانت محاولة احتلال مصر اعظم كارثة • ففى هذه الاثناء نظم محمد علي ، وهو ألبانى عين حاكما (باشا) لمصر قوة اعظم من قوة المماليك التى استطاع نابليون التغلب عليها • فصدت قوة محمد علي الجيوش البريطانية التى كانت تنوى احتلال مصر وأسرت عددا كبيرا من رجالها • وقد قام محمد علي باستعراض الاسرى البريطانيين فى القاهرة ثم أمر بقطع رؤوس اربعمائة أسير منهم فى قلعة القاهرة • وكان من بين الاسرى جندى اسكوتدلاندى أسلم وتطوع بخدمة محمد علي واشترك بالحروب التى وقعت بين جيوش محمد علي والوهابيين فى جزيرة العرب • وكان أول من اخترق أسوار المدينة المنورة التى كانت بيد الوهابيين • وربما كان هذا الاسكوتلاندى هو عثمان الذى صادفه كنجليك فى القاهرة • فان عثمان هذا وان كان شرقيا بعدد حريمه فانه ظل اسكوتلانديا بكتبه ؛ فكثيرا ما كنت تسمعه يردد هذا الكتاب من ادنبره وذاك من مكتبتها — وكل ما يحرص عليه من كتب من دار الكتب بادنبرة[1] •

- ٣ -

وقد حفز هجوم نابليون على مصر واعلانه عن نواياه بشأن الهند ، الحكومة البريطانية لاحتلال جزيرة بريم ، وهى جزيرة صغيرة فى مضيق عدن • ولردائة الاحوال الجوية فى تلك الجزيرة ولفقدان الماء العذب فيها ، اضطرت الجيوش البريطانية الى الانسحاب منها نحو مدينة عدن • وظلت

(١) Edinburgh Cabinet Library.

معسكرة فى هذه المدينة حتى زوال خطر نابليون عن الهند • وبالوقت ذاته تم عقد أولى تلك الاتفاقات التى اعطت بريطانيا وضعا خاصا فى الخليج الفارسى • ففى عام ١٧٩٣ ساند حاكم مسقط البريطانيين ضد الفرنسيين والهولنديين طوال مدة الحرب بين هذه الدول من اجل السيطرة على الخليج• وفى عام ١٨٠٠ تم عقد اتفاق خطى بين بريطانيا وحاكم مسقط ، خولت بريطانيا بحسبه تأسيس مركز لممثل سياسى بريطانى فى مسقط • وقد حاولت فرنسا تأسيس مثل هذا المركز للبعثة الفرنسية هناك ، ولكنها فشلت فى محاولتها • وتلاشى الخطر الفرنسى بعد ان تم احتلال البريطانيين لجزيرة موريشيوس واخراج فرنسا منهاعام ١٨١٠ •

وكان التعاون وثيقا بين بريطانيا وحاكم مسقط من اجل مكافحة القرصان الذين استفحل امرهم فاغتصبوا سفينة من سفن شركة شرق الهند • وكانت الشركة تظهر صبرا متزايدا ازاء اعتداءات القرصان كما كانت تعاقب بشدة كل من يتصدى للقرصان من قادة سفنها • وبعد ان استفحل امرهم اضطرت الشركة الى ان تقوم بعمل حاسم مع القرصان الذين كان اسيادهم الوهابيون يحرضونهم على اعمالهم تلك • فاستولى البحارة البريطانيون على مراكز القرصان ودمروها تدميرا كاملا • ومما يذكر بهذا الصدد ان البحث عن مخابىء القرصان تطور الى القيام بمسح شواطىء الخليج جميعها •

- ٣ -

واستطاع البريطانيون اقتلاع التأثير الفرنسى من العراق خلال الحرب النابليونية • ومنذ ذلك الحين اعطى المقيم البريطانى فى بغداد

وضعا خاصا كما اولته كل من الحكومة البريطانية وشركة شرق الهند أهمية خاصة . وقد تولى هذا المنصب عدد من الرجال البارزين نذكر منهم المستشرق كلوديوس جيمس ريش[1] والسر هنرى راولنسون[2] .

- ٤ -

وفى ايران كانت الظاهرة ذاتها التى ألفيناها فى تركيا تفعل فعلها . فالخطر من الفرنسيين آخذ فى التناقص ، والخطر من الروس آخذ بسرعة فى التزايد ، نتيجة ما اصاب قوة ايران من وهن وتفسخ . وقد بدأت العلاقات التجارية بين ايران وبريطانيا بعد ان احتلت بريطانيا جزيرة هورمز . واقيمت علاقات دبلوماسية بين البلدين بعد ان احتل الفرنسيون مصر وعين كابتن مالكولم — السر جون مالكولم[3] — ممثلا فيها لحكومة الهند . وقد توصل هذا الممثل الى عقد اتفاق مبدئى مع الحكومة الايرانية ، تقوم ايران بحسبه بمحافظة حدود الهند الشمالية الغربية ، وتقوم حكومة الهند بتقديم المساعدات اللازمة لايران فى حالة الاعتداء عليها . كذلك وافقت ايران على ان يلقى التجار البريطانيون مساعدات تجارية واسعة وان يخرج الرعايا الفرنسيون من ايران . وعندما ازداد الضغط الروسى المستمر على ايران ، توسلت بتلك الاتفاقية مطالبة مساعدة بريطانيا . فلما لم تجد المساعدة المرجوة ، ادارت وجهها نحو فرنسا ثانية . وكانت هذه فى حرب مع روسيا ، فعقدت معها معاهدة استهدفت فرنسا منها توسيع مطامع نابليون فى الهند . غير ان تلك المعاهدة ولدت ميتة ؛ ذلكم لان نابليون عقد معاهدة تلست[1] مع القيصر ، اعطت فرنسا بحسبها يدا مطلقة فى اوربا ، كما اطلقت يد

---

(١) Claudeus James Rich. (٢) Sir Henry Rawlinson.

(٣) Sir John Malcolm. (١) Treaty of Tilsit.

روسيا فى آسيا .

وقد ضعف مقام مالكولم فى ايران من جراء ايفاد مبعوث بريطانى آخر من بغداد ، هو السر هارفورد جونس[2] لم يكن هذا ممثلا عن حكومة الهند بل كان يمثل الحكومة البريطانية مباشرة . ومن حسن الحظ ان الممثلين لم يختلفا فيما بينهما ، واستطاعا ان يظلا على وئام تام . ولا ريب ان التدخل البريطانى ساعد فى احلال السلام بين ايران وروسيا . وفى عام ١٨١٤ تم الاتفاق مع بريطانيا ، تمنع ايران بحسبه مرور الجيوش الاوربية الى الهند عبر بلادها ؛ والا تعقد ايران أى اتفاق يضر بالمصالح البريطانية . مقابل ذلك تتسلم ايران منحة سنوية قدرها ١٥٠,٠٠٠ جنيها طالما لا تشترك فى حرب اعتدائية ، وتتعهد بريطانيا بالمحافظة على سلامة ايران من أى اعتداء خارجى .

— ٥ —

وظل الساسة البريطانيون منهمكين طوال عشرين عاما بسلسلة من الحوادث التى سببتها ثورة اليونان على الاتراك . فقد كانت بريطانيا تحرص كل الحرص لابقاء علاقتها حسنة بالباب العالى ؛ ولكنها بالوقت ذاته كانت مضطرة لان تراعى شعور الشعب البريطانى المتزايد والحاحه لمعاونة اليونان — فمن اجل قضية اليونان لاقى بايرون حتفه — ؛ كما اضطرت لمساعدة اليونان خشية ان تتبع روسيا سياسة مغايرة بالنسبة الى تركيا . وفى الاخير اضطر الاسطول البريطانى للانضمام الى الاسطول الفرنسى والاسطول الروسى لتحطيم اسطول تركيا ومصر فى موقعة نافارينو . واضطر محمد

(٢) Sir Harford Jones.

علي لسحب جيوشه من اليونان أثر تهديد الاسطول البريطانى لقصف الاسكندرية ، تلك الجيوش التى بدونها لن يتيسر للسلطان اخماد ثورة اليونان • وبضغط من الدول الاوربية على تركيا منحت اليونان استقلالها عام ١٨٣٢ •

وكان السلطان قد وعد محمد على بالحاق عدة ولايات له مقابل مساندة الجيوش المصرية الجيوش العثمانية فى حربها مع اليونان • وفى نهاية الحرب لم ينفذ السلطان وعده ، محتجا بأن حملة محمد علي على اليونان باءت بالفشل • واغضب هذا الموقف محمد علي فاعلن الحرب على السلطان وكادت جيوشه تحتل القسطنطينية فى ظرفين كان لهما اثرا كبيرا فى توجيه السياسة الاوربية بالنسبة لتركيا • ففى الظرف الاول تقدم القيصر مادا يده الى السلطان كصديق وحيد له بعد ان اخذت فرنسا بمساندة محمد علي وبعد ان تخلت بريطانيا عن السلطان خشية اغضاب فرنسا • وكان الاسطول البريطانى يومذاك راسيا فى الدردنيل وكان يهدف حماية القسطنطينية من خطر محمد علي • فاعتبر السلطان هذا الموقف من بريطانيا تهديدا له دعاه الى ان يسمح بأنزال الجيوش الروسية الى البسفور • ومقابل حماية روسيا للقسطنطينية وقعت تركيا عام ١٨٣٣ معاهدة انكير اسكليسى(١) التى أعطت روسيا ، تحت شعار التحالف العسكرى ، حق التدخل بالشؤون التركية ، حتى وان اقتضى هذا قوة السلاح • يضاف الى ذلك ان تلك المعاهدة كانت تتضمن مادة سرية ، افتضح أمرها بعد ذلك بقليل ، تقضى بانه فى حالة نشوب حرب بين روسيا ودولة اخرى فان من واجب تركيا كحليف لروسيا ان تغلق ابواب الدردنيل عندما تقضى الضرورة بذلك أو عندما تطلب روسيا

---

(١) Treaty of Unkiar Iskelessi.

اليها غلقها •

ولم يجد احتجاج كل من بريطانيا وفرنسا نفعا لفسخ تلك المعاهدة الجائرة ، ولكنها فسخت عندما وقع الخلاف ثانية بين السلطان ومحمد علي بعد ما ادركت بريطانيا ان فرنسا كانت تعاون محمد علي فى حملته • ولهذا كان لا بد لها من الاتفاق مع روسيا • وقد وقعت هاتان الدولتان على ميثاق لندن[١] بالاشتراك مع النمسا وبروسيا • أما فرنسا فانها لم توقع بادىء الامر على الميثاق ، ولكنها اضطرت لتوقيعه بعد ان شعرت انها بقيت وحدها خارج الميثاق • وبحسب مقتضيات ميثاق لندن اضطر محمد علي الى الانسحاب من سوريا نحو مصر وادى ذلك الانسحاب الى اضطراب الوضع فى سوريا من سوء ادارة حكامها المصريين • واقتصرت سلطة محمد علي على مصر وحدها ؛ وقد منحه السلطان لقب (باشا مصر) وجعل حكمه حكما وراثيا • ومما يذكر ان ميثاق لندن فسخ أهم النواحى التى كانت تشدد عليها معاهدة انكير اسكليسى • فحسب الميثاق الجديد ، لا يحق لاسطول اية دولة فى أيام السلم المرور من المضايق •

وقد استقرت السياسة الخارجية البريطانية التى كان يديرها يومذاك بالمرستون[٢] على الاعتراف بحقوق تركيا الاقليمية ، وبضرورة مساعدتها للمحافظة على تلك الحقوق • وثمة اعتبارات عديدة حبذت الاستمرار على هذه السياسة منها الخوف من تداعى تركيا الذى سيؤدى الى اشعال نار حرب اوربية ، والمحافظة على خطوط المواصلات البريطانية مع الشرق ، وتزايد التجارة الانكليزية مع تركيا حيث وجد التجار البريطانيون وفرة فى مواد الخام كما وجد اصحاب المصانع البريطانية سوقا مربحة لمنتجاتهم •

---

(١) Convention of London.   (٢) Palmerston.

وباخضاع محمد علي لسلطة السلطان ، استطاع الانكليز من الاستفادة من احكام معاهدة تجارية سبق ان عقدت مع تركيا عام **١٨٣٨** ، نفدت التجارة البريطانية بحسبها الى الاسواق المصرية • فقد قضت هذه المعــاهدة على الاحتكارات التجارية ، واعطت الاجانب حق الاتجار في مصر ، كما انها حددت التعريفة الكمركية على البضائع المستوردة بما لا يزيد على ٣½ ./ من قيمتها • وكان من نتائج هذه الامتيازات ان قضت التجارة الاجنبية واكثرها بريطاني المنشأ على الصناعات الحكومية التي أسسها محمد علي لاجل تزويد جيشه بما يحتاج اليه من ملابس واجهزة ومعدات • وفي الوقت ذاته اغرقت الاسواق بالسلع الاستهلاكية • ويعتقد البعض من البحاث المصريين المعاصرين ، بانه لو كتب لتلك الصناعات البقاء والنمو ، لتطورت واصبحت مشاريع صناعية آلية مربحة تعطي مصر اقتصادا اكثر توازنا مما آل اليه الوضع في عهد اسماعيل ؛ وربما نجت مصر من الازمة المالية التي أدت الى الاحتلال البريطاني • على انه مما يجب الا يغرب عن البال ان تلك الصناعات بما كانت عليه من وضع لم تكن اقتصادية بالمعنى الصحيح ، مع ان نظام السخرة كان مطبقا على عمالها كما كانت الضرائب الكمركية العالية تحميها من المزاحمة الاجنبية • وبالوقت ذاته يجب الا تنكر الجهود التي بذلها محمد علي من أجل تشجيع زراعة القطن في مصر ، حيث المناخ والتربة صالحة كل الصلاح لزراعة الاصناف التجارية منه • واغلب ما كانت تنتجه مصر من قطن كان يصدر الى بريطانيا ، فساهمت في تفوق لنكشاير بصناعة الانواع الجيدة من المنسوجات القطنية •

- ٦ -

وكادت محاولات روسيا للسيطرة على المضايق تنجح لولا الجهود الفعالة

التى بذلتها بريطانيا لانهاء مفعول معاهدة انكير اسكليسى • وكانت المحاولات الروسية والمقاومة البريطانية تترى الواحدة تلو الاخرى ، فاذا ما مال رقاص الحوادث ميلا شديدا نحو جهة ، كما حدث بعد حرب القرم ، سرعان ما اجتذبته قوى اخرى ليعود الى موضعه الطبيعى •

ويذهب البعض من الباحثين الى ان اسباب حرب القرم لم تكن ذات اهمية كبيرة ، بينما الواقع يدحض هذا المعتقد ، فحرب القرم فى الحقيقة لم تكن من اجل حماية الاراضى المقدسة ، تلك الحماية التى بدء نابليون الثالث بالمطالبة بها ، عن طريق انتحال الادعاء القائل بان حقوق الروم الكاثوليك يسيطر عليها كهنة الاورثودكس اليونان ، وانما هى محاولة من قبل القيصر لتدعيم مطاليبه ليكون حامى المسيحيين جميعا فى تركيا • وحاول القيصر شراء المقاومة البريطانية بالتلويح بمشروع يقضى باقتسام الاراضى التركية اذا ما حطمت الدولة التركية ، ولكنه لم يتلق جوابا مرضيا • ودام الاختلاف بوجهات النظر بين الاثنين حتى غزو الاراضى التركية من قبل الجيوش الروسية ؛ مما جعل تركيا تعلن الحرب على روسيا وتسارع بريطانيا وفرنسا الى مساعدتها •

وبعد اندحار روسيا تحسن وضع تركيا ، أثر عقد معاهدة باريس(١) عام ١٨٥٦ ، التى اعتبرت البحر الاسود منطقة محايدة • كما ان الدول الاوربية اتفقت فيما بينها على نبذ الحقوق التى كانت تتوسل بها ، للتدخل فى شؤون تركيا الداخلية ، مقابل اعلان السلطان حسن نواياه نحو المسيحيين من رعاياه • وبالوقت ذاته ، ان الاوضاع الخاصة التى منحت لبعض المقاطعات التركية والتى ادت الى استقلال كل من رومانيا وسربيا عجلت فى تداعى

(١) Treaty of Paris.

تركيا وانهيارها • واستعادت روسيا مقامها خلال الحرب الفرنسية البروسية عندما وافقت بروسيا على تحرر روسيا من معاهدة باريس ، تلك المعاهدة التى منعتها من انزال سفنها الحربية الى البحر الاسود بينما سمحت لتركيا ابقاء اسطولها فى بحر مرمرة • ولقد ثبتت معاهدة لندن المعقودة عام **١٨٧١** حق روسيا فى ابقاء اسطول لها فى البحر الاسود ، كما اجازت لتركيا ان تفتح المضايق للبوارج الحربية العائدة للدول الصديقة فى حالتى الحرب والسلم •

ومع ان الدول الاوربية اخذت على نفسها عهدا بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لتركيا ، فانها ظلت تعنى فى اوضاع الاقليات العثمانية • ففى كريت حاولت الدول « الحرة » ـ بريطانيا وفرنسا ـ مساندة الحاكم التركى أزاء مطاليب اليونانيين من سكان الجزيرة ، خشية ان يستفحل الخلاف فيؤدى الى حرب اوربية • ولكن هذه الدول لم تترد من مساندة اقلية اخرى فى لبنان • فقد دعت المذابح المسيحية فى لبنان ودمشق الى ارسال بوارج حربية الى بيروت من قبل بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا ، وحتى من قبل دول صغيرة عديدة ، والى انزال قوة حربية ظاهرها دولى وحقيقتها افرنسى • وكانت نتيجة هذه المناورات ، منح لبنان الذى يؤلف المسيحيون اكثرية سكانه ، حكما ذاتياً يدير شؤونه حاكم عام عثمانى ، يتم انتخابه من بين الرعايا المسيحيين للباب العالى ، على ان توافق الدول العظمى عليه •

وكانت نهاية الاضطرابات فى بلغاريا نهاية محزنة ، فان الاتراك قاموا بقمع الثورة فى بلغاريا بعنف وبقسوة ، مما دعى الاوربيين الى ان ينعتوا عمل تركيا « بالفضائع البلغارية » • وكان الموقف الذى وقفته تركيا بالنسبة

للثورة البلغارية سببا لما حدث من انقسام عميق فى الدوائر السياسية البريطانية. فقد ظل كلادستون طوال اعوام اربعة محاولا القضاء على الدولة العثمانية ، بينما اتبع دزرائيلى السياسة التقليدية التى تدعوا لمساندة تركيا خشية ان يؤدى تداعيها الى اضطراب دولى ، وبالتالى الى اثاة حرب اوربية . أما الحكومة الروسية فكانت مجمعة كلمتها على مناهضة تركيا ، ولهذا اعلنت الحرب على تركيا عام ١٨٧٧ فاضطرتها بعد بضعة شهور لقبول معاهدة سان ستيفانو(١) ؛ التى قضت بخلق دولة بلغارية واسعة الحدود ، تمتد من بحر ايجه الى البحر الاسود ، وتضم اقساما من مقدونيا التى كانت تطالب بها اليونان لاسباب عنصرية . ومما ساعد على ذلك ان تركيا سبق ان تلقت تحذيرا بأنها لن تلقى مساعدة من بريطانيا ؛ كما ان الدوائر المالية رفضت عقد قروض لتركيا ، اعتقادا منها ان دائرة الديون العمومية عاجزة عن دفع ما سيستحق بذمتها . كذلك ان الشعور البريطانى الموالى لبلغاريا كان من القوة بحيث جعل بريطانيا تبقى على الحياد ولا تساعد تركيا . ومع ذلك فان معاهدة سان ستيفانو اثارت التخوف من سيطرة روسيا على شرق اوربا وتهديدها للمواصلات الشرقية البريطانية . فأرسلت بريطانيا بعض قطعات اسطولها الى البسفور . وبطلب من بريطانيا عقدت الدول الاوربية مؤتمرا فى برلين يهدف منه اعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو .

وكانت معاهدة برلين(٢) اكثر ملائمة للمصالح التركية . وقد ادعى دزرائيلى فى ختام هذا المؤتمر انه اعاد الى تركيا سلاما مقرونا بالشرف ، وهذا ادعاء ملوث ، سرعان ما اكتشفت حقيقته . فقد عقد اتفاق سرى بين بريطانيا وتركيا خولت بريطانيا بحسبه احتلال قبرص ، وعليها

---

(١) Treaty of San Stefano. (٢) Treaty of Berlin.

مقابل ذلك ان تحافظ على ممتلكات السلطان فى اسيا من أى اعتداء • على ان يتعهد السلطان بالقيام باصلاحات رئيسية فى بلاده ، فاذا ما حققت تلك الاصلاحات ، واذا ما اعادت روسيا الى تركيا كلا من باطوم وقارس واردهان، عند ذلك ستعيد بريطانيا جزيرة قبرص الى الدولة العثمانية • وقد أدى ما اتخذ من تدابير لاحتلال قبرص الى اثارة مطاليب من قبل الدول الاخرى كتعويض لها • فقد طالبت فرنسا باطلاق يدها فى تونس ، كما لوحت ايطاليا بمطامعها فى كل من البانيا وطرابلس الغرب • وكانت المانيا الدولة الوحيدة التى حافظت على صداقتها لتركيا فلم تطالب بشيء •

- ٧ -

وقد توقفت بريطانيا عن دفع المنحة المالية التى وعدت بدفعها الى ايران حسب اتفاق عام ١٨١٤ ، عندما اعلنت الحرب بين روسيا وايران عام ١٨٢٥، وكانت ايران هى المعتدية فى هذه المرة • ولكن بريطانيا بذلت كل ما تستطيعه من جهود لاحلال السلام بين الطرفين المتنازعين • وتكللت جهودها بعقد معاهدة تركمان جاى[1] عام ١٨٢٧ • وكانت هذه المعاهدة ذات منافع عامة ؛ ذلك لان الامتيازات التى منحتها ايران الى روسيا بحسب تلك المعاهدة تمتعت بها بريطانيا وغيرها من الدول تنفيذا لقاعدة المساواة مع الدول ذات الحظوة •

وكان ممثل بريطانيا فى ايران يومذاك السر جون ماكدونلد من رجال الدائرة السياسية الهندية ، وقد لعب ممثل بريطانيا دورا فعالا فى احلال السلم بين الشعبين المتنازعين ؛ وعندما اصر الايرانيون على اعلان الحرب على الروس فانه اوعز الى الضباط البريطانيين المستخدمين فى الجيش الايرانى بعدم الاشتراك فى الحرب القائمة بين الطرفين ، كما بذل جهودا جبارة

---

(1) Treaty of Turkman Chea.

لجعل الحكومة الايرانية تحسن معاملتها للاسرى من الروس . وعند بدء مفاوضات السلم قام بدور الوسيط بين الطرفين محاولا التخفيف من اصرار الايرانيين وعنادهم ، والتلطيف من حدة الشروط التى اشترطها الروس تعويضا لهم لما اصابهم من اضرار . وبطلب من الروس وافق على استلامه اقساط تلك التعويضات نيابة عنهم . كذلك لعب ماكدونلد دورا هاما بعد مقتل المبعوث الروسى من قبل غوغاء طهران ، الكاتب المسرحى غريبويدوف[1]، فقد تعهد بالمحافظة على المصالح الروسية كما سعى لاقناع الايرانيين بجسامة الجريمة المرتكبة . ولما بذل من جهود نال شكر كل من الطرفين ـ القيصر والشاه .

واخيرا استطاعت ايران التخلص من الضغط الروسى بعد ان اشتبكت روسيا مع الاتراك ، ذلك الاشتباك الذى جعل القيصر يطلب معاونة ايران بدلا من محاولة سحقها . حتى صارت السياسة الروسية نحو ايران ، انماء الصداقة بين البلدين خلال الخمسة والعشرين سنة التالية ، مما جعل ايران تقوم بمساندة الخطط التى كانت روسيا تتبعها نحو افغانستان وتركستان والتى ادت الى اعلان الحرب الانكليزية الايرانية بين عامى ١٨٥٦ ـ ١٨٥٧ . فقد وقعت حادثتان الاولى فى عام ١٨٣٨ والاخرى فى عام ١٨٥٦ ، اضطرت بريطانيا فيهما لحماية افغانستان من الاعتداءات الايرانية . ففى عام ١٨٣٨ اضطرت الحكومة البريطانية الى التدخل بشؤون ايران الداخلية والضغط على الشاه من اجل رفع الحصار عن مدينة هرات ، التى دافعت عنها حامية بقيادة ضابط بريطانى باسل هو الدريد بوتنجر[2] . وفى عام ١٨٥٦ اضطرت بريطانيا لاحتلال جزيرة خارج والقيام بمناورات عسكرية فى نهر

(١) Griboyedov.

(٢) Eldred Pottinger.

كارون تهديدا لايران ، ولاضطرارها للمحافظة على الوضع الراهن • وفى كلتى الحادثتين لم تتقدم ايران بأى مطلب تعويضى الى الحكومة البريطانية •

وقد سعت الحكومة البريطانية للقضاء على أحد اسباب الاضطراب فى الشرق الاوسط بقيامها بتثبيت الحدود الايرانية التى كانت مصدر خلاف دائم بينها وبين جيرانها فى الغرب والشرق • فقد دعت معاهدة ارضروم(١) المنعقدة بين تركيا وايران عام ١٨٤٧ الى تأليف لجنة مشتركة تكفل بنفقاتها كل من بريطانيا وروسيا قامت بتثبيت الحدود بين الدولتين • ومما قررته اللجنة ان الحدود التركية الايرانية تقع فى منطقة تتراوح عرضها بين عشرين واربعين ميلا • أما فى الجهة الشرقية فقد حددت الحدود عام ١٨٧٢ ، من قبل حكم بريطانى ، وايد ذلك التحديد وزير الخارجية البريطانى • وقد وافقت كل من ايران وافغانستان على الحدود المقترحة •

وفى عام ١٨٧٢ بلغ اعتماد ايران على البريطانيين وثقتها بهم ذروته ، عندما منح الشاه رجلا بريطانيا هو البارون دى روتر(٢) اغرب ما منح من امتياز فى العالم • فقد منح هذا البريطانى حق احتكار مد الخطوط الحديدية، وخطوط الترام فى جميع ايران ، وحق البحث عن المناجم عدا مناجم الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وحق اقامة مشاريع الرى ، ومد الطرق وتأسيس المصانع وخطوط التلغراف وحق جمع العوائد الكمركية ، لمدة لا تتجاوز خمسة وعشرين عاما • وكانت المدة المحدودة لهذا الامتياز الغريب سبعين عاما • ولم تكترث الحكومة البريطانية بهذا التدبير غير المعقول ، لانها كانت مطمئنة من ان امتيازات كهذا لن يدوم حتى وان لم تقاومه روسيا • ولم يمض طويل وقت حتى الغى الشاه الامتياز بحجة ان مقدار العمل الذى قام به صاحب

---

(١) Treaty of Erzerum.

(٢) Baron de Reuter.

الامتياز لمد الخط الحديدى من شمال ايران الى جنوبها لم يكن متناسبا مع المدة المقررة له • ولا ريب ان اللورد كرزن احسن تقدير الوضع عندما كتب « ما دام الهدف للسياسة البريطانية كان دعم ايران وتقويتها فاننا نستطيع ان نهنىء انفسنا عندما شاهدنا المشروع الذى أوشك ان يشل حيوية مملكة ، يتحطم ويتداعى » •

وعندما تقدمت ايران بطلبها الى بريطانيا ، لان تقوم باعادة تنظيم الجيش الايرانى ، رفضت بريطانيا الطلب • مما اضطر ايران الى استخدام بعثة نمساوية لتقوم بهذا الغرض • وبالوقت ذاته بدء الروس بتأليف لواء عسكرى عرف بالقوزاق ، على الا يكون هذا اللواء جزءا من الجيش الايرانى •

وقد بقى الخلاف الذى بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند بشأن أى الحكومتين تتولى مسؤولية العلاقات الدبلوماسية فى ايران ، قائما مدة نصف قرن واخيرا امكن التغلب على المصاعب الناجمة عن وجود مالكولم ممثلا لحكومة الهند ، وهاردفورد جونس ممثلا للحكومة البريطانية بتعيين السر غور أوسيلى مبعوثا وحيدا فى ايران • ولكن المعضلة ظلت قائمة حتى عام ١٨٦٠ ، عندما اتفق على ان تكون العلاقات الدبلوماسية من اختصاص وزارة الخارجية البريطانية وان حكومة الهند تتعهد بتكاليف مقتضيات البعثة الدبلوماسية فى ايران ؛ واستمر هذا الوضع حتى استقلال الهند • وكان لحكومة الهند يومذاك صوت مسموع فى جميع القضايا المتعلقة بالسياسة البريطانية فى ايران • يضاف الى ما تقدم ان القنصليات البريطانية فى شرق ايران وجنوبها كان يعين لها موظفون من منتسبى الدائرة السياسية الهندية ، اسوة بمن كان يعين فى مدن الخليج الفارسى وبالقنصلية العامة فى بغداد من موظفين وقناصل •

وكان الفشل نصيب الرحلة البحرية الأولى من انكلترا الى الهند عام ١٨٢٧ • ولكن سرعان ما تم تنظيم سفرات بحرية اخرى من الهند حتى السويس بباخرة بنيت في بومبى وركبت لها ماكنة انكليزية • وكانت تلك السفرات سببا في تنظيم نقل بحرى منظم من انكلترا الى مصر ومن مصر الى الهند • وكان هذا الطريق يتطلب مسلكا بريا امينا عبر مصر ، ولذلك انتدب الكابتن شزني[١] لدراسة المعضلة في موقعها • فاقترح فتح قناة بين البحرين المتوسط والاحمر سيما وانه لم يكن ثمة تفاوت بين مستويات سطحي البحرين المذكورين ؛ ومع ذلك فانه كان ميالا الى الاعتقاد بافضلية الطريق المباشر عبر سوريا والعراق • لذا استحصل موافقة لندن للقيام بدراسة امكانيات الطريق المباشر • فارسلت له اجزاء باخرتين صغيرتين قام بنقلها الى الفرات ، ونصب الباخرتين في النهر وكان مصير احدى السفينتين الضياع اثناء عاصفة هوجاء • أما الثانية فقد بلغت البصرة سالمة بعد مصاعب كثيرة اثبتت عدم صلاح نهر الفرات لمخر البواخر • كذلك اجريت دراسة واسعة عن الانهر الثلاثة الفرات ودجلة وكارون وجمعت معلومات قيمة وافية عن هذه الانهر الثلاثة • ومن حسن الصدف ان وجود البواخر البريطانية في العراق عام ١٨٤٠ دعى الى توقف الجيوش المصرية في حربها مع السلطان ، سيما وانها اهتمت اهتماما كبيرا بالتحذير الذى ابداه بالمرستون لمحمد علي ، بأن أى تقدم تقوم به جيوشه نحو بغداد أو الخليج لن ترضى عنه الحكومة البريطانية •

وكان من نتائج رحلة شزني في الفرات ان حصلت بريطانيا على امتياز

---

(١) Captain Chesney. R.A.

الملاحة في دجلة • ومن بين الذين قاموا بالرحلة الاولى فى هذا النهر اخوان لنيج وهم ثلاثة احدهم غرق فى النهر ، والاخر توفى بمرض ، والثالث سلم ليؤسس شركة نقل نهرى استطاعت أول الامر ممارسة عملها بحكم الفرمان الذى منحه السلطان للذين قاموا برحلة الفرات •

ولم يتلاش الامل باستخدام الطريق السورى العـــراقى الا فى عام ١٨٦٠ • عندما حصلت احدى الشركات البريطانية على امتياز من السلطان بمد خط حديدى على ان تدفع الحكومة التركية عوائد للشركة بنسبة ٦٪ مما تصرفه من مبالغ لمد القسم الاول من الخط • غير ان مجلس العموم البريطانى رفض ان يكفل هذا التعهد • فاضطرت الشركة الى رفض ذلك الامتياز • ويحلو لنا ان نقف هنا لنتأمل فى الوجهة التى ستتجهها المسألة الشرقية لو ان خطا حديديا بريطانيا مد عبر سوريا الى البصرة قبل عشرين عاما عندما بدأت المانيا سياسة الاتجاه نحو الشرق •

ولا ريب ان الاصلاحات التى ادخلت على الملاحة البحرية والجهود التى بذلتها البحرية الهندية ، التى سميت بعد ذلك « البحرية الهندية الملكية » سهلت فى عام ١٨٣٠ أمر تنظيم السفر البحرى بين بومبى والسويس • كما ان تزايد عدد المسافرين وسلامة نقل البريد دعت الى تأسيس دائرة للنقل البرى فى مصر مهمتها نقل المسافرين والبريد من الاسكندرية الى القاهرة عن طريق النهر كما تنقلهم من القاهرة الى السويس على الجمال بطريق صحراوى يمتد ثمانين ميلا • وقد اقامت محلات للراحة فى هذا الطريق مزودة بالمؤن والماء • وكان فى مقدمة المتحمسين لهذا المشـــروع توماس ويجهورن • وقبل تنظيم الطريق الصحراوى هذا كان المسافرون يضطرون الى التزود باشياء كثيرة تزيد من متاعبهم فى سفرهم الطويل • وفيما اوصى

به احد المسافرين ضرورة التزود بالماء العذب للطبخ ، وبالحليب وحتى بالمهد للاطفال ، لامكان نقلهم على ظهور الابل •

وتأسست شركات بريطانية لانماء المواصلات التلغرافية بين الهند وبلدان الشرق الاوسط وكانت كل من حكومة الهند والحكومة البريطانية تساعد تلك الشركات فيما قامت به من خدمات • ففى ايران بدأت شركة التلغراف الهندية الاوربية بالاتصال التلغرافى منذ عام ١٨٧٠ وفى تركيا قامت بهذا العمل شركة التلغراف الشرقية •

وقد أدت شكوك بالمرستون بنوايا فرنسا ، بالنسبة لمصر ، الى مقاومة مشروع الخط الحديدى المقترح من قبل محمد علي اعتقادا منه ان محمدعلي كان واقعا تحت التأثير الفرنسي • ولكنه اضطر اخيرا الى تشجيع مشروع آخر هو انشاء خط حديدى من الاسكندرية الى السويس لكى يميت فكرة الفرنسيين لفتح القنال ؛ وكمل مد هذا الخط عام ١٨٥٨ • لقد عرفت مصر فتح الاقنية منذ اقدم العصور ولكن جميع تلك الاقنية كانت بين النيل والبحر الاحمر • وكان نابليون أول من فكر فى بناء قنال بين البحر الاحمر والبحر المتوسط • غير ان الاخطاء التى وقع بها مهندسوه بشأن التفاوت فى ارتفاع مياه كل من البحرين ، أجل تحقيق المشروع حتى ايام دوليسبس(١) ؛ مع انه سبق لشنونى ان قدم تقريرا نفى فيه التفاوت فى ارتفاع مستويات مياه كلى البحرين ، ومع ذلك لم يؤخذ بهذا التقرير •

ومنذ البداية لقى مشروع القنال اهتماما كبيرا من قبل البريطانيين • فكان كل من مجلس الهند(٢) وشركة البواخر للشرق ولشبه الجزيرة(٣)

---

(١) Delesseps. (٢) India Board.

(٣) Peninsula and Oriental Steamship Company.

من المناصرين لهذا المشروع الهام • غير ان مناوئة بالمرستون لهذا المشروع لم يكن من السهل مقاومتها • ومما يجب الا يغرب عن البال ان بالمرستون اضطر للوقوف ذلك الموقف لان الفرنسيين كانوا يقصدون من وراء مشروعهم الاضرار بالمصالح البريطانية • وكان تحمس المساهمين الفرنسيين كبيرا جدا سيان لديهم المساهمة فى مشروع خط حديدى فى السويد أو فى القنال ما دام المشروع « يضر بالمصالح البريطانية » •

وتم انشاء القنال مع جميع ما اعتراه من مصاعب فنية ومالية وسياسية • وكان يعزى هذا النصر الى مثابرة مهندسه الفرنسى دوليسبس ، والى المعاونة التى لقيها من سعيد باشا ، الذى ولى الحكم بعد محمد علي والذى تحدى منع السلطان تحقيق هذا المشروع ، فيسر العمال والجزء الاعظم من المال اللازم للمشروع • وما ان تم فتح القنال ، حتى اسرعت بريطانيا الى دفع منحة مالية مغرية الى دوليسبس • واقرارا بالفضل البريطانى أقام دوليسبس تمثالا لويجهورن الذى اعتبر أهم رواد الطريق البرى عبر مصر • كذلك احتلت السفن البريطانية المقام الاول فى استخدام القنال ، وهذا ما جعل اصحاب السفن والتجار يتذمرون من ارتفاع اجور عبور السفن من القنال • على ان قيام دزرائيلى بشراء الاسهم العائدة الى الخديوى سرا لم يجد نفعا ، لانه لم يعط بريطانيا عددا من الاصوات مناسبة فى ادارة القنال • وسبب ذلك ان قانون شركة قنال السويس اعطى صوتا واحدا لكل مساهم يحمل خمسة وعشرين سهما من اسهم الشركة على الا يزيد عدد الاصوات للمساهم الواحد عن عشرة اصوات مهما بلغ عدد سهامه • ومعنى هذا ان مساهما يحمل ٢٥٠ سهما يستطيع ان يصوت بقدر اصوات بريطانيا التى تحمل ثلثمائة وخمسين ألف سهم من سهام الشركة • ومع ان مصالح

اصحاب السفن البريطانية مثلت تمثيلا واسعا فى مجلس ادارة الشركة ، الا ان الادارة بقيت ولا زالت باقية بيد الفرنسيين •

- ٩ -

كانت الاصوات البريطانية تتعالى بين حين وآخر منادية باحتلال مصر • ضمانا لسلامة خطوط المواصلات البريطانية مع الشرق • ومما زاد فى شدة تلك الاصوات خشية الانكليز ان يحتل الفرنسيون مصر فيبقون فى حيرة من أمرهم ، سيما وكان الفرنسيون يجهرون بنواياهم فى صحفهم • فلما اقترح نابليون الثالث تقسيم شمال افريقيا بين بريطانيا وفرنسا ؛ تحتل بريطانيا مصر ، وتحتل فرنسا مراكش وساردينيا وتونس ، رفض بالمرستون هذا الاقتراح • ولم يكن احتلال البريطانيين لمصر أمرا مصمما تصميما دقيقا ، وانما كان نتيجة حتمية لسلسلة من الحوادث اضطرت بريطانيا فى بادىء أمرها الى مسايرة فرنسا فى سياستها فلما تبدلت الحكومة الفرنسية يومذاك لم تجد بريطانيا بدا من أن تكمل العمل وحدها • وكانت أولى الحوادث التى سببت احتلال مصر افلاس اسماعيل الذى اصبح باشا مصر عام ١٨٦١ واشترى لقب خديوى من السلطان • ويعذر البعض من الباحثين اسماعيل فيما قام به من اعمال اوصلت مصر الى ما وصلت اليه من اغراق فى الديون وتدن فى اوضاعها العامة • لانه كان يهدف باعماله انماء بعض المشاريع النافعة ، كأكماله قنال السويس وانشاء ميناء الاسكندرية • ومما يلام عليه اسماعيل انه شجع الكثير من المشاريع قبل ان يمعن النظر بمدى صلاحها ؟ وقابلية الناس لتحمل اعبائها • كالتوسع الاقليمى الذى كان ينشده ، وبنائه دار الاوبرا المصرية واثارته حربا لا

طائل لها مع الحبشة . وكانت الديون التى فى ذمة مصر يوم اعتلى عرشها اسماعيل ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيها فبلغت بعد خمس عشر عاما اربعة وتسعين مليون جنيه . ويضاف الى ذلك اخضاع الفلاحين الذين يؤلفون اكثرية الشعب الساحقة لاعمال السخرة وللتجنيد الاجبـــارى وللضرائب المرهقة . وكان حكام الاقاليم ورؤساء القرى يستعملون القسوة المتناهية والتحزب المقيت فى معاملاتهم للفلاحين وللقرويين .

وتمثل الديون المصرية القروض الاجنبية التى اقترضتها حكومة مصر بفائدة عالية وبخصم عالى النسب ايضا . وقد اضطرت الحكومة البريطانية التزام جانب الدائنين البريطانيين ، الذين يأتون فى المرتبة الثانية ، بالنسبة لعظم المقادير التى اقرضوها لحكومة مصر . وبغير ذلك يتعذر عليهم جباية الاقساط المستحقة لهم باجدى الاســـاليب التى يمكن اتباعها . ولم يكن تأثير حاملى سندات القروض هو العامل الوحيد الذى دعى للتدخل فى شؤون مصر الداخلية ، مع انه كان عاملا كبير الاهمية ، ولكن ما اصاب الكيان الادارى من تصدع ، وهو النقطة الحساسة فى الكيان المصرى ، كان سببا اساسيا للتدخل ، خشية ان يؤدى الوضع الراهن الى تعقيدات دولية خطرة للغاية . فالمانيا التى لم تكن لرعاياها مصالح مالية كبيرة كانت تتصيد فى تلك المياه العكرة .

وحاولت الدول المعنية بالامر اخضاع اسماعيل باشا الى سيطرتها بشتى السبل . فقد حتمت عليه احداث ديوان خاص للديون العمومية وبذلك اوجدت سلطة دولية تشرف على مالية مصر . ثم ايجاد نظام يسمح لفرنسا ولبريطانيا السيطرة على شؤون مصر ، واخيرا تأليف وزارة دستورية فى عام ١٨٧٨ عين فيها وزير للمالية بريطانى الجنسية ووزير للاشغال العامة

فرنسا . ولا ريب ان اسماعيل كان شديد التبرم بالسيطرة التى فرضتها الوزارة على اعماله ، فمما يظن انه كان متواطئا مع الثائرين العسكريين الذين أصروا على عزل تلك الوزارة . الامر الذى جعل السلطان يضطر للتخلى عن العرش الى ابنه توفيق . وكان السلطان مدفوعا بتحريض من قبل الانكليز والفرنسيين . وجابه توفيق فى أول امره شعورا عاما يطالب بالاصلاح ، تطور الى حدوث حركة فى الجيش المصرى بقيادة ضابط مصرى من أصل ريفى ، هو احمد عرابى الذى تولى وزارة الحربية ، فسيطر على الوزارات الباقية حتى اصبح الدكتاتور الفعلى لمصر . ومن أهم ما قام به عرابى انه عالج شكاوى الجيش وقضى عليها كما اضطر الخديوى منح البلاد دستورا على غرار الدساتير الاوربية . وقد طالب الخديوى السلطان بمساعدته ولكن تدخل السلطان الذى كان يؤيده الانكليز دون الفرنسيين جاء بعكس ما كان يتوقع منه .

وكانت فرنسا تساند الخديوى بسلطته لان رئيس وزرائها غمبتا[1] ، لم يكن مرتاحا الى الاوضاع القائمة فى مصر ، وكذلك من المصاعب التى كان يلقاها الفرنسيون فى تونس . ولهذا لم يتورع فى اتخاذ شتى الوسائل لمساندة الخديوى ، ولمناصرة حاملى سندات القرض المصرى من الفرنسيين . ولما كانت بريطانيا تخشى ان تبقى فرنسا وحدها فى الميدان ، فتحتل مصر ثانية ، كما كانت فى ريبة من حركة عرابى ، تلك الحركة التى فشل الانكليز فى ادراكهم حقيقة الشعور الوطنى المصرى المتجلى فيها ، لذلك ساهمت الحكومة البريطانية مع الحكومة الفرنسية فى تقديم مذكرة شديدة اللهجة فى كانون الثانى من عام ١٨٨٤ يساندون فيها سلطة الخديوى ؛

(١) Gambetta.

فأثاروا بعملهم هذا خوف المصريين من ان الدولتين عازمتان على احتلال مصر •

فلما حدث تغيير في السياسة الفرنسية بعد استقالة غمبتا ، انسحب الاسطول الفرنسي الراسي مع الاسطول البريطاني في ميناء الاسكندرية • وقد تم انسحابه قبل قيام الاسطول البريطاني بقصف الاسكندرية في اليوم الحادي عشر من شهر تموز من عام ١٨٨٢ • وكان السبب المباشر للقصف مذبحة المسيحيين في مصر ، والاعتداء على الاجانب في الاسكندرية ؛ ذلك الاعتداء الذي أيد اعتقاد الحكومة البريطانية بأن حركة عرابي كانت حركة تعصب ضد الاجانب • وثمة عامل آخر هو رفض المصريين التوقف عن العمل في الحصون التي كانت تنشأ من أجل حماية البلاد من الاسطول البريطاني• وقد اعقب قصف الاسكندرية واحتلالها اندحار جيش عرابي أمام الجيش البريطاني في معركة التل الكبير ، ذلك الاندحار الذي كان يكفي لتحقيقه نداء من السلطان ضد حركة عرابي • وكان الخديوي يرغب باعدام عرابي، لكنه بنتيجة نصح اللورد دوفرين[١] الذي تأثر باصدقاء عرابي من الانكليز ، استبدل حكم الموت على عرابي بالنفي الى جزيرة سيلان • وبقي عرابي منفيا حتى عام ١٩٠١ عندما سمح له بالعودة الى مصر •

ويعزى احتلال مصر من قبل البريطانيين الى تخوف حملة سندات القروض المصرية من ضياع مصالحهم ، والى قصر نظر الضباط البريطانيين الموجودين في مصر ، والى اصرار اميرال الاسطول البريطاني وعناده • ولا ريب انه كان في امكان الحكومة البريطانية ، مع وجود تلك العوامل ، التأمين على المصالح الانكليزية دون الاحتلال • واذا كان لا مفر من القيام من احتلال

---

(١) Lord Dufferin.

مصر فكان الاجدر ان تشترك فرنسا وايطاليا فى ذلك العمل ايضا • وكم كان يسر الانكليز الا ينفردوا بالعمل الذى قاموا به وحدهم • ولكن ما ان تم احتلال مصر حتى ظهرت عوامل اخرى كانت تبرر ذلك الاحتلال •

- ١٠ -

وكان اثر توسع النفوذ المصرى فى بلاد العرب بعد ما دحر ابراهيم باشا الوهابيين واتجاهه نحو اليمن ، ان سارعت بريطانيا الى احتلال عدن ، مع ان اهميتها كميناء وكمحطة للفحم فى طريق الهند ، كانت تدعو الى احتلالها عاجلا أو آجلا • الا ان السبب المباشر لاحتلالها هو اعتداء سكانها على سفينة هندية يعلوها العلم البريطانى ؛ وكان سلطان لحج مسؤولا الى حد كبير عن ذلك الاعتداء • يضاف الى ذلك انه رفض بيع عدن الى الانكليز وانه تآمر لالقاء القبض على مفاوضيه البريطانيين الامر الذى سبب الاسراع باحتلال الميناء فى عام ١٨٣٠ • وقد اضطر السلطان فى نهاية الامر الى الاعتراف باحتلال عدن مقابل منحة مالية سنوية • كذلك تم احتلال جزيرة بريم ثانية عام ١٨٥٧ عندما كان يناقش مشروع قنال السويس • وانشئت فيها منارة بحرية ومحطة تلغراف • ومن ثم اخذ النفوذ البريطانى يمتد نحو الشرق من عدن ، أى نحو مقلة والشحر ، واقيمت محمية من هاتين المقاطعتين • وقد سبق ان احتلت جزيرة سقطرة ثم هجرت ولكنها صارت موضع اهتمام البريطانيين ثانية عندما بدء الالمان فى توسعاتهم الاقليمية • فبحسب معاهدة عام ١٨٧٦ سمح لبريطانيا بالاستفادة من تلك الجزيرة وبعد عشرة اعوام ضمت الى الحماية البريطانية •

وأدى الصراع من اجل القضاء على القرصنة فى الخليج الفارسى ، الى عقد معاهدة سلام فى عام ١٨٢٠ بين حكومة الهند ، وبين مجموعة الامارات العربية الصغيرة • وكان اغلب تلك الامارات واقع فيما يسمى بعمان المهادنة(١) أو بالساحل المهادن(٢) • وقضت تلك المعاهدة ، بالاشتراك مع مشروع اقامة حرس بريطانى بحرى ، على القرصنة فى الخليج الفارسى بالنسبة الى السفن الاجنبية على الاقل • وكانت احدى مواد المعاهدة تستهدف القضاء على تجارة الرقيق ؛ تلك التجارة التى اعتبرها القانون الانكليزى لعام ١٨١١ من الجرائم العظمى • وقد اعتبر القضاء على تجارة الرقيق من أهم اهداف السياسة البريطانية فى الخليج الفارسى وفى البحر الاحمر طوال القرن التاسع عشر • ونص على التدابير المتخذة لمنع تلك التجارة فى المعاهدة المعقودة مع مسقط والبحرين • (وفى عام ١٨٥٨ أدى التدخل بتجارة الرقيق الى حدوث ثورة فى جدة انتهت بمقتل عضوين من اعضاء السلك القنصلى الاجنبى) • والحقيقة ان شيوخ الخليج اذا ما كانوا مضطرين لترك تجارة الرقيق ونبذ القرصنة فانهم استفادوا من السلام الذى حل بينهم • وكان المقيم البريطانى فى بوشهر يفرض عليهم السلام ويراقب تصرفاتهم بالنسبة لبعضهم البعض • فقد كان لذلك القنصل ، وان كان ضابطا قنصليا بالنسبة الى ايران ، نفوذ كبير على العرب فى الجهة الثانية من الخليج

وقد تكاملت المرحلة النهائية للعلاقات البريطانية مع شيوخ الخليج عندما وقعوا بفترات متفاوتة على تعهدات تلزمهم بالا يقوموا بأى توسع اقليمى

---

(١) Trucial Aman. (٢) Trucial Coast.

فى بلادهم ، والا يدخلوا بأى اتفاق مع أية حكومة عدا الحكومة البريطانية ، والا يسمحوا باقامة ممثل دولة اجنبية فى بلادهم عدا ممثل بريطانيا الا بعد موافقة بريطانيا على ذلك • وقد نالت البحرين أهمية خاصة من لدن بريطانيا ، عندما قام الايرانيون الذين أخرجهم العرب من الجزيرة عام **١٨٧٣** ، يطالبون بعودتهم اليها ، وعندما اخذ الاتراك يطالبون بحقوقهم بتلك الجزيرة • وتفاديا لما يحدث من اخطار وقع الشيخ اتفاقا ، يضع الجـــزيرة تحت الحماية البريطانية ، واعدا بالا يقوم بأى حرب وان ينبذ القرصنة وتجارة الرقيق ، ومعترفا بأحقية القوانين البريطانية على الرعايـا البريطانيين فى الجزيرة • وقد قدمت بريطانيا مساعداتها الى البحرين فى عام **١٨٧١** عندما اظهر الاتراك بعد احتلالهم الاحساء رغبتهم فى الاستيلاء على المشايخ العربية ومن بينها البحرين •

القسم الرابع

الاتجاه نحو الشرق (١)

تعقدت شؤون الدول المزاحمة لبريطانيا فى الشرق الاوسط ، اعنى فرنسا وروسيا والنمسا ، نتيجة ظهور المانيا الى الميدان . فكان من أثر ذلك ان اتخذ الصراع الاوربى مظهرا اقتصاديا . وزاد فى حدة ذلك الصراع ما كان يتمتع به الاجانب من امتيازات فى كل من تركيا وايران . واشتد الصراع بعد ان انحرفت الامتيازات ، التى عرفت بالامتيازات الاجنبية(٢) ، انحرافا بعيدا عن المقاصد التى اوجدت من اجلها . لقد كانت تلك الامتيازات مبتناة على اصول ، ظلت سائدة المفعول حتى أوائل العصر الحديث ؛ يمكن ان تتلخص فى ان حكم الدولة وسلطتها تنفذ على رعاياها فقط ، دون الاجانب الذين كانوا فى حل مما تفترضه الدولة على رعاياها من التزامات وواجبات . فقد ترك السلطان ، بعد فتح القسطنطينية ، شؤون أهل البندقية فى العاصمة البيزنطية لامر حاكم أو قنصل من أهل البندقية ، يرعى مصالحهم ويشرف على شؤونهم . وبعمله هذا أيد السلطان نظاما سائدا فى الامبراطورية البيزنطية منذ عهد بعيد .

أما الامتيازات الاجنبية ، المعنية ببحثنا هذا ، فمردها المعاهدة الفرنسية التركية المعقودة عام ١٥٣٥ ، والتى استفادت من احكامها دول أخرى بعد ما

(١) Drang Nach Osten. (٢) Capitulations.

اصبحت ، « معاملة الدول ذات الحظوة » ، هى القاعدة المتبعة • فعندما استطاع انطونى جنكنسون عام ١٥٥٣ ، الحصول من السلطان سليمان على ما كان يعرف « بسلامة التصرفات أو الامتيازات » ، فهو فى الواقع قد فاز فى حق التمتع بالحريات والامتيازات التى كان يتمتع بها الفرنسيون واهل البندقية ، وفى اكثر من ذلك ان كان الامر ممكنا •

ان « الامتيازات » القليلة ، التى سبق للسلطان أو للشاه ان منحها لرعاياه، مكنت الاجانب من التمتع بالحقوق الاولية التى كان الاهلون يتمتعون بها ، نظريا على الاقل ، مثل التخلص من العبودية واغتصاب الممتلكات أو الرجوع عن صفقات تم التعاقد عليها • ولكن الفرنسيين فى عام ١٥٣٥ والانكليزى فى عام ١٥٨٠ استطاعوا الحصول لقناصلهم على بعض الحقوق ذات الصبغة القانونية ، من أجل تأمين مصالح رعايا دولتيهما •

ولم يكترث الاتراك بالامتيازات الاجنبية بادىء الامر ، ذلكم لان علاقاتهم التجارية مع الغرب كانت فى مجال ضيق ، ولان عدد الاجانب فى تركيا لم يكن بالقدر الذى يعبأ به • يضاف الى ذلك ان الدولة كانت من المنعة والقوة بحيث لا يمكن لاحد الافتئات على حقوقها • فلما تبدل الوضع وضعفت الدولة رافقت ذلك التبدل ، كثرة فى عدد الاجانب المقيمين فى البلاد ، وتزايد فى المنتجات الصناعية الاوربية ، وتضخم رؤوس الاموال لدى الغربيين• تلك الدواعى التى دفعت الاقطار الاوربية الى ايجاد مخرج لمنتجاتها ، ومنفذ لرؤوس اموالها • وكان من شأن الامتيازات التى اكتسبت صفة مشروعة ، انها كانت تحمى الاجانب عندما يأتون بتصرفات كيفية • كما كانت تخلصهم من عقوبات كانوا يستحقونها • فمثلا ان الامتيازات التى كانت تعفى الاجانب من دفع الجزية ، الضريبة التى كان يدفعها غير المسلمين من رعايا الباب العالى،

اتسعت حتى يسرت للاجانب التخلص من كثير من الضرائب ، فاصبحوا يؤدون ضرائب اقل بكثير مما كان يدفعه سكان البلاد . وبذلك سهل على دول الغرب النفوذ الى مالية الدولة ، والسيطرة عليها ، مستغلة احدى مواد معاهدة تركيا ـ البندقية ؛ والتى حددت الضريبة الكمركية على ما يستورد الى تركيا ، من ذلك القطر بنسبة ٣ ٪ من قيمتها فقط ، وبتوالى السنين تزايدت الضريبة حتى بلغت ٨ ٪ ، وظلت بهذه النسبة مدة طويلة . والواقع ان دول الغرب لم تسمح برفع نسبة الضريبة الى ١١ ٪ الا فى عام ١٩٠٧ . وكان من اثر تدخل دول الغرب فى مالية تركيا ، ان شكلت تلك الدول عام ١٨٨١ ، دائرة خاصة اسمتها « بادارة الديون العمومية »[١]. لم يكن لتركيا فى هذه الادارة الا ممثل واحد ليس له حق التصويت . وكانت مهمة هذه الادارة فرض الضرائب على اصناف التبوغ وعلى غيرها من المنتجات الهامة وجمعها . كذلك كان للدول الاوربية ممثلون يؤلفون اكثرية كبيرة فى مجلس ادارة المحاجر الصحية . ولا ريب ان ثمة ما يبرر تلك الاكثرية فى هذه المجالس ، سيما وانها مسؤولة عن اتخاذ تدابير وقائية تحمى الحجاج الاجانب القاصدين المراقد الاسلامية المقدسة ، سواء كانت فى بلاد العرب أم فى العراق . واكثر من تلك الامتيازات قيام الكثير من الدول الاوربية ومن بينها بريطانيا بتأسيس دوائر للبريد خاصة بها منتشرة فى مختلف مدن القطر .

ومن غرائب الامتيازات انه اذا ما اشتكى احد الرعايا العثمانيين فى المحاكم على اجنبى فان المدعى عليه لا يجبر على ايداء دين حكم عليه به . كما لا يجوز تنفيذ عقوبة بشأنه ما لم يكن ممثل من مفوضية بلاده أو سفارتها موجوداً

---

(١) Public Debt Administration.

اثناء محاكمته ، وموقعاً على قرار المحكمة • ولا يخفى ما فى هذا التدبير من احتكاك وتأخير تأمين حقوق الناس حتى وان كان الممثل السياسى من ابناء قطر تطبق فيه اسمى قواعد العدل • أما ابناء الاقطار التى لم تبلغ ذلك المستوى من التقدم القضائى ، فان الخمار منهم أو القواد أو المهرب للحشيش يستطيع ان يسخر من القانون ويحمى نفسه من العدالة مدة طويلة قد تبلغ بضع سنوات • على اننا يجب ان لا ننسى ان المحاكم التركية شأن دوائر الدولة الاخرى ، لم تكن بالمستوى الذى يطمئن اليه • والحقيقة ان نظام الامتيازات الاجنبية كان عاملا هاما من العوامل التى اعاقت الاصلاح ، سيما وقد كان الحكام الذين يستطيعون ان يبدون شدة وقوة فى احكامهم بحضور زملاء اجانب لهم حق الفيتو ، قليلون كل القلة • يضاف الى ذلك ان ضعف الدولة المالى جعل رجالها يفضلون ارضاء الاجنبى على حساب غريمه من ابناء البلاد • ومجمل القول ان الامتيازات الاجنبية كانت شديدة الوطئة على الاتراك ، لان حق التمتع بها لم يقتصر على الاجانب الحقيقيين ، بل شمل أولئك المنحدرين من سلالات أجنبية بعيدة ، قدمت الى تركيا منذ قرون خلت ، كما شملت المنحدرين من أصل عثمانى ، هم واولادهم احتموا بالحماية الاجنبية عن طريق العطف أو الرشوة • أما فى ايران فقد كانت الامتيازات التى يتمتع بها الاجانب لا تختلف عن تلك المطبقة فى تركيا ، وان اختلفت الطرق المتبعة فى تحقيقها •

بحسب ميثاق قبرص[١] ، اخذت بريطانيا تعنى كل العناية بشؤون المسيحيين من رعايا الباب العالى ، وبحماية الجزء الاسيوى من تركيا ضد أى اعتداء روسى محتمل • وللتوصل لتلك الاغراض منحت قنصلياتها فى آسيا الصغرى سلطات واسعة استثنائية • وقد سبق لها ان شكلت فى عام

---

(١) Cyprus Convention.

١٨٧٨ دائرة خاصة بالادارة القنصلية سمتها « الادارة القنصلية للشرق »[1]. وظلت تلك الدائرة محافظة على كيانها حتى عام ١٩٣٠ • ولكن لما تولى كلادستون الحكم فى عام ١٨٨٠ ، سحب السلطات الخاصة من القناصل ومنعهم من التدخل فى الشؤون التى كانوا يتدخلون بها سابقا • وسبب ذلك ان كلادستون كان يفضل استعمال الضغط المشترك من قبل الدول الاوربية، تنفيذا لما نصت عليه معاهدة برلين ، بالنسبة الى الاصلاحات المطلوب تحقيقها فى تركيا • كما كان من رأيه ان الحاق قبرص لم يأت بفائدة لبريطانيا ، سواء من الناحية السياسية أم من الناحية العسكرية • ذلك الرأى الذى علقت عليه الملكة فكتوريا بالعبارة التالية « اننى لا اتفق بأى حال من الاحوال مع هذا الرأى » • ومهما كانت الفائدة المرجوة من الجزيرة فانها اخذت بالتلاشى بعد ان تم فتح مصر • وربما كان ذلك هو الباعث لبقاء قبرص مدة طويلة دون أن تستفيد من ارتباطها ببريطانيا • فلم يعن باصلاح شؤون الجزيرة وانماء مواردها • يضاف الى ذلك ان ما كانت تدفعه بريطانيا من منحة لتركيا ، مقابل احتلالها للجزيرة ، كان ذا تأثير سيء جدا فى نفوس القبرصيين • ولم تتلاف بريطانيا ذلك الا بعد وقت طويل •

على ان دزرائيلى ، صديق تركيا ، هو الذى نظم الاحتلال البريطانى لقبرص ، كما كان كلادستون رئيس الاحرار ، مسؤولا عن تنظيم الاحتلال البريطانى لمصر • وقد وضع الاحتلالان ، نهاية للصداقة التركية البريطانية، التى دامت مدة تقرب من قرن • فقد كانت تركيا تعتبر روسيا عدوها الدائم، لذا لم يكن ثمة تقارب بين البلدين • وحدث فتور فى العلاقات الفرنسية التركية ، بعد ان خسرت فرنسا الحرب مع المانيا ، واخذت تبحث فى شمال

---

(١) Levant Consular Service.

افريقيا عما يغطي خسارتها • وهكذا بقيت تركيا وحدها تبحث عن صديق لها بين الدول الاوربية فلم تجد ضالتها الا فى المانيا • وكان لبسمارك رأى خاص فى الصداقة التركية ، يتلخص بأن الامبراطورية العثمانية لم تكن لتعادل عظام فارس بومرانى واحد ؛ مع ان بسمارك هو الذى اوفد فون درغولتز عام ١٨٨٢ الى تركيا ليقوم باعادة تنظيم الجيش التركى • غير انه منذ عام ١٨٨٨ ، لم تبق الكلمة العليا لبسمارك بل اصبحت للامبراطور الشاب وليم الثانى الذى زار تركيا عام ١٨٨٩ ، وافتتح عهدا جديدا للصداقة التركية الالمانية ، التى تكللت بعقد حلف عام ١٩١٤ • وكان من اثر تلك الصداقة ان السلطان لم يعبأ بالاحتجاج البريطانى على المذابح الارمنية خلال عامى ١٨٩٤ - ١٨٩٦ ؛ كما لم يكترث للتحذير الذى ابداه اللورد سلسبورى • لان السلطان كان مطمئنا من مساعدة القيصر له فى حالة أى تدخل هدد به ، حتى وان اشتركت روسيا فى ذلك التدخل •

كذلك حصلت تركيا على مساعدة المانيا فى عام ١٨٩٧ ، عندما ادت الاوضاع فى جزيرة كريت الى انزال الدول الغربية جيوشها فى الجزيرة ، وانسحاب الجيش العثمانى منها ، وتسليم الجزيرة الى الامير جورج أمير اليونان ، كمقاطعة مستقلة استقلالا ذاتيا تحت النفوذ التركى • كما انسحبت المانيا والنمسا من منظمة اوربا(١) • وبلغت الصداقة التركية الالمانية ذروتها عندما زار الامبراطور تركيا عام ١٨٩٨ ، ووقف عند قبر صلاح الدين بالشام ، مؤكدا للعالم الاسلامى صداقة المانيا الابدية له • وكان جواب السلطان على تلك التأكيدات ان وعد شركة سكة حديد الاناضول ، التى يمتلكها الالمان ، بمنحها امتياز مد الخط الحديدى المنتهى فى قونية حتى الخليج الفارسى •

---

(١) Concert of Europe.

كذلك وقفت المانيا على الحياد عندما اضطرت الدول الاوربية السلطان الى الموافقة على تشكيل درك مقدونى يدربهم ضباط معينون من قبل تلك الدول، لوضع نهاية لسوء الادارة ، وما يقع من اعتداء وتقتيل على سكان ذلك الاقليم . وقد ظلت قوة الدرك تلك موجودة دون ان يكون لها تأثير كبير حتى ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨ . ومما عجل فى هذه الثورة اجتماع الملك ادورد السابع مع قيصر روسيا فى ريفال ؛ ذلك الاجتماع الذى اساء فهمه الاتحاديون واعتبروه مقدمة للتدخل فى شؤون تركيا . واعقب الثورة قيام مظاهرات عامة فى مختلف انحاء تركيا ، تطالب بصداقة الدول « الحرة » ، أى بريطانيا وفرنسا . وهذا ما جعل الحكومة التى تشكلت بعد الثورة تتبع سياسة موالية لبريطانيا . والحقيقة ان الهيئة العليا لحزب الاتحاد والترقى لم تكن لتعنى بمبدأ الحرية ، اللهم الا كوسيلة لكسب مناصرة بريطانيا ضد روسيا . فلم يكن فى تصرفاتهم نحو الاقليات فى تركيا ، ما يدل على صحة ما كانوا يدعونه . وبالوقت ذاته ان بريطانيا لم تستطع ان تفعل شيئا عندما اعلنت بلغاريا استقلالها ؛ أو عندما الحقت النمسا مقاطعتين تركيتين ببلادها ؛ أو عندما اعلن سكان جزيرة كريت التحاق جزيرتهم باليونان ، أو عندما اعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى عام ١٩١١ .

وعندما هاجمت دول البلقان تركيا عام ١٩١٢ ، اعلنت الدول العظمى انها لا تسمح بعد نهاية الحرب بتغيير الوضع الراهن . فلما اصابت تركيا انتكاسات فظيعة ، صرح المستر اسكويث بأن « المنتصرين لن يحرموا مما جنوه ، وقد كلفهم غليا » . ولعبت بريطانيا الدور الهام فى استقرار الوضع الذى فرضته معاهدة لندن . ولكن ما ان اختلفت دول البلقان فيما بينها حتى سارعت تركيا الى تمزيق تلك المعاهدة الجائرة ؛ متمكنة من الحصول على

شروط ، خير من تلك التى اشترطتها معاهدة لندن ، دون ان تتدخل بريطانيا فى ذلك •

وكان الميثاق الذى تم عقده فى عام ١٩٠٢ ، بشأن مد الخط الحديدى الالمانى ، كما اتضح بعد ذلك ، يهدف الى ايصال الخط الى البصرة ، ومن ثم الى نقطة على الخليج الفارسى ، يتفق عليها الفريق المتعاقد مع الحكومة العثمانية • ومما لا ريب فيه ان الحكومة التركية كانت تسعى لتحقيق تلك الفكرة ، عندما حاولت قبل ذلك التاريخ باعوام ثلاثة ، اخضاع شيخ الكويت لسلطتها المباشرة • لانه ، وان حمل رتبة قائمقام ، كان فى الواقع مستقلا فى ادارة شؤون امارته • ومع ان الحكومة البريطانية رفضت تلبية طلب الشيخ لشموله بحمايتها ، فانها حذرت الحكومة التركية مغبة تغيير الوضع الراهن فى تلك الامارة • وفى عام ١٨٩٩ تم الاتفاق بين شيخ الكويت وبريطانيا على حماية شؤونه ، مقابل امتناعه عن تأجير أو بيع أى جزء من امارته ، ما لم توافق الحكومة البريطانية على ذلك •

ولم تكن سكة حديد بغداد وحدها تهدد المصالح البريطانية • فقد اعطيت للموظفين الرسميين الروس الموجودين فى ايران ، أوامر مشددة لان يحاولوا جهد مستطاعهم ، تثبيت حقوق لروسيا فى الخليج • والواقع ان الاهداف التى استهدفتها روسيا كانت من الخطورة ، كما بدت فى عام ١٨٩٣ ، بحيث ان الحكومة البريطانية شجعت النشاط التجارى الالمانى فى الخليج ، عسى ان يقضى على النفوذ الروسى ؛ وكم قوى هذا النفوذ السياسة الفرنسية التى كانت تتبع يومذاك • فقد حاول الفرنسيون تأسيس محطة للفحم فى مسقط ، مؤملين منها ان تكون يوما قاعدة بحرية فرنسية • ولكن السلطان رفض ذلك تنفيذا للاتفاق المعقود مع الحكومة البريطانية • ومع انه

سمح للفرنسيين ان يبنوا مظلة تكفى لخزن الفحم فيها ، فان رفضه طلب فرنسا زاد فى تعقيد العلاقات الفرنسية البريطانية • ومما اكثر فى الاضرار بالمصالح البريطانية ، سماح فرنسا لاصحاب السفن الشراعية رفع العلم الفرنسي على سفنهم ، سواء كانوا من سكان مسقط أم عدن • وبهذا العمل نشرت حمايتها على المهربين والقرصان ولصوص البحر • ولم تحل هذه المعضلة الا بقرار من محكمة لاهاى ، جاء فى غير صالح فرنسا ، ومع ذلك فان العلاقات الفرنسية البريطانية بشأن الخليج ظلت متردية حتى عقد اتفاق عام ١٩٠٤ •

وفي عام ١٩٠٣ أدلى اللورد لندزداون[١] ، وزير خارجية بريطانيا يومذاك ، بتصريح كان يهدف منه تحديد الوضع البريطانى فى الخليج • قال : « يجب ان يعتبر تأسيس أية قاعدة بحرية ، أو أى مركز محصن ، فيالخليج الفارسى ، من قبل أية دولة من الدول ، تهديد خطير لمصالحنا » • وقد اعتبر البعض من الكتاب البريطانيين ان ذلك الادعاء مستمد من حقيقة الامر الواقع فيالخليج ؛ « فقد قمنا بحراسةمياهه ، وبناء مناثرالاستنارة به ، وبث عواماته ، وبمد اسلاكه التلغرافية ، وقضينا على القرصنة ، ووضعنا نهاية لتجارة الرقيق فيه ، وسيطرنا بسلاحنا على خطوط مواصلاته » • ومما يجب الاينكر ، اننا قمنا بجميع ما تقدمذكره من اجلحماية تجارتنا وسلامتها• واذا ما استفاد الاخرون من الفضل البريطانى[٢] ، كما وقع فعلا ، فان ذلك أمر عرضى بالنسبة الى مقاصدنا • ان السلام فى الخليج أمر ضرورى بالنسبة الى الدفاع عن الهند ، وعن خطوط مواصلاتنا فى الشرق ، وان وجود اية قوة معادية فى سواحله ، لمما يهدد السلام • ولا نستثنى مما

(١) Lord Landsdowne.

(٢) Pax Britannica.

قمنا به فى الخليج ، بالاضافة الى ما كنا نهدف منه ، الا عمل واحد وهو مقاومتنا لتجارة الرقيق • فان عملنا هذا انعكاس طبيعى للروح الانسانية التى كانت تسود العصر ؛ مع ان عملنا لم يأت بفائدة لنا ، وزاد فى تعقيد علاقاتنا مع الحكام المحليين • ومع ذلك فقد قمنا به وقضينا على تلك التجارة المنافية للانسانية •

على ان الوضع الخاص الذى اقامته بريطانيا فى الخليج ، أمتد تدريجيا حتى بلغ بغداد • وان دائرة المقيم البريطانى ، التى كان يعين لها موظفون من السلك السياسى الهندى ، أبدل اسمها الى القنصلية البريطانية العامة ، ارضاء للاتراك الذين كانوا يعتقدون بأن فى تعبير « دائرة المقيم » معنى السيطرة والنفوذ • الا ان القنصل العام ظل محتفظا بحرسه المؤلف من ثلاثين فارسا هنديا ، وبباخرته الصغيرة المخصصة له من لدن البحرية الملكية الهندية • وكان هم حزب الاتحاد والترقى ، القضاء أو الاقلال من مظهر هذا الوضع الغريب ، ولكن المعضلة ظلت قائمة حتى اعلان الحرب عام ١٩١٤ •

ولا ريب ان اهتمام الحكومة البريطانية ، بالمحافظة على نفوذها وسيطرتها فى الشرق الاوسط ، لم يعقد العلاقات التركية البريطانية • لان بريطانيا كانت تجاهد منذ عام ١٩٠٦ لتسوية جميع المشاكل القائمة بينها وبين تركيا • على ان ما اصاب بريطانيا من نجاح لم يؤثر فى المصالح الالمانية فى هذا الاقليم • فبحسب اتفاقية بوتسدام(١) التى عقدت عام ١٩١٠ سحب الروس اعتراضهم على مد سكة حديد بغداد ، مقابل اعتراف المانيا بالاوضاع الخاصة لروسيا فى ايران • كما ان الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا المنعقد فى عام ١٩١٤ اعطى لالمانيا جميع الضمانات التى تؤمن مصالحها فى هذا الجزء من العالم •

---

(١) Potsdam Agreement.

ولم يتم عقد تلك الاتفاقات بالسهولة المتوقعة • فقد سبقتها مفاوضات دامت بضعة أعوام ، شملت عدة قضايا ، منها الوضع القانونى للمؤسسات البريطانية ، الدينية منها والتعليمية ، وموقف السلطان من القروض التى تعقد لمصر ، ومشكلة الحدود الايرانية التركية ، وحقوق الملاحة البريطانية فى نهرى دجلة والفرات ، والوضع الراهن فى الكويت ، وغير هذه من القضايا الهامة • وثمة سلسلة من الاتفاقات الانكليزية الالمانية منحت بريطانيا بحسبها حق احتكار نقل المواد اللازمة لسكة حديد بغداد بطريق النهر ، كما مكنت بريطانيا من المساهمة فيما كانت تقوم به ألمانيا فى بغداد • مقابل ذلك يسرت مساهمة ألمانيا فى شركة ملاحة دجلة البريطانية(١) • وهكذا اتفق كل من بريطانيا والمانيا على ان الاولى لا تمانع فى مد سكة حديد بغداد ، بشرط ان تكون نهاية الخط مدينة البصرة ؛ وتتنازل المانيا عن طلبها السابق الذى يقضى بمد الخط لاحد موانى الخليج • كذلك وافقت المانيا على عدم انشاء أى ميناء أو محطة قطار على الخليج ، ما لم يسبق ذلك اتفاق بين بريطانيا والمانيا وتركيا • والظاهر ان مركز الثقل استقر على التعاون البريطانى الالمانى فى الشرق الاوسط ، عندما استطاعت شركة النفط التركية(٢) ، التى تمتلك بريطانيا ثلاثة ارباع اسهمها ، وتمتلك ألمانيا الربع الباقى ، الحصول من الصدر الاعظم على وعد ، بمنحها امتياز جميع الحقوق المتعلقة بالنفط فى ولايتى بغداد والموصل •

- ٣ -

وكتعويض لالغاء الامتياز الذى سبق ان منحته الحكومة الايرانية الى

(١) Tigris Steam Navigation Co.
(٢) Turkish Petroleum Co.

دى رويتر[١] ، خول الشاه هذا البريطانى ، حق تأسيس مصرف حكومى ايرانى ، برأسمال بريطانى • كما منحه حق اصدار الاوراق المالية التى يتداولها الناس فى معاملاتهم • فأسس المصرف الامبراطورى الايرانى[٢] عام ١٨٨٩ ، وظلت هذه المؤسسة قائمة بعملها كمصرف حكومى حتى عام ١٩٢٧ ، عندما اسست الحكومة الايرانية المصرف الوطنى الايرانى • وقد بقى هذا المصرف مدة تقرب من اربعين عاما المؤسسة المالية الوحيدة (باستثناء المصرف الروسى الذى لم يكن مؤسسة تجارية) ، التى كانت تغذى التجارة الايرانية فى عهد ساده القلق والاضطراب •

وعندما فتح نهر كارون للملاحة النهرية عام ١٨٨٨ ، أسس السادة اخوان لنج مصلحة نقل نهرية بين المحمرة والاهواز ، ثم عقب ذلك قيام هذه الشركة ، بعد موافقة الحكومة الايرانية بمد طريق معبد بين الاهواز واصفهان ، مخترقا مناطق البختيارية • كذلك منحت الحكومة الايرانية امتياز التبوغ لشخص بريطانى آخر فى عام ١٨٩١ ، على ان الفشل لازم هذا المشروع منذ بدء ظهوره • وسبب ذلك انه لم يكن منسجما مع ما كانت تنشده المقاومة الوطنية فى الحكومة الايرانية ، تلك المقاومة التى لم يكن يتوقعها اولئك الذين حكموا على الشعب الايرانى بعدم الاكتراث وبالخضوع • فكان من نتائج منح ذلك الامتياز قيام اضطرابات واضرابات فى مختلف نواحى القطر ، لاعتقاد الشعب الايرانى ان فى منح الامتياز تفريط بحقوقه • وقد اضطر الشاه أثر ذلك الى الغاء الامتياز ودفع تعويض مناسب لصاحبه •

وثمة امتياز بريطانى آخر كان احسن حظا من امتياز التبوغ • ذلك هو امتياز التحرى عن النفط واستغلال موارده • وقد منح الشاه هذا الامتياز

(١) De Reuter.

(٢) Imperial Bank of Persia.

الى المستر دارسى[١] عام ١٩٠١ • ودام التحرى عن النفط سبعة أعوام تكللت الجهود بعدها باكتشاف منابع للنفط تدر الزيت بكميات تجارية ؛ تلك هى حقول النفط فى جنوب ايران • وكما برهنت الايام ان تلك الحقول لا زالت تعد من أغنى حقول النفط فى العالم •

ولما لاقته روسيا من مقاومة ، بالنسبة لنواياها نحو تركيا بعد معاهدة برلين ، فقد وجهت جل اهتمامها نحو ايران • وكترضية لها مقابل السماح لبريطانيا بتأسيس المصرف الامبراطورى البريطانى ، منحتها الحكومة الايرانية امتياز مد أي خط حديدى تريدمده من أية ناحية من البلاد ، خلال مدة لا تزيد عن خمسة أعوام • وفى عام ١٨٩٠ عقد اتفاق بين روسيا وبريطانيا ، يقضى بمنع أية دولة غربية من مد أى خط حديدى فى ايران • ولقد بلغ الاعتداء الروسى على المصالح الايرانية ذروته فى نهاية القرن ، عندما اعتلى العرش الايرانى شاه ضعيف الكفاءة كثير التبذير وقع تحت التأثير الروسى • وساعد فى هذا انشغال بريطانيا فى حروب جنوب افريقيا • فكان من نتائج ذلك التأثير ان أسس فرع لوزارة المالية الروسية فى ايران ، على هيئة مصرف روسى ، يهدف بعمله أهدافا سياسية دون ان يكترث الى ما يناله من خسائر • وقد اخذت هذه المؤسسة ، تحقيقا لاهدافها ، تقرض الناس مقابل رهن ممتلكاتهم غير المنقولة ، وحجز تلك الممتلكات عند عجز الناس عن الدفع •

ولا ريب ان روسيا قامت بخدمات جلى للتجارة البريطانية دون ان تتقصد ذلك ، عندما طالبت عام ١٩٠٣ بتغيير التعريفة الكمركية على البضائع المستوردة لايران • وكانت تسعى من وراء ذلك القضاء على التجارة البريطانية والهندية فى ايران • لقد كانت التعريفة الكمركية على جميع المواد المستوردة

---

(١) Darcy.

لايران ٨ /٪ ؛ وبحسب معاهدة تركمانجاى الروسية الايرانية ، تغيرت تلك التعريفة ، ووضعت نسب معينة بقيمة كل بضاعة مستوردة • والواقع ان روسيا لم تستفد وحدها من ذلك التغيير بل استفادت دول أخرى أيضا • فاذا ما كان لروسيا حق عقد الاتفاقات الجديدة مع ايران ، فللدول الاخرى حق المطالبة بالمساواة فى المعاملة تطبيقا لقاعدة « المساواة مع الدول ذات الحظوة » • وبمقتضى تلك المعاهدة فرضت تعريفة خاصة كانت مخفضة بالنسبة لاهم البضائع الروسية كالنفط والسكر ، ومرتفعة على الشاى والاقمشة وغيرها من البضائع المستوردة ، بعضها أو كلها ، من المصادر البريطانية والهندية • ومن حسن الحظ ان التجارة البريطانية لم تتأثر بهذا التدبير لان ما حدث من توسع فى الاستهلاك ، وما طرأ من تعاون بين روسيا وبريطانيا ، الذى دام بضع سنوات فى ايران ، فسح المجال لتجارة كلى البلدين • فما ان حل عام ١٩١٤ حتى اصبحت المانيا هى المزاحم الكبير لبريطانيا فى ايران بدلا من روسيا • وقد سبق ذلك ان نظم خط بواخر فى عام ١٩٠٦ ، هو خط بواخر همبرغ ـ امريكا ، تسير بحسبه مباشرة من همبرغ الى الخليج الفارسى • وان المؤسسة الالمانية التى كانت تقوم بوكالة الشركة كان لها فروع متعددة فى موانىء الخليج الفارسى ، كما كان لها فرع فى البصرة • وكانت تلك الفروع نشطة نشاطا يسر لها ان تنال نصيبا متزايدا من تجارة الاستيراد والتصدير فى الخليج الفارسى •

ولقد لعبت المفوضية البريطانية فى طهران دورا غريبا كل الغرابة ، عند قيام الاضطرابات والمظاهرات فى مختلف المدن الايرانية فى عام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ من أجل جمع المجلس الوطنى • فانها فتحت أبواب المفوضية على رحبها الى الايرانيين الثائرين على الشاه ، (الذى وافاه الاجل المحتوم بعد

الحادث بقليل) • فاحتمى بها نيف وعشرة آلاف ثائر ايرانى ظلوا معتصمين بالمفوضية بضعة أسابيع حتى استسلم الشاه لارادتهم • وكان لهذا التدبير الغريب ، الاثر الحسن فى بريطانيا ، كما انه زاد فى ثقة الايرانيين ببريطانيا • ومما ضاعف تلك الثقة ان الروس كانوا يساندون الشاه الجديد علنا ضد مطاليب الشعب • ولذلك سقط بيد الشعب الايرانى ، عندما أعلن فى عام ١٩٠٧ ان بريطانيا وروسيا اتفقتا على تقسيم ايران الى منطقتى نفوذ لكلتى الدولتين المذكورتين • ويبدأ الميثاق المعقود بين بريطانيا وروسيا بتعهدات متبادلة من قبل الدولتين المتعاقدتين على احترام استقلال ايران ، وسيادتها ، ثم يتطرق بعد ذلك الى تقسيم ايران الى ثلاث مناطق ، المنطقة الشمالية وتتعهد بريطانيا بالا تحصل هى أو تساعد آخرين على حصول أى امتياز سياسى أو اقتصادى فيها ، تاركة الميدان فسيحا أمام الروس • والمنطقة الجنوبية وتتعهد روسيا بشأنها ما تعهدته بريطانيا بشأن المنطقة الشمالية • والمنطقة الوسطى حيث كانت الدولتان المذكورتان فى حل من تلك التعهدات وعليها احترام الالتزامات القائمة •

وكم كان النقد للميثاق البريطانى الروسى شديدا جدا • ففى رأى البعض من الانكليز ان بريطانيا لن تستفيد منه شيئا ؛ وفى رأى جميع النقاد انه يضر بالمصالح الايرانية • والواقع ان منطقة النفوذ الروسى كانت تشمل كرمانشاه ، واصفهان ، وحتى العاصمة الايرانية • واذا ما استثنينا النفط ، فان أغلب مصادر الثروة الاخرى كانت فى تلك المنطقة • فى حين ان منطقة النفوذ البريطانى ، لم تكن غير مثلث صغير المساحة يقع على الخليج الفارسى ينتهى من الشمال ببندر عباس وكرمان وبرجاند ؛ وعلى هذا فان منطقة النفوذ البريطانى ومنطقة الحياد كانتا تشمل جميع سواحل الخليج • وكان من نتائج

هذا الاتفاق ، ان اعترفت روسيا بامتياز بريطانيا فى نفط ايران • ومما يجب الا يغفل ان تصرفات روسيا خلال السنوات العشر التى سبقت الميثاق ، لم تكن لتشجع على عقده ولكنها اضطرت للحد من اطماعها لفشلها فى الحرب الروسية اليابانية ، ولنشوب ثورة ١٩٠٥ ؛ وأخيرا لاتفاق بريطانيا مع فرنسا حليفة روسيا •

اما الايرانيون فقد جمعوا كلمتهم لمقاومة الميثاق • فكانت انتقاداتهم منصبة على بريطانيا دون روسيا ؛ ذلكم لانهم كانوا يتوقعون الاعتداء من روسيا ، ولم يتوقعوا الخذلان من بريطانيا • يضاف الى ذلك انهم كانوا يأملون منها ان تسلك مسلكا يتمشى مع ما كانت تنادى به من مبادىء الحرية • سيما وان بريطانيا سبق لها ان ناصرت تركيا فى حرب القرم وفي مؤتمر برلين ، وانها كادت ان تعلن الحرب على روسيا ، من أجل تثبيت الحدود الافغانية • فاعتقد الايرانيون ان بريطانيا استدارت ظهرها لسياستها التقليدية القديمة ، وهذا ما جعلهم يقاومون سياستها الجديدة • والواقع ان الايرانيين لم يريدوا من بريطانيا اتباع سياسة عدم التدخل في الشؤون الايرانية ، بل كانوا يتوقعون منها ان تتدخل تدخلا فعليا فيها حتى وان أدى ذلك الى اعلان الحرب على روسيا • ولم يكن الايرانيون يدركون مدى تخوف بريطانيا من نفوذ المانيا الى الشرق الاوسط ، الامر الذى جعل بريطانيا تنثنى عن مقاومة روسيا والمانيا فى آن واحد • فما ان سنحت الفرصة التى دعت للاقلال من الاحتكاك البريطانى الروسى ، ليس فى ايران فقط ، بل فى التيبت وافغانستان أيضا ، حتى اسرعت بريطانيا لاغتنامها •

وكان نقاد السياسة البريطانية يفتقرون الى ما يثبت زعمهم ، بان ايران بلغت أسوء حالاتها ، من جراء ميثاق عام ١٩٠٧ ؛ فلولا هذا الميثاق لكانت

بريطانيا فى وضع لا تحسد عليه ، وبالوقت ذاته لن تكون ايران فى حال احسن مما كانت عليه • ومع ذلك فلا ينكر ان الحاجة الملحة التى قضت بان تشترك بريطانيا وروسيا بجبهة مشتركة جعلت بريطانيا فى وضع يثير النقد والتجريح • فمثلا عندما غضب الروس على الخبير الاميركى ، المستر شوستر ، الذى كان يشرف على مالية الحكومة الايرانية ، والذى رفض ان يعترف لهم بأية حقوق فى ايران ، طلبوا اقصائه ، ولم تستطع بريطانيا الا تأييد ذلك الطلب • ويعد المستر شوستر احد اولئك الذين كانوا يؤمنون بان بريطانيا بموقفها هذا من ايران لم تكن مدركة مصالحها الخاصة ، وهى لذلك مسـؤولة معنويـا على الاقل ، عن تضحية ايران فى سـبيل تحقيق مصالحها • وقد اثبتت الايام خطل هذا الزعم • فان روسيا والمانيا لم تتحدا ضد بريطانيا ، كما كان متوقعا • اما عن المسؤولية المعنوية فجوابنا على ذلك ان الولايات المتحدة الاميركية فى ايامنا هذه تقوم بمساعدة كل من تركيا وايران لدعم استقلاليهما ، وقد يكون من بين أبناء العصر ، أمثال شوستر ينتقدون بريطانيا ان تخلفت عن القيام بما تقوم به الولايات المتحدة • على ان الوضع فى عام ١٩٠٧ كان يختلف كل الاختلاف عما هو عليه فى ايامنا هذه ؛ فقد كانت بريطانيا وحدها ، وعليها ان تتكل على جهودها الفردية ، ولذلك فليس لشوستر وأمثاله ان يرموا بريطانيا بتلك التهمة ومع ذلك يعتبرون أنفسهم محايدين •

وحاول الشاه سحق الحركة الدستوريـة • ولكن مقـاومة الشعب الايرانى الشديدة اضطرته الى ترك المملكة • ثم أعيد الى وطنه بمساعدة الروس • ولكن الحركة الشعبية أدت الى طرده ثانية • وبينما كان الروس يناصرون الشاه ، كان البريطانيون يناصرون القائمين بالحركة الدستورية • ومع ذلك

لم يكن في امكان الايرانيين مقاومة الاعتداءات الروسية المتزايدة في القسم الشمالي من المملكة • فقد قذفوا مرقد الرضا بالقنابل كما استعملوا مختلف أساليب التعذيب والتقتيل مع مناويء الشاه في تبريز • وهذه في الواقع أمثلة قليلة على سلوك الروس العام مع الايرانيين •

- ٤ -

عندما احتلت بريطانيا مصر ، لم يكن لها منهج معين تقوم بتنفيذه ، ولذلك اضطرت الى اشعار الدول الاخرى ، بان سياستها تتلخص بانها ستنسحب من مصر « حالما يستتب الامر للحكومة القائمة ، وعندما تكون الادارة في وضع تحافظ فيه على سلطة الخديوي » • والظاهر ان الحكومة البريطانية وجدت نفسها في حل من تلك التعهدات عندما ابدت فرنسا وروسيا مقاومتهما للاتفاق المعقود مع تركيا عام ١٨٨٧ بشأن الجلاء من مصر • فعاد الفرنسيون الى التصرف بحرية ودون استشارة بريطانيا بعدما وجدوا بريطانيا التي تحملت نفقات الاحتلال ونتائجه تختط لنفسها سياسة خاصة ، دون اطلاع فرنسا عليها ، حسب مقتضيات الاتفاق الانكليزي الفرنسي ؛ فظلوا يربكون الادارة القائمة في مصر حتى اتفاق عام ١٩٠٤ او بعد ذلك بقليل •

ولكي تتجنب التدخل الكبير في الشؤون المصرية ،حاولت الحكومة البريطانية ان تكون بعيدة عن مسألة السودان التي اخذت تتأزم منذ عام ١٨٨٣ • لقد كان السودان تحت سيطرة مصر منذ احتلالها من قبل ابناء محمد علي ، وان لم تكن تلك السيطرة كاملة • وكانت تجارة الرقيق تلقى سوقا رائجة في ذلك القطر • على ان الكولونيل غوردون المعين من قبل الخديوي لادارة شؤون السودان ، اخذ يحارب تجارة الرقيق بعنف وبغير

هوادة • كما حاول تأسيس حكومة تشيع الامن والاستقرار فى البلاد • غير ان تأثير غوردون لم يكن ليمتد لاكثر من المركز الذى اتخذه لعملـه • وعندما ترك القطر وسلمت ادارته الى خليفته التركى عادت البلاد الى الفوضى والاضطراب كما كانت فى سابق عهدها •

وما ان بدأت ثورة الجيش فى مصر ، حتى اتقدت ثورة السودانيين بقيادة أحد المنحدرين من سلالة الرسول وقد سمى نفسه بالمهدى ، لزعمه انه سيقيم العدل والاستقرار فى البلاد • وبعد الاحتلال البريطانى لمصر ، رغبت الحكومة المصرية فى احتلال السودان ثانية ، واستردادها الى نفوذها ، وطلبت موافقة بريطانيا على ذلك • غير ان الحكومة البريطانيـة رفضت فى بادىء الامر ان تبدى رأيا صريحا فى ذلك الطلب • ولكن بعد ان تحطم الجيش المصرى الذى كان بقيادة هيكس باشا ، وتعرضت مصر الى خطر كبـير ، اضطرت بريطانيا الى نبذ حيادها بالنسبة لاحتلال السودان ، وأصرت على انسحاب الحامية المصرية من ذلك القطر • وانتدبت غوردون ثانية ليقـوم بتنظيم ذلك الانسحاب • وقد استطاع غوردون أن يرحل الى مصر آلاف اللاجئين مع فلول الحامية المصرية ، ولكنه حوصر فى مركز قيادته ، واغتيل عند احتلال المهدى لمدينة الخرطوم ، فى كانون الثانى من عام ١٨٨٥ ، قبل وصول قوة بريطانية لنجدته بيومين • وبعد احتلال الخرطوم ، انسحبت الجيوش المصرية من السودان ، الى وادى حلفا • ولا ريب ان خطر السودان كان أحد العوامل فى وجود معضلة الجلاء عن مصر • فقد سبق ان طلب الممثل البريطانى بالقاهرة انسحاب الجيوش البريطانية من مصر ، وتخفيض الحامية المصرية الى ثلاثة آلاف جندى فقط ، عندما وقعت مأساة هكس باشا التى دعت الى تغيير الوضع فى البلاد • يضاف الى ذلك ان مصرع غوردون

اثار سخطا عاما فى بريطانيا ، جعل الحكومة البريطانية تحجم عن الانسحاب عن مصر يوم ذاك •

وبعد فشل عرابى فى ثورته استتب النظام فى مصر ، الامر الذى ساعد اللورد دوفرين الى ان يتقدم باقتراحات لاصلاح الوضع السياسى فى البلاد • وقد وافقت الحكومة البريطانيـــة على تأليف مجالس للمديريات ومجلس تشريعى وهيئة تشريعية • وكان يؤمل من هذه المجالس ، وان كانت وظائفها ابداء المشورة للسلطات الحاكمة فيما عدا ما يخص الشؤون المالية ، ان تكون مدرسة لممارسة النظام الديمقراطى ، وكضمان لعدم الرجوع الى الاوضاع السابقة ، بما فيها من ادران ومآسى • ويرى البعض من النقاد المصريين ان تلك الاصلاحات كانت اقل شأنا من دستور عام ١٨٨٢ • متناسين ان هذا الدستور انتزع من الخديوى بقوة الجيش ، ولم تراع الاوضاع السائدة فى مصر عند وضعه ، وطبيعى ان يطالب شعب ، جديد عليه النظام الدستورى ، بتطبيق احدث النظم البرلمانية • على انه يجب الا يغفل ، ان للهيئة التشريعية سلطة مالية ، لم يستطع البرلمان الانكليزى الحصول عليهـــا الا بعد كفاح مرير • تلك السلطة التى مكنته فى عام ١٩٠٩ من رفض اقتــراح تمــديد امتياز قناة السويس ، مع ان الحكومة المصرية كانت تؤيد ذلك الاقتراح •

ولم يبد فى عام ١٨٨٠ أى تذمر يذكر من الاحتلال البريطانى • فقد اطمئنت الطبقات الحاكمة بعد ان استتب النظام ، وجنت جماهير الشعب ثمار ما ادخل من اصلاح ، على الانظمة المالية والاقتصادية • وقد احسنت الحكومة البريطانية باختيار ممثلها الاول فى مصر بعد الاحتلال ، السر ايفيلين بيرنج الذى لقب بعد ذلك باللورد كرومر(١) وكان هذا مستخدما بوزارة المالية •

---

(١) Sir Evelyn Baring (Lord Cromer).

ومع انه لم تكن له امتيازات خاصة بالنسبة للهيئات القنصلية الأجنبية ، الا ان ثمة قوة بريطانية تسنده ، وتوصياته للمستشارين البريطانيين المعينين في مختلف الوزارات ، كانت اوامر يجب ان تتبع • وهذا ما جعل الممثل البريطانى المرجع الاعلى للحكومة المصرية •

وكانت المهمة الرئيسية لبيرنج ، اذا ما استثنينا خطر السودان ، الحيلولة دون وقوع أى عجز فى ميزانية الحكومة المصرية ، خشية ان تستغل الدول الاوربية ذلك العجز ، للتدخل فى شؤونها • وكم من مرة كانت العجوز المالية تهدد الخزانة المصرية ، ولكن فى كل من تلك المرات كان المستشارون يجدون علاجا لها • ومع ذلك فان اعباء الضرائب المالية كانت تتناقص عن كاهل الطبقات الفقيرة • ففى عام ١٨٨٣ بلغت الايرادات من الضرائب تسعة ملايين من الجنيهات ؛ وبعد عشرين عاما بلغت ثلاثة عشر مليون جنيه ، مع ان نسبة الضرائب خفضت عما كانت عليه سابقا ، وان مبالغ ضخمة رصدت من اجل المشاريع الانتاجية ، كحفر جداول السقى واقنية التصريف ، واكمل سد أسوان الذى شرع به منذ عهد محمد على •

ومع انه لم يكن ثمة تشريع يحدد نسبة الضرائب ، ويعين دافعيها ، فقد امكن تخفيف العبىء الملقى على كاهل الفلاح وحده • فان تعريفة الضرائب حددت نصيب كل فرد من ابناء الشعب من الضرائب التى يجب أن يقوم بدفعها • كما سمح بتأجيل دفع الضرائب عن المواعيد المحددة لها ، ريثما يتمكن الفلاح من بيع غلاته ، وبذلك استطاع الفلاح تخليص نفسه من سيطرة المرابين الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة • كذلك ابطل عهد الحكم بالكرباج ، واستعيض عن نظام السخرة فى الاعمال الحكومية ، بنظام الاجرة ، وهذا عمل اختيارى يدر على القائم به اجرا مناسبا • واستثنت من

ذلك مكافحة اخطار الفيضان فقد بقيت خاضعة لنظام السخرة • وطبق قانون التجنيد الاجبارى تطبيقا عادلا بين الناس ، كما اصلحت عيشة المجندين حتى اصبحت مقبولة لدى الناس • ومع ان نظام الحكم بالكرباج ، ونظام السخرة ، سبق ان منعا قبل الاحتلال البريطانى ، الا ان تطبيق المنع لم يكن نافذا الا فى اجزاء صغيرة من القطر • اما فى عهد نظام الادارة البريطانية الذى لم يسمح بتغيير السياسات بتغيير الاشخاص الاداريين ، فقد شملت الاصلاحات جميع نواحى البلاد واصبحت السياسة الانسانية هى السائدة وهى الاساس فى جميع الاتجاهات •

ومما لا ريب فيه ان الامتيازات الاجنبية كانت تعرقل اعمال بيرنج ، كما كانت تحول دون الاصلاحات التى كانت الحكومات المصرية المتعاقبة تنشدها ، تلك الامتيازات التى ظلت قائمة حتى عام ١٩٣٧ ، والتى اتسع مفعولها فى مصر نتيجة الاهمال احيانا ، أو القصد أخرى ؛ كما كانت فى عهد محمد على لكسب ثقة الاجانب ، ولتشجيعهم على رصد رؤوس اموالهم فى مصر • ولكى تضع حدا للمساوىء الناجمة عن المحاكم القنصلية الاجنبية ، وضعت الحكومة المصرية عام ١٨٧٦ ، بعد استشارة الدول المعنية بالامر ، نظام المحاكم المختلطة • وتتألف من اكثرية من القضاة الاجانب • اما الامتيازات المالية والبوليسية التى يتمتع بها الاجانب فقد بقيت كما كانت سابقا • وكما لا يخفى ان تلك الامتيازات كانت كافية لشل الاعمال الادارية ولعرقلة سيرها • فلم يكن فى الامكان فرض ضريبة على اجنبى عدا ضريبة الارض والملك ، ما لم يوافق على الفرض ممثل حكومة ذلك الاجنبى • كما ان الحماية التى يلقاها المتهمون بجرائم هامة ، جعلت من العسير القضاء على الجرائم المتصلة بحياة الشعب ، كتهريب المخدرات وغيرها من الجرائم •

وبعد ان تحسنت الاوضاع المالية فى مصر تحسنا كبيرا ، استطاع بيرنج ان يعالج مشكلة السودان • فقد توفى المهدى عام **١٨٨٥** ، بعد اغتيال غوردون باعوام قليلة ، تاركا خليفة له يدعى عبدالله ، ولم يكن هذا بأقل تعصبا من المهدى نفسه وان كان يفوقه قسوة ووحشية • وفى خلال فترة حكمه تناقص عدد سكان السودان تناقصا كبيرا ، وصار الباقون من السكان على اسوء حال • وبالوقت ذاته أعيد تشكيل الجيش المصرى ، الذى سبق انسرحه الخديوى ، بعد ثورة عرابى ، بقيادة ضباط بريطانيين • وكان الجيش الجديد يتألف من المصريين المجندين ومن السودانيين المتطوعين • وفى عـــام **١٨٩٦** صار فى امكان سردار الجيش المصرى ــ قائده العامــ السر هربرت كشنر يومذاك ، ان يزحف على السودان ، وفى فترة لم تزد على عامين ، دحر الخليفــة فى أم درمان واستولى على الخرطوم وقتل الخليفة وشتت شمل جيشه ، وبذلك زال خطر اتباع المهدى **عن مصر** •

وقد خلق احتلال السودان ، معضلة جديدة امكن التغلب عليها بالرجوع الى التوافق الموجود فى الاتفاق المصرى البريطانى المنعقد فى عام ١٨٩٩ • ومع ان تابعية السودان الى الدولة العثمانية لا زالت قائمــة يومذاك ، فان تركيا لم تكن عضوا فى ذلك الاتفاق • ونص الاتفاق على ان علمى بريطانيا ومصر يجب أن يرفعا فى سماء السودان • كما اعترف لمصر بحق ارسال بعض الجنود ، وان الحاكم العام يجب ان يعين من قبل الخديوى ، بعـد توصية الحكومة البريطانية • واخيرا نص على ان القوانين المصرية لا يصح تطبيقها فى السودان • ومن محاسن ذلك الاتفاق ان الغيت الامتيازات الاجنبية فى السودان ، وحرم الاجانب مما كانوا يتمتعون بها من حقوق خاصة ، وان القنصليات الاجنبية لا تؤسس الا بموافقة الحاكم العام •

وفى عام ١٩٠٧ أحيل بيرنج على المعاش ، وكان يعرف يومذاك باللورد كرومر ، بعد ان بقى الحاكم الفعلى لمصر مدة تقرب من ربع قرن • وربما انتقد المؤرخون المتأخرون ادارته للبلاد على اعتبار انه لم يشجع نشر التعليم ولم يسع لنشر الصناعة فى البلاد ، كما انه لم يقم بما يهيىء الشعب المصرى الى الحكم الذاتى • فان الاعتمادات المالية المخصصة للمعارف كانت لا تتناسب وحاجة البلاد للتعليم ، وان جزءا كبيرا من اعتمادات الميزانية العامة ، كانت تخصص لايفاء فوائد القروض التى كانت فى ذمة مصر • وربما كان كرومر صائبا فى سياسته ، لان التعليم يومذاك كان يهدف اهدافا تعنى بالمظهردون المادة ، وان ما ادخله من اصلاحات على قلتها كانت ذات نتائج فعالة • على انه لم يكن لكرومر من عذر فيما اتبع من سياسة لابقاء مصر قطرا زراعيا • هذا وليس من الصواب ان يحكم على ادارة اتبعت فى القرن التاسع عشر ، بمقاييس تتبع فى القرن العشرين • ومهما كانت المقاييس التى تقاس بهـا الاعمال ، فقد كان كرومر ولا ريب اكثر حكام مصر اخلاصا لها • ويكفى انه اوجد لمصر نظاما ماليا سليما ، استحق عليه الشكر والاحترام •

ومع هذا فان كرومر لم يلق ما كان يتوقعه من المصريين من تقدير • وسبب ذلك ان الجيل المصرى الجديد ، الذى لم يعرف الكرباج ، والسخرة، نشأ فى عهد بعث فى نفوس ابناء الشعب افكارا جديدة ، نتيجة لانتصـــار اليابان فى الحرب اليابانية الروسية وتفوق الثورة التركية • ومما أثار السخط فى نفوس المصريين ان خاتمة عهد كرومر اقترنت بحادثة دنشواى ، تلك الحادثة التى بدأت باعتداء القرويين على ضابطين بريطانيين بالضرب ، وهلاك احدهما من شدة الحر ، وانتهت بشنق اربعة من سكان القرية ، وجلد عدد كبير وسجن طائفة منهم • وقد اصدرت الحكم عليهم محكمة مصرية خاصة

الفت بحسب قانون شرع قبل بضعة سنوات من الحادث • وبحسب هذا القانون كانت المحكمة مخولة حق اصدار احكامها دون استشارة السلطة المحتلة • ويبدو ان كرومر ، عندما بلغه قرار المحكمة ، وتنفيذ السلطات لذلك القرار ، اثناء ما كان مسافرا الى انكلترا متمتعا باجازته ، انتقد سرا شدة الحكم وقسوته ؛ ولكنه اضطر بحكم وظيفته ونتيجة اخلاصـــه الى حكومته ، للجهر بعدالة الحكم وبضرورة التنفيذ •

وخلف كرومر في منصبه السر الدون غورست ، الذى تلقى تعليمات من حكومته بضرورة انماء المؤسسات الديمقراطية فى مصر • ولهذا بدء في تنظيم مجالس المديريات ، ومضاعفة ما كانت تمارس من سلطات • وكان المجلس التشريعي ، والهيئة التشريعية يومذاك ، تعنى بالشؤون السياسية أكثر من عنايتها بالشؤون الاخرى ؛ كما كانت الدعاية المغرضة تسمم الرأى العام ، مستغلة حادث دنشواى ، والسودان ، والسيطرة على القناة ، فى دعاياتها • وقد بلغت مقاومة المصريين لبريطانيا ذروتها ، عندما اغتال نفر من المتطرفين رئيس الوزارة ، وكان قبطيا ، يمالىء بريطانيا ، وتوفى غورست عقب هذا الحادث وكان شديد الاستياء من الاوضاع العامة فى مصر • وفى خلال السنوات الثلاث التالية ، اسندت مهمة الممثل البريطاني فى مصر الى اللورد كشنر • والى مقدرة كشنر وقوة شكيمته ، يعزى الاستقرار الذى ساد مصر مدة بقائه بعمله حتى سفره الى بريطانيا عند بدء اعلان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ • وربما كان مرد ذلك الاستقرار ، التشديد فى تطبيق قانون الافدنة الخمسة • ذلك القانون الذى حال دون حجز أى ملك مقابل دين بذمة صاحبه ، اذا كانت مساحة الملك اقل من ٥ر١٩ فدانا • وبالوقت ذاته زاد عدد الموظفين البريطانيين فى الدوائر الحكوميـــة زيادة أدت الى تدنى

مستواهم ؟ وتعد تلك الخطوة خطأ فاحشا فى نظام ادارى ، كانت المشورة التى يبديها الموظفون البريطانيون بمثابة الامر الواجب التنفيذ •

- ٥ -

وقبل اعلان الحرب العالمية الاولى ، فى عام ١٩١٤ ، حدث اتصال بين الحسين ، شريف مكة ، واللورد كشنر فى القاهرة • وكان عبدالله بن الحسين حلقة الوصل بين أبيه وكشنر • واستهدف الشريف حسين من ذلك الاتصال معرفة موقف الحكومة البريطانية من العرب اذا ما ثاروا على الاتراك • وتنفيذا للسياسة البريطانية التقليدية التى كانت تقضى بابقاء الكيان التركى دون تصدع أجاب اللورد كشنر جوابا غير مشجع • غير ان تلك الاتصالات والمحادثات أخذت شكلا هاما بعد ذلك بقليل •

وفى الجانب الشرقى من بلاد العرب ، أخذت تظهر قوة جديدة ، قدر لها ان تخرج الحسين من بلاده بعد ذاك ، تلك هى بزوغ نجم عبدالعزيز آل سعود الذى عرف فى العالم بأبن السعود • ففى عام ١٩٠٢ استرد ابن السعود بطريقة غريبة ، لم يعرفها التاريخ من قبل ، الرياض عاصمة أجداده • وكان والده قد طرد منها يوم ان احتلها قطب اعداء السعوديين ، ابن الرشيد ، الذى جاءها من الحائل • وبعد ان استتب الملك لابن السعود فى الجزيرة طرد الحامية التركية من الاحساء عام ١٩١٣ ، والمدن الواقعة على ساحل نجد • ولم يستطع الاتراك صد ابن السعود لما أصابهم من ضعف وخور من جراء حربهم مع الايطاليين ، ومع دول البلقان • على ان الحكومة البريطانية وان كانت راغمة بتدخل السعوديين فى شؤون مدن الخليج ، الا انها عرضت وساطتها على الطرفين المتنازعين • ومع ان تلك الوساطة ارتضاها الطرفان ،

الا ان الاتفاق الذى تم بينهما ترك لابن السعود ما اغتصب من اراضى ، واطلق عليه لقب الحاكم العام ، والقائد العام ، لنجد والاحساء . وقد منحته الحكومة التركية رتبة والى ، مقابل موافقته على ابقاء حامية تركية صغيرة فى ساحل الخليج .

القسم الخامس

الحرب العالمية الاولى

- ١ -

أثار اعلان الحرب قلق بريطانيا ومخاوفها على مصالحها فى الشرق ، بعد ان أظهرت الفئة الحاكمة فى تركيا ، منذ بداية حكمها ، ميلا شديدا نحو المانيا . وهذا ما ازعج الحكومة البريطانية ، لانها كانت تأمل ان تلقى خلاف ذلك ، سيما بعد ان تغلبت على الكثير من القضايا المختلف عليها ، فوجدت لها حلولا صالحة لكلى البلدين ؟ حتى ان الحكومة التركية استخدمت قبيل اعلان الحرب عددا من الخبراء الانكليز فى مختلف دوائر الدولة . واذا ما ادهش موقف تركيا فى الحرب الرأى العام البريطانى ، وأثار استيائه، فذلك لاعتماده على الصداقة التركية البريطانية التقليدية ، وان أخذت تلك الصداقة بالضعف منذ عهد بعيد . فقد اتسعت الفجوة بين البلدين ، بعدما احتلت بريطانيا جزيرة قبرص ، وزاد فيها احتلال بريطانيا لمصر . وضاعف فى التباعد بين البلدين ، اصرار السياسة البريطانية على تقييد حقوق تركيا فى مصر ، وممالئة روسيا ، عدوة تركيا القديمة ، فى موقفها من تركيا . وكيف يستطيع الحلفاء تقديم عروض مغرية لتركيا بعد مواقفهم السابقة منها ؟ لقد أعطت بريطانيا وفرنسا وروسيا للسلطان تأكيداتهم بانه فى حالة بقاء تركيا على الحياد فسوف يحترمون استقلالها ، ومقامها طوال مدة الحرب

وسوف ينص على ذلك عند التسوية النهائية فى ختام الحرب • غير ان الاتراك لم ينسوا بعدما اعطيت لهم من تأكيدات عند بدء الحرب البلقانية ، بان الدول العظمى لن تعترف بأى احتلال يقع على أجزاء البلاد التركية • ولكن سرعان ما نسى الحلفاء وعودهم وتأكيداتهم بعد انتهاء الحرب البلقانية •

وكانت بعثة بريطانية تقوم بتدريب البحرية التركية يومذاك • ولكن البحرية فى تركيا لم تكن من القوى الهامة التى يعتمد عليها ، بخلاف ما كان عليه الجيش التركى • فكان الاعتماد كله يقع عليه وحده • وكان الجيش فى حالة غليان ، لينتقم لنفسه مما اصابه من فشل فى حروبه مع الايطاليين والبلقان • ويعزى اندفاع الجيش نحو الالمان ، الى قيام ضباط الالمان بتدريبه منذ نيف وثلاثين عاما ، وللاعتقاد السائد لدى قادة الاتراك بان الجيش الالمانى لن يخسر الحرب ، ولهذا أرادت تركيا ان تكون بجانب الجبهة الغالبة • يضاف الى ذلك ان الاتحاديين ، وان كانوا ينادون بالطورانية ويسعون لتحقيقها ، فانهم كانوا استعماريى النزعة • وقد وعدهم الالمان باعادة الاراضى التى سبق للبريطانيين والفرنسيين والروس ان سلخوها من جسم الدولة العثمانية • وربما كان قيام الدول المركزية بالتنازل عن امتيازاتهم الاجنبية رشوة أغرت الاتراك للانضمام الى جانبهم • وعلى كل حال فانه فى ايلول من عام ١٩١٤ أعلنت الحكومة التركية الغاء الامتيازات الاجنبية ولم يكن للحلفاء بد من قبول ذلك الالغاء على مضض •

وعرف بعد ذلك ان تركيا كانت مرتبطة مع المانيا بحلف تم التوصل اليه فى الثانى من شهر آب • وكما أظهرت الحوادث بعد ذلك ان الحلفاء أحسنوا صنعا بعرقلتهم دخول تركيا الحرب طيلة أشهر ثلاثة بعد اعلانها • ففى خلال تلك الفترة قامت الحكومة البريطانية ، ممارسة لحقوقها المشروعة

فى مثل هذه الاحوال ، بمصادرة بارجتين حربيتين كانتا تبنى فى المعامل البريطانية لحساب تركيا • ولما كان الجمهور التركى هو المساهم فى بناء تلك البارجتين فان عمل بريطانيا ، دعى الفئة المتعصبة للحرب من اعضاء الحكومة التركية لان يستغلها فى دعايتها للحرب • وتقدم الالمان الى تعويض الاتراك عن خسارتهم تلك بتقديمهم بارجتين سبق ان فرتا من الاسطول البريطانى والتجأتا الى الدردنيل تلك هى غوبن[1] وبرسلو[2] • ولكى تتفادى الحكومة التركية تجريد تلك البارجتين من السلاح أدعت انها اشترتهما من الحكومة الالمانية • ومع ذلك فقد بقيت البارجتان تحت أمرة ضباط وملاحين المان ، وقامت بحركات كبيرة هامة خلال الحرب • وبالاضافة الى ذلك فان الالمان كانوا يشرفون على الاسطول التركى • وفى نهاية تشرين الاول قامت المدمرات التركية بأمرة ضابط المانى ، وبايعاز من الاميرالية الالمانية بقصف الموانىء الروسية فى البحر الأسود ، العمل الذى أجبر الحلفاء على اعلان الحرب على تركيا •

- ٣ -

أوجدت الحرب وضعا غير طبيعى فى كل من مصر وقبرص حيث كانت القوة المحتلة فى حالة حرب مع الدولة ذات السيادة والتى يجب ان يخضع لها سكان كلى البلدين • وتفاديا لهذا الوضع الشاذ ، قضت بريطانيا بالحاق قبرص بالامبراطورية البريطانية ، وباعلان حمايتها على مصر • وكان من شأن هذا الحل ، وان برره الوضع غير الطبيعى ، ان أثار انتقاد حلفاء بريطانيا ودفعهم للمطالبة بنصيبهم •

---

(١) Goeben.　　(٢) Breslou.

ان التأييد الذى منحه جيل من الساسة البريطانيين لتركيا ، مع ما كان فيها من فوضى فى الادارة وسوء فى معـاملة الرعايـا المسيحيين ، كانت له مبرراته • على ان ما حدث من أحداث معقدة بعد ذلك أدت الى تقطيع أجزاء الامبراطورية العثمانية ، ومساهمة بريطانيا فى تلك الاحداث هى التى أوجدت القطيعة بين الامبراطوريتين • فلكسب تأييد اليونانيين عند بداية الحرب ، عرض الحلفاء على اليونان القسم الشمالى من مقاطعة ايبروص أولا ، ثم منحوها امتيازات اقليمية واسعة على شواطىء آسيا الصغرى • وأخيرا فى تشرين الاول من عام ١٩١٥ عرضت بريطانيا جزيرة قبرص على اليونان مقابل معاونتها للصرب • ولكن اليونان رفضت جميع هذه العروض المغرية • فلما تبدل الوضع فى اليونان ، وجاء فنزيلوس[١] الى الحكم ، تقدمت اليونان الى الحلفاء عارضة تخصيص ثلاث فرق من المشاة تقوم بمساعدة البحـرية البريطانية لاختراقها الدردنيل • واضطرت بريطانيا لرفض هـذا العرض الهام ، لان روسيا التى سبق ان وعدتها بريطانيا وفرنسا بمنحها القسطنطينية ، عارضت بشدة طلب اليونان • وفى عام ١٩١٧ عرضت اضاليا وازمير على ايطاليا تنفيذا لاتفاق الحلفاء فى سنت جين دوموريين[٢] • وقبيل موقعة غاليبولى اقترح ان تقوم قوة بريطانيا باحتلال المنطقة القريبة من الاسكندرون ، لقطع خطوط المواصلات التركية بين تركيا ومصر وبينها وبين العراق • وكان لهذا الحادث سابقة تاريخية ، كانت ذات أهمية بالغة فى حماية مدينة القدس ، عندما احتل الصليبيون مدينة ايديسا (اورفا) فى حملتهم الاولى • لكن احتلال الجيش البريطانى لتلك المنطقة لم يرض الفرنسيين الذين اعلنوا ان مثل هذا العمل يعد عملا عدائيا موجها ضدهم • سيما وان السياسة الفرنسية كانت تقضى

---

(١) M. Venizelos.

(٢) St. Jean de Maurienne.

بالحيلولة دون اقتراب احدى الدول نحو سوريا •

- ٣ -

وكان موقف الاقطار العربية التى كانت جزءا من الامبراطورية التركية سببا فى خلق مشاكل لم يحل بعضها حلا كاملا حتى أيامنا هذه • وتتعلق تلك المشاكل بابناء تلك المناطق ، وباولئك الذين نصبوا أنفسهم لزعامة سكان تلك الاقطار ، وأخيرا باليهود الذين كونوا اسرائيل • ولو تم جمع المعنيين بالامر معا فى مؤتمر واحد ، لكان فى الامكان التوصل الى اتفاق مقبول لدى الجميع • لكن الظروف القائمة يومئذ ، فرضت اتباع غير هذا الاسلوب فى حل تلك المشاكل • فعندما ارسل اللورد كشنر رسالة الى الحسين ، شريف مكة ، تؤيد الحرب ، مذكرا اياه بالمحادثات التى جرت قبيل ذلك ، وطالبا اليه تحديد السياسة التى سينتهجها اذا ما اشتركت تركيا فى حرب ضد الحلفاء ، لم تكن الحكومة البريطانية تفكر بسياسة صهيونية أزاء فلسطين • على ان اشتراك الفرنسيين والروس فى الحرب كان سببا لتأخير المفاوضات البريطانية مع العرب مدة طويلة • وكانت الحكومة البريطانية تهدف من وراء مفاوضاتها مع شريف مكة عن طريق ابنه الامير عبدالله ، المحافظة على مصالحها ومصالح حلفائها • وكانت تلك المفاوضات مضمنة فى ثمانى رسائل ، عرفت برسائل مكماهون(١) • وكان مكماهون هذا مندوبا ساميا لمصر يومذاك وقد عهد اليه أمر تمثيل بريطانيا فى تلك المفاوضات • ولو تمت صياغة مادة تلك الرسائل بشكل اتفاقية رسمية ، لزال ولا ريب ما اكتنف تفسيرها من غموض وابهام • ولكنها ظلت بشكل مطاليب وتحفظات ، عندما قرر الشريف الاشتراك فى الحرب ضد تركيا •

---

(١) Mcmahon Correspondence.

ومما يؤسف له حقا ان رسائل مكماهون ، التي اعتبرت المستند الوحيد لدى العرب ، بقيت صورة ناطقة للقضايا الغامضة المبهمة • فمثلا وردت فيها كلمة « ولاية » تارة بمعناها الاصطلاحي القانوني ، وأخرى بمعناها اللغوي العام • فقد استعملت مرة للولاية وثانية للمنطقة وأخرى للمقاطعة • كذلك جاء تحديد الاجزاء التي رغبت الحكومة البريطانية بعزلها عن تلك التي تعهدت بالسعي لاستقلالها ، مشوشا مرتبكا • وهذه ناحية كانت على جانب عظيم من الخطورة • ذلكم لان الحكومة البريطانية كانت تدعي دائما بان تعهداتها استثنت فلسطين ، بينما يصر العرب على خلاف ذلك • وكان في الامكان ولا ريب التوصل الى وضع تعبير او صيغة توضح ان فلسطين مستثناة من تلك التعهدات ، فلا يختلف على موضعها • ولكن مما يؤسف له بقاء موضوع فلسطين غير واضح التحديد • ومما تتحدث به احدى تلك الرسائل عزل « اجزاء سوريا الواقعة غرب ولاية (منطقة) دمشق وحمص وحما وحلب » • ومن الواضح ان ذلك الجزء لا يشمل فلسطين لانها تقع في الجنوب الاقصى لتلك المنطقة ، ولا يمكن شمول تلك الاجزاء المستثناة ، فلسطين ما لم يمدد خط حلب ـ حما ـ حمص ـ دمشق حتى اقصى الجنوب • ومما احتوته من اضطراب ان التحفظات البريطانية التي يقصد منها تأمين مصالح فرنسا ، لم تكن تشير الى فلسطين أو لبنان •

وكتبت أولى تلك الرسائل في تموز من عام ١٩١٥ واستمرت المراسلات حتى كانون الثاني من عام ١٩١٦ • وقد اعلنت الثورة العربية في شهر حزيران من عام ١٩١٦ • على ان ثمة مفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا كانت تجري خلال الاشهر التي سبقت تاريخ الثورة العربية ، انتهت بعقد

اتفاق سايس بيكو[1] ، بشأن الاقطار التابعة للدولة العثمانيــة • وبحسب هذا الاتفاق ستنال روسيا ، بالاضافة الى القسطنطينية ، مساحات من الاراضى الضيقة فى جانبى البسفور ، والجزء الاعظم من المقاطعات التركية الاربع ، المجاورة الى الحدود الروســية • ولم تطالب روســيا بأى جــزء من البلاد العربية ، كما انها اعترفت بمطاليب بريطانيا وفرنسا • اما هاتان الدولتان فقد اتفقتا على ضرورة احداث :

(١) منطقة دولية فى فلسطين (تاركين جزءا كبيرا من هــذا القطر مع سوريا) •

(٢) منطقة بريطانية فى البصرة وبغداد •

(٣) منطقة فرنسية فى سوريا وكليكيا •

(٤) دولة عربية مستقلة ، أو فدراسيون عربى مستقل ، يقع بين المنطقتين البريطانية والفرنسية مقسمة الى منطقتى نفوذ بريطانى وفرنسى •

ومع ان الفرنسيين ، كما اعترفوا بعد ذلك ، كانوا مطلعين على مراسلات مكماهون عندما فاوضتهم بريطانيا لاجل عقد اتفاق ســايكس بيكــو ، فان الشريف حسين لم يكن دار بذلك الاتفاق ، وظل يجهل أمره حتى اعلان الثورة البلشفية • كذلك بقى الاتفاق سريا عندما اعلن وعد بلفور[2]، فى تشرين الثانى من عام ١٩١٧ • وقد جاء هذا الوعد نتيجة مفاوضات بدأت فى أوائل عام ١٩١٥ ، عنــدما اقتــرح السر هربرت ســموئيل • الحاق فلسطين الى الحضيرة البريطانية ، على ان يوطن بها عدد كبير من يهود العالم • ويتضمن وعد بلفور عدة اندفاعات تهدف الى : توجيه عطف الشعب البريطانى الى المشاكل التى يعانيها اليهود المشردون فى مختلف الاقطار ، وتحقيق الامل

---

(١) Sykes-Picot Agreement.

(٢) Balfour Declaration.

المتقد في قلوب اليهود للعودة الى فلسطين ؛ سيما وان الكثيرين من المسيحيين في بريطانيا والولايات المتحدة كانوا يعتقدون بأن عودة اليهود الى فلسطين ليس الا تحقيقا للرغبة الآلهية • ومن أهداف تلك الاندفاعات الاحتفاظ بحصن للدفاع عن قناة السويس • وأخيرا ــ وربما كان هذا أهم الاندفاعات ــ الرغبة في الفوز بتأييد الرأى العام اليهودى في الولايات المتحدة وفى غيرها من الاقطار ، لقضية الحلفاء وللسياسة البريطانية على وجه التخصيص •

ولم تنل صيغة وعد بلفور ، التى ناقشها طويلا يهود انكلترة ويهود الولايات المتحدة ، تأييد أية طائفة منهم • لانهم كانوا يخشون ان يعتبر اليهود أجانب في الاقطار التى كانوا يعيشون فيها ، ويؤدون لها فروض الطاعة ، فتتضرر مصالحهم •ولهذا ادخلت عليه فقرة تؤمن حقوق اليهود الذين لا يرغبون فى النزوح الى فلسطين • فجائت وثيقة وعد بلفور كما يأتى :

« ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين • وستستعمل اجدى محاولاتها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، • ومن المفهوم انه لن يؤت بأى عمل من شأنه ان يمنع المجتمعات غير اليهودية فى فلسطين من ممارسة حقوقهم المدنية والدينية ، أو ان يضر بالحقوق والاوضاع السياسية التى يتمتع بها اليهود فى كثير من الاقطار » •
وللتلطيف من حدة سخط العرب واستيائهم لما ورد فى وعد بلفور ، انتدبت الحكومة البريطانية القائد هوغارث[٢] لايصال رسالة خاصة الى الشريف حسين ملك الحجاز ، تتضمن التأكيدات التالية :

(١) ان حكومة جلالته قررت الا يخضع شعب الى سيطرة شعب آخر في فلسطين •

---

(١) — Commander Hogarth.

(٢) ان الاماكن المقدسة فى فلسطين يجب ان تخضع الى نظام خاص تؤيده مختلف الاقطار •

(٣) ان جامع عمر لن يخضع لاية سلطة غير مسلمة •

وانتهت الرسالة بما يأتى :

« لما كان الرأى العام اليهودى فى العالم يؤيد العودة الى فلسطين ، وما دام هذا الرأى يجب أن يظل عاملا ثابتا ، ولان حكومة جلالته ترغب بتحقيق هذا الحلم ، وما دام ذاك الحلم لا يتعارض وحرية السكان الموجودين ، اقتصادية كانت تلك الحرية أم سياسية ، فان حكومة جلالته عازمة على ازالة أى عائق يحول دون تحقيق ذلك الهدف » •

وما ان وصلت تلك الرسالة الى الملك حسين ، وقد اقتنع بما ورد فيها من تأكيدات ، حتى نشر البلشفيك معاهدة سايكس بيكو ، التى اكتشفت بين الوثائق المودعة فى خزانة القيصر • ولانهم لم يكونوا طامعين بانتهاج سياسة استعمارية ، فقد اعرضوا عن الامتيازات التى تمنحها لروسيا تلك الاتفاقية • ونقل الاتراك نصوص المعاهدة الى فيصل بن الحسين ، وعرضوا عليه عقد سلم منفرد مع العرب • الا ان الحكومة البريطانية سارعت بارسال توضيح فيه الشىء الكثير من المراوغة أعاد الاطمئنان الى الملك حسين والى غيره من قادة العرب • كذلك نقلت الى العرب تأكيدات أخرى ، فى بيانين عن السياسة البريطانية ، نشرا فى عام ١٩١٨ ؛ كان الاول جوابا لتقرير قدمه للحكومة البريطانية سبعة من زعماء العرب فى القاهرة ، وكان الاخر بيانا انكليزيا فرنسيا نشر فى السابع من تشرين الثانى • وقد اعلن فى هذا البيان عند الاشارة الى سوريا والعراق ، بان احدى اهداف الحكومتين البريطانية والفرنسية « تأسيس حكومات وطنية وادارات تستمد سلطاتها من السكان

الاهليين بطريقة الاختيار الحر » • وان الحكومتين « متفقتان على تشجيع ومساعدة تأسيس حكومات ، أهلية وادارات وطنية في كل من سوريا والعراق » يضاف الى البيانين السابقي الذكر ان النقطة الثانية عشرة من نقاط ولسن الاربع عشرة التي وضعت القاعدة القائلة بان القوميات غير التركية التي كانت تحت الحكم التركي « يجب ان يؤكد لها بانها ستهيأ لهـا الظروف المطلقة ، التي لا يعيقها عائق ، لانماء الحكم الذاتي فيها » وكان من الصعب التوفيق بين الرسائل والاتفاقات والوعود التي سبق الاشارة اليها •

وكان أحد الاسلحة التي اعتمد الالمان عليها في الحرب ، تأييد المسلمين من غير الاتراك للسلطان بوصفه خليفة للمسلمين • فقد اعلن السلطان الجهاد ـ الحرب المقدسة ـ وأعلن الالمان بانهم اصدقاء الاسلام ، وحتى انهم اعلنوا في دعاياتهم غير الرسمية بأن القيصر كان مسلما • وكان لدعوة الجهاد تلك ، تأثير قليل على سير الحركات الحربية اذا ما استثنينا تأثيرها على امام اليمن الذي كا في حالة حرب متواصل مع السلطان منذ سنوات عديدة • فلما أعلنت الحرب بين تركيا والحلفاء ضم قوته الى الاتراك • ولم تجد نفعا اتصالات المقيم البريطاني في عدن • وكان من أثر ذلك ان احتلت الجيوش التركية في اليمن لحج وتقدمت نحو ضواحي عدن • ومع ان الجيوش التركية ارتدت قليلا عن عدن الا انها ظلت محتلة لحج حتى عقد الهدنة • وكادت ان تكون تلك القوة مبعث خطر كبير على بلاد العرب ، وعلى افريقيا لو قدر للبعثة الالمانية المرسلة عبر الحجاز الوصول اليها • وكان الغرض من تلك البعثة تنظيم الدعاية لتركيا وتهريب السلاح الى العشائر واثارتهم ضد الحلفاء • ولكن ثورة العرب في الحجاز حالت دون وصول البعثة الى اليمن وعرقلت مساعيها •

وبعد ان اصبحت ثورة الحسين أمرا واقعا ، اتخذ الشريف حسين لنفسه لقب ملك العرب • بينما اعترفت الحكومتان البريطانية والفرنسية له بانه اصبح ملكا على الحجاز وحده • وبدأ الحسين حركته باخضاع مكة ثم احتل جدة وغيرها من المدن الساحلية بمساعدة نفر من البريطانيين • وبعدما هزمت الجيوش البريطانية الجيوش التركية من شبه جزيرة سيناء ، في عام ١٩١٧ احتلت جيوشه مدينة العقبة عند رأس البحر الاحمر تاركة خلفها الجيش التركى الكبير محاصرا فى المدينة المنورة • وقد بذل الاتراك جهودا جبارة لايصال المؤن والذخائر والامدادات الى الحامية المحاصرة ، ولكن محاولاتهم ذهبت من غير جدوى لان سكة حديد الشام ـ المدينة المنورة كانت محاصرة من قبل قوة من الجيش العربى بأمرة الامير فيصل ، ويعاونه في عمله ت• اى• لورنس وغيره من الضباط البريطانيين •

ومع ان ثورة العرب لم تكن حاسمة كما تبدو لبعض من مؤرخى العرب ، الا انها كانت بالغة الاهمية لتأييد العرب قضية الحلفا ء• ومن الغريب ان عرب فلسطين لم يساهموا مساهمة كبيرة فى الثورة ، مع ان الاحداث كانت تقضى عليهم يومذاك بان يساندوا القائمين بالثورة ويساهموا بها • بينما نجد مئات عديدة من يهود فلسطين يتطوعون للخدمة فى الجيش البريطانى ، حتى انهم الفوا كتائب للنقل عرفت بكتائب النقل الصهيونية ، التى ارسلت الى ميدان غاليبولى • يضاف الى ذلك ان الاستخبارات البريطانية استطاعت الحصول على معلومات قيمة من اليهود القاطنين خلف الخطوط التركية ، الذين خاطروا بارواحهم فى خدمة قضية الحلفاء •

وامتدح ابن السعود الشريف حسين لاعلانه الحرب على الاتراك ، وكان قد عقد معاهدة تحالف مع نائب الملك في الهند عام ١٩١٥ . كما كان مستعدا للتعاون مع الشريف حسين ، ولكن كبرياء الحسين نحو رجل كان يعتبره محدث النعمة ، حال دون ذلك التعاون . وكانت مساعدات ابن السعود ، بمقاومته عائلة ابن الرشد ، المناصرة للاتراك ، ذات قيمة كبيرة . ولو قدر له ان يستلم مقادير الذخيرة والاسلحة التي وعد بها ، لقام بعمل أكثر فائدة مما قام به . ويذهب البعض من المعجبين بابن السعود ، الى ان الحكومة البريطانية بمساعدتها الحسين كانت على ضلال من أمرها . غير ان اولئك المتحمسين كانوا ينظرون الى الاحداث متأثرين بما قام به ابن السعود في السنوات التالية دون ان يراعوا الظروف الرهنة يومذاك . فمما لا ينكر ان الحسين كان أول من اقترح ايجاد جبهة موحدة ضد الاتراك . كما ان مقامه شريفا لمكة ، وحفيدا للرسول ، أعطاه نفوذا كبيرا في العالم العربي . يضاف الى ذلك انه كان على تماس مباشر مع الاتراك ، وفي امكانه اشغالهم ، خلاف ما كان عليه ابن السعود . فنجد بعيدة عن الميدان الحربي وعائلة ابن الرشيد في حائل تقاومه في نفوذه .

وأخذت موقعة فلسطين الحاسمة ، التي بدأت في ايلول من عام ١٩١٨ ، مظهرا حربيا هاما ، يتجلى بعزل الخط الحديدي الرئيسي وراء مواقع الجيوش التركية ، وتطويق الجناح الايسر للجيش التركي من قبل قوة توغلت في الصحراء ، والتفت عليها من الناحية الشرقية . وكانت تلك القوة تتألف من جيش عربي نظامي وغير نظامي ، كما ضمت كتيبة للجزائريين بقيادة ضابط

فرنسي ، وفريق من الكورغا مع كتائب نقل مصرية اتخذت الابل وسائط للنقل • وكان لورنس وغيره من الضباط البريطانيين يديرون دفة حركات هذه القوة • وفي اليوم الأول من شهر تشرين الاول سقطت دمشق بيد هذه القوة ؛ وفي نهاية الشهر المذكور عقدت الهدنة مع الاتراك ووقع على شروطها في جزيرة مودروس • وترك للأمير فيصل ، الذي استقبلته دمشق بحماس منقطع النظير ، امر تأليف حكومة وطنية في سوريا ؛ بينما احتلت فرنسا لبنان • وتركت فلسطين الى بريطانيا • على ان تبقى جميع هذه الاقطار تحت سيطرة الجنرال اللنبي القائد البريطاني العام •

- ٥ -

عندما وضعت تركيا مصيرها بيد الدول المركزية[١] ، اضطرت الحكومة البريطانية الى اعلان حمايتها على مصر ، خشية ان تحدث في هذا البلد اضطرابات ، ان هي أبقت الوضع فيها على ما كان عليه قبل اعلان الحرب • ولم تستطع ان تلحقها بالامبراطورية البريطانية لما لاقته من مقاومة عنيفة من حلفائها • فكان من نتائج اعلان الحماية على مصر ، ان خلع الخديوى عباس حلمي عن عرشه ، وكان يومذاك في القسطنطينية وواليا الى الاتراك ، وعين بدله أحد أولاد اسماعيل ، باسم سلطان مصر • وعندما اعلنت حالة الحرب مع تركيا اعلن القائد العام في مصر بان بريطانيا تعهدت بجميع المسؤوليات اللازمة للدفاع عن مصر • وكان المفروض في مصر ان تبقى على الحياد في حرب استخدمت فيها قاعدة حربية هامة • والواقع ان المصريين كانوا محايدين في شعورهم ولم تكن الحرب تعنيهم بقليل أو كثير • ومع ان الخليفة أعلن الجهاد فانهم لم يقوموا بأى عمل عدوانى

(١) Central Posders

يناصرون فيه تركيا ، حتى عندما حاولت الجيوش التركية فى كانون الثانى من عام ١٩١٥ ، الهجوم على القنال فصد بسهولة ٠

على ان القرار القاضى بعدم دعوة الجيوش المصرية للخدمة ضد الدولة التى يدينون لهـا بالطاعـة ، وان كان كريما فى غايتـه ، فيـه الشىء الكثير من الانتقاص من قيمة تلك الجيوش ٠ ومع ذلك فان البعض من المصريين تطوعوا فى خدمة الجيش العربى ، وان لم يكن عددهم كبيرا ٠ كما سخر عدد كبير من المصريين ليقوموا بالدفاع عن القنال ، وكانوا ينؤون تحت ثقل هذه المسؤولية ٠ وقد اضطرت القيادة البريطانية فى مصر الى استعمال الضغط الشديد ، لتوفير الرجال ولتأليف كتائب العمال المصريين ٠ فعنـدما طلبت السلطات العسكرية البريطانية متطوعين لتأليف تلك الكتائب ، لم يتيسر لها الحصول عليهم الا بالطرق التى اتبعت فى عهد اسماعيل ، ولم تجد نفعا الطرق التى كان كرومر يستعملها لتجنيدهـم ٠ ولم يقتصر ارسـال تلك الكتائب الى فلسطين فقط ، بل ارسلت الى فرنسا حيث أبيدت عن بكرة أبيها ٠ اما ما بقى من الفلاحين ، فقد حل بهم الفقر من جراء اغتصـاب مواشيهم ودوابهم ، لاجل الاغراض الحربية مع ان بيان القيادة العامة كان يؤملهـم بتعويضات سـخية عما فقـدوه من مواشى ودواب ٠ وقد اقتصرت التعويضات على ما اغتصب من حيوان ، وماذا يجدى ذلك نفعا لشخص فقد أسباب رزقه ٠ ولو كان تنفيذ الامر العسكرى شاملا جميع الفلاحين بالتساوى لهانت المصيبة ، ولكن استعملت المحسوبية فى ذلك ، فاغتصبت حيوانات بعض الفلاحين وترك العمد المكلفون بجمع تلك الدواب حيوانات الآخرين ٠ ومما يجب ذكره بهذا الصدد ان الاساليب التعسفية تلك لم تقم باستعمالها السلطات البريطانية ، ولو كان لديها من الرجال ما تستطيع توفيره للاشراف

على طرق الحيوانات ، لقضت على تلك المساوىء • غير ان الرأى العام المصرى كان يشعر بأن بريطانيا هى المسؤولة عما حدث من مآسى فى البلاد • وقد تجمعت تلك المساوىء فانفجرت بعنف بعد عقد الهدنة بقليل •

- ٦ -

ومن الواضح ان أية قوة معادية لبريطانيا تتمركز فى العراق ، يوم ان كان تابعا لتركيا ، ستكون مبعث خطر عظيم على المصالح البريطانية فى الشرق • فاذا ما استطاع الالمان نقل غواصاتهم عبر هذا الجزء من تركيا فسيسهل عليهم ، عرقلة خطوط المواصلات البريطانية فى الخليج الفارسى • فيصبح اذ ذاك شيخ الكويت تحت رحمة الاعداء ، وكذا سيكون حال شيخ المحمرة • سيما وان امارة الاخير وان كانت مستقلة بعض الاستقلال عن ايران ، وحليفة لبريطانيا ، فانها كانت مطمح انظار الاعداء ، لما انشىء عليها من مصافى للنفط حديثة قامت بانشائها شركة النفط الايرانية الانكليزية بعبادان • وان أى ضغط من قبل تركيا والمانيا ، من شأنه ان يجتذب ايران الى ميدان الاعداء ، فتصبح الهند وافغانستان فى وضع مكشوف ليس من الصعب على جواسيس الاعداء اختراقه •

وكثيرا ما يظن ان الدفاع عن مصالح شركة النفط البريطانية فى ايران ، هو الباعث الى حملة العراق • مع ان الحكومة البريطانية كانت تعتقد ان النفط وحده كان لا يدعو الى ارسال حملة كحملة العراق • فثمة مصالح أخرى ذات أهمية بالغة وذات جذور تاريخية ، هى التى دعت الى تلك الحملة • وهذا ما جعل الحكومة البريطانية لا تعطى النفط فى بادىء الامر الاهمية اللازمة • ولكن سرعان ما تبدل الوضع بعد ان اصبح النفط المجهز

من حقول عبادان ، العامل الاول فى تحقيق أهداف الحرب • الامر الذى جعل الشركة تضاعف جهودها من أجل الاسراع فى مضاعفة انتاجها • لقد كان انتاج شركة النفط البريطانية الايرانية فى عام ١٩١٤ نحو من ٢٧٠٫٠٠٠ طن فصار فى نهاية الحرب ٩٠٠٫٠٠٠ طن فى العام •

عند اعلان الحرب على تركيا ، عسكرت فرقة من الجيش الهندى فى البحرين • وبعد أسبوع من القصف التركى للموانىء الروسية ، احتلت قوة هندية ميناء الفاو عند مصب شط العرب • ثم أخذت الجيوش الهندية تزحف فى وجه مقاومة عنيفة ، نحو الشمال فاحتلت بغداد فى مارت من عام ١٩١٧ ، اثناء ما جاءت أخبار ثورة كيرنسكى ، وأثيرت الشكوك حول رغبة روسيا أو مقدرتها للقيام بتعهداتها لمتابعة الحرب ، وبعدم عقد صلح منفرد • وعندما وقع الاتراك اتفاقية الهدنة فى مودروس كانت الجيوش البريطانية على بعد ثلاثين ميلا من مدينة الموصل • ولم تحتل هذه المدينة الا تنفيذا لشروط الهدنة التى اعتبرت الموصل نقطة ستراتيجية هامة تحول دون تهديد سلامة الجيوش البريطانية •

وكانت كلفة الميدان الحربى فى العراق باهضة ، سواء فى الرجال أم فى المعدات • وقد يتسائل البعض لماذا لم تتبع بريطانيا الطريقة ذاتها التى اتبعتها فى ميدانى الحجاز وفلسطين ، حيث قام العرب بالحركات الحربية الفعلية ، واكتفى البريطانيون بالقيام بدور المحرضين للحرب أو بدور القيادة • واذا ما كان ثمة دواعى تبرر اختلاف السياستين المتبعتين فى العراق وفى الحجاز عند أوائل الحرب ، فمن الامور المشكوك فيها وجود دواعى دعت الى اتباع سياسة واحدة فى جميع هذه الاقطار عند نهاية الحرب • فان الحجاز بلد قليل السكان ، وليس لبريطانيا فيه أية مصالح سياسية ، وأكثر

سكانه من العرب الرحل • بينما كان سكان العراق من العرب المستقرين ، يعيشون حسب نظام اداري معقد • فعندما تداعى ذلك النظام ، بعد انسحاب الاتراك وهروب أهم الموظفين الاداريين ، اضطرت القوات المحتلة الى تعيين من يحل محلهم ، ولم يتيسر في ذلك الوقت من يقوم بهذه المهمة من غير الانكليز • ولم تظهر فكرة استقلال العرب الا بعد ان احتل أكثر من نصف العراق • ففي الوقت الذي بلغت به جيوش الشريف حسين مدينة العقبة كانت بغداد في قبضة الجيوش البريطانية •

وكانت رسائل مكماهون تنم عن التباين في السياستين المتبعتين في كل من الحجاز والعراق • فلما قامت حكومة الهند ، نيابة عن الحكومة المركزية بارسال حملة الى العراق ، فقد كانت تفكر بامكان ضم البصرة وحتى بغداد الى الامبراطورية البريطانية ، أو الى الهند • ومع ان تطور العلاقات البريطانية العربية ، والعلاقات العربية مع الحلفاء ، قضى على تلك الفكرة ، فان الحكومة البريطانية لم تعد العراق على وجه التخصيص بالاستقلال ؛ اللهم الا ما يمكن الاستدلال عليه مما ورد في البيان البريطاني الفرنسي ، الذي تم الاتفاق عليه في تشرين الثاني من عام ١٩١٨ • وكانت الحرب يومذاك تلفظ أنفاسها • يضاف الى ذلك ان السلطات العسكرية في العراق ، كانت لاسباب عسكرية صرفة ، ترفض الاقتراح القائل باستخدام عرب العراق ضد الاتراك • ففي زعم تلك السلطات ان عرب العراق هم غير الضباط العراقيين الذين كانوا يحاربون الاتراك في الحجاز أو فلسطين • فقد كانوا قبائل تهتم بالنهب والسلب أكثر من أي شيء آخر ، وموقفهم هذا زاد في المصاعب التي كانت تلاقيها السلطات العسكرية في ميدان العراق •

ومع ما كانت تظهره السياسة البريطانية في العراق من برود وتردد

فى وعدها العراقيين بالاستقلال ، وفى اعلان ان الاتراك لن يعودوا الى هذا الجزء من بلاد العرب • فان الكثيرين من سكان البلاد ساهموا في الادارة المدنية أو قدموا مساعدات كبيرة باشكال أخرى • وبعد احتلال بغداد فى عام ١٩١٧ نشر بيان منمق تضمن تنويها عابرا بالامل فى اعادة عظمة العرب • وانه دعى « الاشراف والشيوخ وممثلى الشعب للمساهمة فى ادارة ••• الشؤون المدنية » • ومع ذلك فانه لم يعط عهدا قاطعا بان الاتراك لن يعودوا الى البلاد • ولكن ما ان وقع الاتراك اتفاقية مودروس حتى أخذت الاوساط الانكليزية تمهد السبيل لاعطاء العراق وضعا خاصا يمثل مقاما متوسطا فى مراحل الاستقلال •

- ٧ -

ومع ان ايران كانت محايدة بالاسم ، طوال سنى الحرب ، فانها كانت فى الواقع ميدانا حربيا واسعا • فان وجود قطعات كبيرة من الجيش الروسى فى شمال ايران ، كان باعثا لهجوم تركى على ايران • وما ان دخلت تركيا الحرب حتى هاجمت ايران محتلة مقاطعة اذربيجان الايرانية • على ان الحملة البريطانية المتقدمة نحو البصرة كانت تلقى مساعدات كبيرة من شيخ المحمرة وكان تابعا ايرانيا حليفا لبريطانيا •

ومنذ اعلان الحرب ، شرعت المانيا بتنفيذ خططها لاثارة ايران ضد الحلفاء • فكانت البعثات الالمانية فى عمل مستمر لاجل تحقيق تلك الغاية • الامر الذى جعل حكومة الهند تقيم سلسلة من المراكز العسكرية عند الحدود الايرانية الشرقية لتحول دون تسرب الجواسيس الالمان الى الهند أو

افغانستان . وكانت تلك المراكز تسمى بنطاق شرق ايران[1] . ومع ذلك فإن نفرا قليلا من الالمان استطاع اختراق ذلك النطاق فبلغ مدينة كابل . غير ان الالمان عجزوا عن اقناع افغانستان بالانجراف معهم فارتدوا على اعقابهم . وكان اسموس أقدر اولئك الجواسيس ، فقد القى البريطانيون القبض عليه في جنوب ايران ، ولكنه فر وظل متخفيا حتى نهاية الحرب . وبقي مبعث اضطراب وتهديد للمصالح البريطانية مدة اختفائه .

وكان الاتراك يقدرون أهمية النفط ، ولهذا نفذوا الى جنوب ايران ، وحرضوا رجال القبائل هناك لقطع أنابيب النفط فقطعت في مواضع مختلفة . مما اضطر الحكومة البريطانية الى ارسال قوة بريطانية الى الاهواز ، بموافقة من الحكومة الايرانية التي لم تكن لتستطلع القيام بأكثر من تقديم الاحتجاجات الى القسطنطينية ، فكان من جراء ارسال تلك القوة ان انسحب الاتراك وراء الحدود العراقية ، فتلاشى التهديد الذي كانت مصادر النفط معرضة اليه . يضاف الى ذلك ان المساعدات القيمة التي قدمتها عشائر البختيارية ، الاصدقاء التقليديون لبريطانيا ، ضمنت سلامة الحقول النفطية .

على ان المصالح البريطانية في الاقسام الاخرى من ايران بقيت عرضة لهجمات الاعداء العنيفة . فمن ذلك ان الجواسيس الالمان قاموا باثارة قوات غير نظامية يدعمها الدرك الايراني بقيادة ضباط سويديين . وقد جاهدت تلك القوات من أجل القضاء على النفوذ البريطاني في جنوب ايران . فسيطرت على عدد من المدن دون أن تعارضها الحكومة الايرانية ، وطردت أو اسرت القناصل البريطانيين الموجودين فيها . وسرقت خزائن الكثير من فروع المصرف البريطاني الامبراطوري . وللوقوف أزاء هذا الخطر انتدبت حكومة

---

(١) The East Persia Cordon.

الهند السر برسى سايكس[١] ليقوم بجمع قوة من المتطوعين الايرانيين بقيادة ضباط بريطانيين أو ايرانيين ، تدعمها قوة بريطانية وهندية ، يعهد اليهما أمر توطيد الامن فى جنوب ايران • وكانت هذه القوة التى عرفت بـ « بنادق جنوب ايران »[٢] قوة فعالة اتحدت مع الروس فى تشكيل سلسلة تخترق ايران للحيلولة دون تسرب الجواسيس الالمان الى الناحية الشرقية من البلاد • ولم يقدر لتلك السلسلة البقاء طويلا لان القسم الشمالى منها تداعى على أثر قيام الثورة البلشفية •

وكان من نتائج عقد الهدنة بين تركيا وروسيا البلشفية فى كانون الاول عام ١٩١٧ ، ان اضطرت بريطانيا الى ارسال جيشين الى ايران اثبتت الايام انها لم تقم بأى عمل حربى يذكر • ارسل الجيش الاول من بغداد الى باكو بقيادة الجنرال دنسترفيل[٣] ، وارسل الآخر بقيادة الجنرال مليسن[٤] • وكان هدف هذا الجيش تقوية النطاق المضروب حول شرق ايران ، وتوسيعه حتى مشهد فمرو ، المدينة الواقعة على الخط الحديدى الممتد حتى بحر قزوين • وقد طلب الى الجيشين ان يظلما جهودهما الى العناصر المقاومة للتقدم الالمانى التركى ، وللقضاء على حركات جواسيس الاعداء ، وعلى ما يبثونه من دعايات • وكانت مهمة جيش دنسترفيل ان يحول دون وقوع حقول نفط باكو ومصافيه بأيدى الاتراك أو الالمان • اما جيش مليسن فكان مسؤولا عن تأمين النقل البحرى فى بحر قزوين • فلما بلغ دنستر فيل مدينة باكو وجد الوضع مضطربا ، ولم يستطع ان يقوم بأى عمل فعال ، فاضطرت جيوشه الى الانسحاب نحو ايران ؛ وبقيت معسكرة هناك حتى عام ١٩٢١

---

(١) Sir Percy Sykes.

(٢) South Persia Rifles.

(٣) General Dunsterville.

(٤) General Malesen.

عندما قضت الظروف السياسية والاقتصادية بانسحابها • على انها ساهمت فى القضاء على الحركات التى قامت بها جيوش الحكومة الروسية الذين ساندوا ثورة نشبت فى مقاطعة جيلان ضد الانكليز والايرانيين معا •

وبعد انسحاب جيش دنستر فيل من باكو اتصل جناحه الغربى مع الآثوريين (النساطرة) والارمن ، الذين كانوا يقاومون بشدة القوات التركية فى شمال ايران وفى تركيا • وقد شردهم الجيش التركى قبل وصول النجدات والسلاح الذى وعدهم به الجنرال دنستر فيل • فهرب من بقى منهم مع عوائلهم الى العراق ، وكان الجيش البريطانى يزودهم بالزاد والطعام • وقد مات الكثيرون منهم وهم فى طريقهم الى العراق ، وبلغ العراق ما يقرب من خمسين الف لاجىء تكفلت الحكومة البريطانية أمر اعاشتهم لعدة سنوات • اما الارمن فقد تم نقل من آثر السفر منهم الى باطوم فى ارمينيا السوفياتية على نفقة الحكومة البريطانية ، بينما ظل الآثوريون فى العراق ليكونوا معضلة لانفسهم ولغيرهم دامت بضع سنوات •

ولا تذكر حملة الجنرال مليسون الا بما أثاره البلشفيك حولها من دعايات لا صحة لها • فقد ادعوا بان قائدها مسؤول عن مقتل ستة وعشرين ضابطا روسيا ارسلوا لضم القوقاز ومنطقة بحر قزوين الى القضية البلشفية • فأسرتهم قوات الروس البيض المسيطرة على كراستوفورسك واعدموا رميا بالرصاص • فعندما سمع الجنرال مليسون بصدور حكم الاعدام حاول جهده تخليصهم من ذلك الحكم والاكتفاء باسرهم ولكنه فشل فى جميع محاولاته •

- ٨ -

ودامت الحرب مع تركيا أربع سنوات • ومع ان اندحار تركيا كان

كاملا فان الصلح معها لم يتم الا بعد مضي مدة طويلة • ذلك لان الحلفاء لم يتفقوا فيما بينهم على شروط الصلح معها • وقد احتلت الجيوش البريطانية والفرنسية والايطالية خلال تلك الفترة مدينة القسطنطينية • وفي شهر ايلول من عام ١٩١٩ تم الاتفاق بين المستر لويد جورج والمستر فنزيلوس ، على ان تقوم الجيوش اليونانية باحتلال مدينة أزمير تحميها نيران مدافع الاسطول البريطاني والفرنسي والامريكي • وقد رافقت هذا الاحتلال اعمال وحشية واعتداءات فضيعة نتيجة للعـداء التاريخي بين اليـونان والاتراك • فحفز ذلك الاحتلال وتلك الاعتداءات ، فئة من الاتراك بقيادة مصطفى كمال (كمال اتاتورك) للقيام بالحركة الوطنية التركية • فكانت ثورة على النظام العثماني المستسلم لاعداء البلاد ، قرر قادتها وأقطابها مقاومة أية محاولة لقسمة آسيا الصغرى أو تراقيا • بينما كان السلطان مستسلما الى الحلفاء ، متعاونا معهم أبعد حدود التعاون • وفي مايس سنة ١٩٢٠ وقع ممثله معاهدة سيفر (١) التي اشترطت على تركيا ان تنفض يدها من الاقطار العربية ، التي كانت تابعة الى الامبراطورية العثمانية ؛ ومما يستحق الذكر ان قادة الحركة الوطنيـة وافقوا على هذا الشرط • كذلك حتمت معاهدة سيفر تسليم تراقيا الشرقية وغاليبولي وأزمير الى اليونان ، كما منحت فرنسا وايطاليا بالاتفاق مع بريطانيا مناطق نفوذ في آسيا الصغرى • ومما ورد في تلك المعاهدة الجائرة البحث عن امكانية تكوين دولة كردية تضم الولايات الكردية في الدولة العثمانية •

لقد ولدت معاهدة سيفر ميتة • فان ما احتوته من شروط جائرة عجلت في تحويل الرأي العام التركي من السلطان الى الحكـومة الوطنيـة التي تألفت في داخل البلاد وسارعت روسيا السوفياتية الى الاعتراف بها • وجابه

(١) Treaty of Sevre.

الجيش اليونانى المحتل للاراضى التركية مقاومة عنيفة غير متوقعة أدت به الى الانسحاب من الاراضى التركية • وبالوقت ذاته هاجم المسلمون الهنود بشدة سياسة الحكومة البريطانية فى معاونتها اليونان وتركها تركيا • وفى هذا الاثناء أى فى ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٠ ، تم الاتفاق بين فرنسا والحكومة الوطنية التركية على وضع نهاية للخلاف القائم بين فرنسا وتركيا ، وعلى انسحاب الجيوش الفرنسية من كليكيا • كما عقدت ايطاليا اتفاقا مماثلا يقضى بانسحاب قواتها من الاجزاء المحتلة من آسيا الصغرى ، وبمساندة المطاليب التركية عند عقد معاهدة الصلح ، ولاسيما منها تلك المطاليب المتعلقة باعادة ازمير وتراقيا الى الحضيرة التركية •

وظلت الجيوش البريطانية وحدها معزولة فى هذا القطر ، بعد ان وقفت كل من فرنسا وايطاليا موقفا محايدا ، بل مؤيدا للمطاليب التركية • وهزم الوطنيون اليونان فى آب من عام ١٩٢١ ، وأخرجت الجيوش المعادية من أزمير ، وسحبت فرنسا وأيطاليا جيوشهما من الدردنيل ، تاركة الجيوش البريطانية فى وجه الجيوش التركية المتقدمة ، وكادت تستعر نار حرب أخرى بين الجيوش التركية والجيوش البريطانية ، للموقف الصلب الذى وقفته القيادة البريطانية العامة • ولكن من حسن الحظ عقدت الهدنة بين تركيا وبريطانيا فى مودانيا ، وعقدت معاهدة الصلح بين الحلفاء وتركيا فى عام ١٩٢٤ بمدينة لوزان • وبحسب تلك المعاهدة تنازلت الحكومة الوطنية التى اصبحت الحكومة التركية الوحيدة عن جميع مطاليبها الاقليمية فى الاقطار العربية ، عدا مدينة الموصل ، التى تركت لمفاوضات أخرى • وألغيت الامتيازات الاجنبية ، كما الغى مجلس الديون العثمانية • وما ان فازت تركيا بتلك الشروط الممتازة ، حتى سارعت الحكومة الوطنية بالغاء الخلافة

العثمانية ، وخلعت السلطان وأعلنت النظام الجمهوري في البلاد • وقد أغضبت تلك الخطوة المسلمين من الهنود ، وأثارت استيائهم ؛ مع ان شدة تحمس المسلمين للحركة التركية واخلاصهم للخلافة كان له بعض التأثير في توجيه مفاوضات الصلح مع تركيا •

وفي الوقت الذي وقعت به معاهدة لوزان ، تمت محاولة انهاء قضية المضايق بالتوقيع على ميثاق خاص بها • وكانت محتويات هذا الميثاق :

١ ــ جعل البسفور وجزر بحر مرمرة عدا جزيرة واحدة وبعض جزر بحر ايجا مناطق غير عسكرية •

٢ ــ تأليف لجنة للمضايق مسؤولة أمام عصبة الامم وحدها •

٣ ــ اعطاء ضمان دولي لحرية الملاحة في المضايق وسلامة المنطقة غير العسكرية بجميع الوسائل التي يستطيع مجلس الجامعة التوسل بها في حالة الاعتداء عليها أو في حالة اعلان حرب تهدد سلامتها •

- ٩ -

حالما تم التوقيع على هدنة مودروس مع تركيا ، تقدمت الاقطار العربية مطالبة بتحقيق الوعود والتعهدات التي تعهدت بها دول الحلفاء • غير ان الفرنسيين لم يكونوا مستعدين للتنازل عن مطاليبهم في الشرق الاوسط ، مع ان الجيوش الفرنسية لم تقم بحركات حربية واسعة في ميادين هذه البقعة من المعمور • ومما زاد في تعنتهم ، انهم لم يشتركوا برسائل مكماهون ، ولم تكن ثمة مسؤوليات عليهم نتيجة لتلك الرسائل ؛ يضاف الى ذلك انهم كانوا ، نتيجة لاتفاقية سايكس ــ بيكو ، يلعبون بورقتين هامتين أثرت أشد الاثر في الخطط البريطانية ، هي الموصل وجزء من فلسطين • والى هاتين

الورقتين يعزى اطلاق يد الفرنسيين فى سوريا • فلكى تحتفظ فرنسا بسوريا سمحت بضم الموصل الى العراق كما تنازلت عن مطاليبها فى فلسطين •

ولم تعد زيارة فيصل لمؤتمر السلام ، المنعقد بباريس فى أوائل عام ١٩١٩ ، بالفائدة المرجوة على العرب ، فقد كان البريطانيون منشغلين بمشاكلهم ، كما كان الفرنسيون يناوئون مطاليب فيصل • فشجع هذا الوضع اليهود لان يغتنموا الفرصة محاولين الحصول على اعتراف من فيصل بمطاليبهم فى فلسطين • وقد أدت محاولتهم تلك الى توقيع اتفاق فى الثالث من كانون الثانى من قبل فيصل نيابة عن مملكة الحجاز العربية ، والدكتور وايزمان نيابة عن المنظمة الصهيونية • ومما جاء فى تلك الاتفاقية اقامة علاقات دبلوماسية بين « دولة العرب وفلسطين » والسماح بالهجرة الى فلسطين • (وبهذه المناسبة نود ان ننوه بأن تلك الاتفاقية نصت أيضا على أن أى خلاف ينشأ بين الطرفين المتعاقدين يجب ان يعرض على الحكومة البريطانية للفصل فيه) • ومما يجب الا يغفل عنه ان الاتفاقية ذيلت بتوقيع فيصل مع الملاحظة التالية « انه يوافق على الاتفاق فى حالة واحدة فقط وهى اذا ما حصل العرب على استقلالهم ، كما هو معروف فى المذكرة المقدمة الى وزارة الخارجية فى الرابع من كانون الثانى » ، ولا بد ان تكون « الرابع من كانون الثانى » سهوا يعنى به « الاول من كانون الثانى » ، وهو التاريخ الذى قدم فيه فيصل مطاليبه الى مؤتمر السلام ، والتى تضمنت ان الدول يجب الا تتخذ أى قرار يحول دون تحقيق الاتحاد بين سوريا والعراق وفلسطين ، بادارة حكومة ملكية واحدة ، ذلك الاتحاد الذى يجب ان يضمن للعرب ازالة الحدود بين هذه الاقطار ، وتوحيد طرق المواصلات وأسبابها ، واتباع نظام تعليمى موحد • وكما لا يخفى ان هذه المطاليب لم تتحقق الامر الذى يجعل اتفاق

فيصل ـ وايزمان كأن لم تكن .

وحدد مؤتمر سان ريمو المنعقد في نيسان ١٩٢٠ ، بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أوضاع الاقطار العربية . فقد عهد الى بريطانيا أمر الانتداب على العراق والى فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان . كما عهد الى بريطانيا أيضا الانتداب على فلسطين شريطة ان تحقق وعد بلفور . وأثارت هذه القرارات الاستياء الشديد في سوريا ، ذلكم لان لبنان كان تحت الادارة الفرنسية منذ هدنة مودروس ، بينما كانت سوريا تتمتع بحكم وطني على رأسه فيصل ، وان كان البريطانيون يشرفون اشرافا غير مباشر على تلك الحكومة . يضاف الى ذلك ان المؤتمر السوري العام سبق له ان اختار فيصل ملكا على سوريا ـ وهي تشمل لبنان وفلسطين ـ على ان ذلك القرار لم تعترف به الحكومتان البريطانية والفرنسية . وقد بلغ الاستياء شدته لدى مستشاري فيصل من العرب ، حتى دفعهم الى ان يعلنوا الحرب على فرنسا . ومما زاد في الوضع تعقيدا استياء الفرنسيين من الحركات الوطنية المتطرفة . فلما هاجمت بعض العناصر العربية ، المخافر الفرنسية على الحدود اللبنانية ، بعث المندوب السامي الفرنسي في تموز من عام ١٩٢٠ احتجاجا شديد اللهجة الى فيصل ، واعقب ذلك اعلانه الحرب بنطاق واسع على الحكومة الوطنية في سوريا ادت الى احتلال الفرنسيين مدينة دمشق والى انسحاب فيصل من البـلاد .

- ١٠ -

وأثرت هذه الاحداث بالاوضاع القائمة في العراق . فبعد ان انسحب فيصل من سوريا ، لم يلق الضباط العراقيون مستقبلا لهم الا في بلدهم

الاصلى • وكان العراق اثناء ذلك فى اضطراب عام ، من جراء عجز الادارة القائمة للتوصل الى تسوية ترضى ابناء البلاد • ومرد ذلك العجز تباين وجهات النظر بين البريطانيين والفرنسيين والامريكان • يضاف الى هذا ان الادارة القائمة فى العراق كانت تختلف بوجهة نظرها مع الحكومة البريطانية • فقد كان كبار الضباط البريطانيين فى ادارة العراق يرغبون فى ابقاء الاشراف البريطانى على الدولة العراقية ، بينما كانت الحكومة البريطانية ، التى هى على اتصال وثيق بالثورة العربية وعلى بينة من الوعود الكثيرة التى اعطيت الى العرب ، ترى ضرورة تقديم البلاد خطوة واسعة نحو الاستقلال •

وكان الضباط العراقيون الذين اشتركوا بالثورة العربية ومن بينهم الشخصيتان البارزتان نورى باشا السعيد وجعفر باشا • يرغبون فى استلام ادارة البلاد حالا ، تلك السياسة التى لم يكن يرضى عنها القائد العام البريطانى ، الذى كان ولا يزال مسؤولا عن استتباب الامن والنظام فى البلاد ، والدفاع عن مدينة الموصل من أى اعتداء تركى محتمل الوقوع • ففى اواسط عام ١٩٢٠ عندما تأزم الوضع بين كلى الطرفين ، استدعى السر برسى كوكس(١) ، الذى كان يومذاك وزيرا بريطانيا فى بلاط طهران ، وكان قبل ذلك الحاكم السياسى والادارى فى العراق ، استدعى الى لندن لكى تعهد اليه وظيفة الحاكم العام فى العراق • ومما يؤسف له ان بضعة أشهر مضت ، قبل ان يصل الى بغداد حاملا معه سياسة معينة ، حدثت خلالها اضطرابات فى جميع انحاء البلاد • وكان القائمون بالثورة مزيج من ضباط العرب ، الذين اشتركوا مع البريطانيين فى محاربتهم الاتراك فى الحجاز وفلسطين ، ومن ابناء عشائر الفرات ، الذين عرفوا بالتمرد والفوضى والذين

---

(١) Sir Percy Cox

ثاروا على حكومة العراق الوطنية فى عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ • لقد كانت ثمة عوامل اثارت استياء ابناء البلاد • فمن ذلك ان البريطانيين كانوا صارمين فى تطبيق النظام ، وفى جباية الضرائب ، صرامة لم يألفها السكان فى عهد الحكم التركى • يضاف الى ذلك ان انسحاب الجيوش البريطانية من البلاد شجع العشائر على التمرد والعصيان لغرض السلب والنهب • ومما لا ريب فيه ان جزءا من المساعدات المالية التى قدمتها الحكومة البريطانية الى الملك حسين صرف فى اذكاء نار الثورة فى البلاد • ولا تعنى هذه العوامل ، ان الدعوة الى الاستقلال لم تكن منبعثة عن قلوب مؤمنة ، وانها لم تلق استجابة شاملة من مختلف ابناء البلاد • ومع هذا فقد تم القضاء على الثورة ، وجمع الجيش البريطانى ٦٥٫٠٠٠ بندقية من الثوار ، عقابا لهم على ثورتهم • وقد ساعد هذا التدبير فى استتباب الامن والاستقرار فى البلاد خلال السنوات التالية •

وفى تشرين الاول من عام ١٩٢٠ وصل السر برسى كوكس الى بغداد ، واستطاع اقناع نقيب بغداد لان يكون رئيسا لمجلس الدولة الذى اعتبر بمثابة حكومة مؤقتة • وتطور هذا الكيان خلال السنوات العشر التالية حتى اصبح نظاما حكوميا وطنيا مستقلا استقلالا تاما •

بين حربين

- ١ -

عندما ادركت الحرب غايتها ، الفت الحكومة البريطانية نفسها امام عدد من المشاكل المعقدة المتعلقة بالشرق الاوسط . وكانت الظروف التى تكتنفها يومذاك تقضى بتأجيل البت بتلك المشاكل مع ادراكهـــا ان الزمن سيزيدها تعقيدا . فثمة وعود لا مناص من تحقيقها ، وهناك فرقاء لابد من استشارتهم ، ان اريد التوصل الى حلول ترضى جميع من يعنيهم الامر . يضاف الى ذلك ان ليس من اليسير تطبيق نظام الانتداب ، قبل ان يجمع الحلفاء كلمتهم على اصوله . وان الحكومة البريطانية ملزمة بتعويض دول رابطة الشعوب البريطانية عما بذلته من تضحيات وجهود ، وبالتالى لم يكن من السهل على الحكومة البريطانية التنازل الى غيرها من الدول ، عن الوضع الخاص الذى فازت به بعد الحرب . وكانت الرغبة يومذاك ملحة بسحب الجنود البريطانيين من الاقطار المحتلة ، وبتسريحهم تخفيفا لوطئة الضرائب عن دافعيها . مع العلم انه كان لهذا العمـــل أثر عكسى فى بعض الاقطـــار المحتلة . فما ان سحبت الجيوش من العراق حتى اتقدت نار ثورة عام ٩٢٠ ، فاضطرت الحكومة البريطانية الى ارسال جيوشها الى العراق ثانية لاخماد

تلك الاضطرابات • ومما زاد في الامور تعقيدا ان الحكومة كانت مضطرة الى تنفيذ رغبة الشعب العامة ، تلك الرغبة التي كانت تطالب بالاقتصاد فيما ينفق على اقطار الشرق الاوسط ، حتى وان دعى ذلك الى سحب جميع القوات من العراق وفلسطين • وقد عهدت هذه المهمة الشاقة الى المستر شرشل ، الذى كان يومذاك وزيرا للمستعمرات • فاحدث دائرة خاصة لهذا الغرض سميت « بدائرة الشرق الاوسط »[1] • وفي عام ١٩٢١ عقد مؤتمر في القاهرة ضم جميع الخبراء بشؤون الشرق الاوسط من البريطانيين، فانبثقت تصاميم مستقبل العراق وشرق الاردن من مقررات ذلك المؤتمر •

وتنفيذا لسياسة الاقتصاد بالنفقات ، تقرر في ذلك المؤتمر ان ينقل أمر استتباب الامن والنظام في اقطار الشرق الاوسط ، من عهدة وزارة الحربية الى وزارة الطيران • ويعود الفضل في هذا التدبير الى لورنس ، الذى كان اول من ادرك ان قوة جوية قليلة تسندها بضعة سيارات مصفحة تكفي للقيام بمهمة جيش الاحتلال ، وتكون اقل كلفة منه بكثير • وقد اثبتت الحوادث ان هذه القوة القليلة ، كانت تعجز عن تأمين النظام في البلاد ، مع انه كان في استطاعتها صد أى عدوان من الصحراء • ففي فلسطين مثلا وجدت السلطة الادارية نفسها عاجزة عن القضاء على الحركة العربية في عام ١٩٢٩ ؛ مما اضطرها الي‌الاستعانة بجيوش ارسلت‌اليها من اقطارأخرى •

ويتمثل كفاح الشرق لمقاومة كل سيطرة أو تدخل بشؤونه من قبل الغرب ، احسن تمثيل في الحركات التي ظهرت في الشرق الاوسط خلال هذه الحقبة من الزمن • فلا غرابة اذا ما اظهر سكان قبرص اليونانيون وهم يؤلفون اربعة اخماس سكان الجزيرة ، ميلا معاديا نحو بريطانيا • فان

---

(١) Middle East Department.

ما كان يبدونه من امتنان وشكر فور زوال الحكم التركي عن جزيرتهم ، تبدد وتلاشى بعد ان اهملت شؤونهم ولم يكترث الى ما يجب تحقيقه من مطاليبهم ، في وقت تبدو فيه مغريات الاتحاد مع اليونان جذابة وبراقة • مثل هذه النزعة ظهرت لدى العرب ، الذين تحرروا من السيطرة التركية ، نتيجة للمجهود الحربى الذى بذله الحلفاء ، فأخذوا يتوسلون بالوسائل ذاتها التى غذاهم بهاالحلفاء للتغلب على اعدائهمالجدد • فالحرية والديمقراطية وحق تقرير المصير ، التى كانوا يطالبون الحلفاء بها لم تكن الا مبادىء لقنها اياهم الحلفاء عندما كانوا يكافحون الاتراك من اجل خلاصهم • ومما زاد في عنف تلك المطاليب ، اعلان نظام الانتداب فى ثلاثة من الاقطار العربية ، التى كانت تتوقع الحصول على الاستقلال التام • فكان لذلك الاعلان اثر رجعى فى نفوسهم • وكان الحلفاء يهدفون من نظام الانتداب ولا سيما انتداب صنف « آ » ، املاء الفجوة بين الاستقلال والاستعمار • وهكذا طبقت اصناف الانتداب ، باختلاف درجاتها ، فى كل من فلسطين وبضمنها شرق الاردن ، وفى سوريا ولبنان ، وفىالعراق ، القطر الذىاعترف له بالاستقلال، على ان يقتصر عمل السلطة المنتدبة على المشورة الادارية والمساعدة ، ريثما يتسنى لابنائه الوقوف على أرجلهم • ومما أغضب العرب على نظام الانتداب ، انهم كانوا يأملون أن يجنوا من موقفهم فى الحرب اكثر مما قدر لهم ، وهذا ما جعلهم يفسرون كلمة « الانتداب » اسوء تفسير • ولا ريب ان قضية فلسطين اثارت فى نفوس العرب عداءا عنيفا نحو الدول المنتدبة • سيما وان التزامات الدولة المنتدبة بالنسبة للهجرة اليهودية ، والى تأسيس الوطن القومىاليهودى، ابعدت اليوم الذىتستطيع فيه فلسطين « الوقوف علىأرجلها » بعدا لا حد له •

واذا ما سخط العرب على نظام الانتداب فيكفى انهم استفادوا منه فائدة كبرى هى تخلصهم من الامتيازات الاجنبية • فان الاصلاحات التى قامت بها سلطة الانتداب فى النظام الادارى والنظام القضائى كفلت العدل فى هذه الاقطار وأوجدت نظاما حكوميا رصينا • بعث الاطمئنان فى نفوس الدول ذات المصالح ، وبضمنها الولايات المتحدة ، فلم تعارض فى الغاء الامتيازات الاجنبية • بينما لم تتحرر تركيا من تلك الامتيازات الا بعد عقد معاهدة لوزان ، وبقيت ايران تعانى تلك الامتيازات حتى عام ١٩٢٨ • وآخر من تحرر من شرورها مصر ، وتم لها ذلك بعد عقدها معاهدة ١٩٣٧ •

ومع ان حكومة الولايات المتحدة الاميركية لم تكن عضوة فى عصبة الامم ، فانها طالبت ان يكون لها ، ولمواطنيها فى الاقطار التى اخضعت لنظام الانتداب صنف « آ » ، الحقوق ذاتها الممنوحة الى رعايا الدول الاعضاء فى العصبة • وقد منحت الولايات المتحدة هذه الحقوق لانها كانت عنصرا هاما فى انتصار الحلفاء فى حربهم مع الدول المركزية ، ولانها طالبت بنشر مسودة نصوص الانتداب قبل اقرارها من قبل مجلس العصبة • والرغبة الخاصة التى اظهرتها اميركا لانهاء المشكلة اليهودية دفعتها الى الموافقة على منح بريطانيا سلطة الانتداب على فلسطين ، وكانت مدفوعة فى موافقتها تلك بدوافع سياسية ودينية وانسانية • واشترطت الولايات المتحدة الاميركية لاعترافها بانتداب بريطانيا على العراق ، نقل ربع اسهم شركات النفط فى بغداد والموصل الى مؤسسات النفط الاميركية • ويعد هذا الشرط فاتحة تدخل الاميركان فى اعمال شركات النفط فى الشرق الاوسط • وقد تطورت نسبة مساهمة الشركات الاميركية فى امتيازات النفط فى اقطار الشرق الاوسط ، خلال السنوات المتأخرة ، حتى اصبحت تتراوح بين ٢٥ ٪

و ١٠٠ ٪ ، اذا ما استثنينا اسهم شركة النفط الانكليزية الايرانية • واخذ ذلك التحول فى أول أمره ، مظهرا تجاريا ، ولم تتضح اهميته الاستراتيجية الحربية ، الا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية •

ولم تظهر روسيا السوفياتية على مسرح السياسة فى الشرق الاوسط مظهر روسيا القيصرية • ومرد ذلك انه لم يكن ثمة تمثيل سياسى بين الاتحاد السوفياتي والدول العربية ، عدا المملكة العربية السعودية واليمن • وحتى فى هاتين المملكتين اغلقت المفوضيات الروسية ابوابها عام ١٩٣٨ ، واتجهت السياسة السوفياتية بالنسبة الى تركيا اتجاها كريما ، فأعادت اليها مقاطعات قارس واردهان ، الولايتين اللتين احتلهما الروس عام ١٨٧٨ • وبعد أن فشلت محاولة اقامة حكومة سوفياتية فى شمال ايران ، عقدت الحكومة السوفياتية معاهدة مع ايران عام ١٩٢١ ، تلك المعاهدة التى وان لم تكن ذات منافع لايران ، كما تبدو من شكلها ، كانت تعتبر تطورا فى العلاقات الايرانية الروسية • فقد سحبت الجيوش الروسية من ايران بعد التوقيع على تلك المعاهدة • وعندما كانت تركيا الوطنية تكافح النتائج المتأتية عن التداعى العسكرى ، الذى حدث عام ١٩١٨ ، تقدمت روسيا لمعونتها بوصفها صديقتها الوحيدة • ولكن بعدما تحسنت العلاقات الانكليزية التركية فى عام ١٩٣٠ ، اخذت نار الصداقة الروسية التركية تخبو • وبعدما قضى رضا شاه على الدعايات السياسية فى ايران ، انتقل التأثير الروسى الى الميادين التجارية ، وتوسع ذلك النفوذ حتى سيطر على أهم اسواق ايران ولا سيما بعد نفوذ الدعاية الالمانية الى ايران قبيل الحرب العالمية الثانية •

وظلت المانيا محتفظة بمصالحها فى الشرق الاوسط حتى فى الايام التى سبقت اندحارها فى الحرب • واحيت فى عهد هتلر سياسة الاتجاه

نحو الشرق معتبرة ان تركيا وايران والعراق من مناطق نفوذها ، وان مصر وسوريا وفلسطين من مناطق نفوذ ايطاليا • وقد بذلت الدولتان مبالغ طائلة وعناية كبيرة من اجل نشر دعاياتها ؛ فدعت الدولتان الكثير من شباب اقطار الشرق الاوسط لاكمال دراساتهم فيها ، على حساب الحكومتين الالمانية والايطالية ؛ أو لاجل القيام برحلات علمية في البلدين • وقد عاد اولئك الشباب الى اقطارهم وهم مثقلون بالانطباعات الحسنة عن النظام الجماعي[1] ، متأثرين بمظهره اكثر من تأثرهم بحقيقته • على انه مما لا ينكر ان حكومات اقطار الشرق الاوسط كانت اقل تأثرا بالدعاية الجماعية ، ولهذا صمدت بوجه المانيا وايطاليا ؛ وزاد في صمودها غزو ايطاليا الى الحبشة ، ذلك الغزو الذي كشف النقاب ، عن نوايا تلك الدول • وكان من نتائج تهديدات موسوليني لحكومات الشرق الاوسط ، ان عقدت المعاهدة المصرية الانكليزية عام ١٩٣٦ ، وعقدت اتفاقية ايران ـ العراق بشأن شط العرب والحدود الفاصلة بين البلدين •

وأثار غزو الايطاليين للحبشة ، وبذلهم الجهود للسيطرة على ساحل البحر الاحمر ، مخاوف الحكومة البريطانية • فاسرعت الى عقد الاتفاقية الايطالية الانكليزية عام ١٩٣٧ ؛ وكانت تهدف من وراء تلك الاتفاقية ، القضاء على أي احتكاك يقع بين البلدين ، في مياه القسم الشرقي من البحر المتوسط والبحر الاحمر • ومما نصت عليه تلك الاتفاقية تبادل المعلومات عن حركات جيشي الحكومتين ، وعلى الا تؤسس قواعد جوية أو بحرية في مناطق معينة من الاقليم ، الا بعلم الطرفين المتحالفين • وقد اعلن الفريقان المتعاقدان ، ان مصلحتيهما تقضي بالا يتدخلا بشؤون المملكة العربية

---

(١) Totalitarian Régime.

السعودية أو اليمن ، بحيث تصير لاى منهما مكانة ممتازة فى أحد القطرين • كما ان الدولتين المتفقتين ، لن تسمحا لاية دولة أخرى بان تحتل تلك المكانة فى ذلك القطرين • وحتمت أن تتوقف الدعايات المضرة التى يبثها احدهما ضد مصالح الاخر • وفور التوقع على ذلك الاتفاق ، توقفت محطة رادية بارى عن اذاعة دعاياتها العربية ، ومع ذلك فقد استعيض عنها حالا باذاعة برلين العربية •

ولم تكن علاقة بريطانيا بالشرق الاوسط مما ترضى الفرنسيين • فقد اعتبر الفرنسيون تأسيس دولة عربية فى دمشق لعبة انكليزية ، يقصد منها التضييق على المصالح الفرنسية ، وتخفيف العبء عن الانكليز ، ليتسنى لهم التغلب على ما كانوا يلاقونه من مشاكل سواء كانت ناجمة عما كانوا ينتهجونه من سياسة خاصة ، أم عن الصراع بين الشرق والغرب ؟ الصراع الذى كانت تعانى انكلترة ما تعانى فرنسا منه • ومما زاد فى مخاوف الفرنسيين ان عددا من الصحف الانكليزية ، ذات الكلمة المسموعة ، كانت تلمح فيما تنشره من مقالات ، الى ان السياسة التى تهدف الى تحقيق اغراض الصهيونية ، ستلاقى طريقا سهلا اذا ما طبقت فى اقليم يشمل سوريا وفلسطين•

ومما لا ينكر ان الدوافع القومية التى دعت الى انسلاخ العرب عن جسم الدولة العثمانية ، هى ذاتها التى فرقت بين الاقطار العربية • فقد قسمت معاهدة الصلح البلاد العربية الى دويلات منفصلة عن بعضها البعض • حتى الهلال الخصيب ، قسم الى ثلاثة دول ، هى سوريا وفلسطين والعراق ؟ كل منها أخضع الى صنف من أصناف الانتداب ، ولدولة من الدول • واكثر من ذلك ان سوريا وفلسطين قسمت الى اجزاء صغيرة اخرى • وكأنما حكم على هذا الاقليم ، بالتجزئة والتقسيم ، نتيجة للصراع بين

السعوديين والهاشميين ، ونتيجة لما ظهر من اختلافات محلية بين سكان هذه الاقطار • ومما لا ريب فيه ان اخضاع قسم من هذه الاقطار الى الانتداب البريطاني ، وقسم آخر الى الانتداب الفرنسي ، ووضع حدودا اعتبارية غير طبيعية ، لم يراع فيها الاحتياجات الاقتصادية لكل منها ، وساهم في توسيع شقة الخلافات المحلية بينها • ومما جسم تلك الاختلافات ، فرض الحواجز الكمركية ، واستعمال جوازات السفر ، والتأشيرات القنصلية ، واحداث وزارات للشؤون الخارجية في كل منها •

على ان ثمة عوامل كانت نشطة لمقاومة تلك الاختلافات منها اصلاح طرق المواصلات البرية بين تلك الاقطار • واهمها الطريق الصحراوي عبر فلسطين فسوريا فالعراق الذي قامت بفتحه شركة نيرن البريطانية • فساهم هذا الطريق في تشجيع حركة السفر ونقل البضائع عبر الحدود المفروضة على هذه الاقطار • وضاعف الاتصال بين ابنائها ايجاد شبكة للخطوط الجوية تربط أهم مدنها • ومما يجب الا ينسى ان الحكومة البريطانية ظلت سنوات عديدة تكافح من اجل تخفيف حدة الصراع بين ابن السعود وجيرانه في الشمال ، حتى وفقت أخيرا لاقناع الطرفين الى عقد اتفاقية تنظم استغلال العشائر لمناطق الرعي ، وتعالج مشاكل الحدود بين البلدين • ولما وجد انه من المتعذر التوصل الى عقد اتفاق كامل بين المملكة العربية السعودية والعراق ، وبين المملكة العربية السعودية والكويت ، احدثت مناطق محايدة بين حدود كل من هذه البلاد • وبعد ان اوحت الحكومة البريطانية بفكرة الجامعة العربية تركت لهم أمر تشكيلها فرحبوا جميعا بتلك الفكرة وساهموا في بناء مختلف مراحلها • وكانت السبب المباشر للتقارب بين الحكومات العربية ومقاومتهم المشتركة للسياسة الصهيونية •

- ٢ -

ومع ان الصلح مع تركيا تم عقده فى لوزان عام ١٩٢٣ ، وان مشكلة الموصل ، على ما كانت عليه من تعقيد حلت عام ١٩٢٥ ، فان العلاقة الحسنة لم تتوطد بين بريطانيا وتركيا الا بعد مضى وقت طويل • فكان التعامل مع الاتراك فى بادىء الامر ، تحفه المصاعب لانهم هم الذين املوا شروط الصلح على الدول الاخرى ، ولانهم الغوا الامتيازات الاجنبية فى البلاد دون استشارة أحد • وتخفيفا لحدة التأزم بين بريطانيا وتركيا اضطرت بريطانيا الى الانسحاب من القسطنطينية ، والى التخلى عن مساعدة اليونان ، والى الكف عن مطالبة الاتراك ، لنفى عدد من رجالاتهم لسوء معاملتهم اسرى الحرب البريطانيين أو لتقتيلهم وتعذيبهم المسيحيين العثمانيين خلال سنوات الحرب • وكما كان متوقعا فقد الاجانب فى تركيا المكانة الممتازة التى كانوا يتمتعون بها سابقا ، واصبحوا يعاملون معاملة ملؤها التعصب والمقت بالنسبة للمعاملة التى يلقاها الاتراك • ولا ريب ان البريطانيين لم يعاملوا بقسوة اكثر من معاملة غيرهم من الاجانب • ولكن وطأة التدابير التركية الجديدة كانت اكثر شدة على البريطانيين ، لانهم كانوا على العموم اغنى من غيرهم من الاجانب ، كما كانوا يحتلون منزلة ممتازة بينهم • فكان من نتائج تلك التدابير ان تقلص عدد الاسر البريطانية المنعمة التى كانت تعيش فى استنبول وأزمير ؛ كما فقدت جزءا كبيرا من ممتلكاتها وثرواتها • فقد دمرت الحرب بعض تلك الممتلكات وصادرت الحكومة التركية بعضها الاخر • ان القوانين الجديدة التى أوحتها القومية التركية المتطرفة ضيقت الخناق على المصالح الاجنبية بوجه عام • فمن أمثلة ذلك ان احد المصارف البريطانية هدد بالغلق لانه تردد فى تنفيذ القانون

الذي كان يحتم تعيين نصف عدد موظفيه من الاتراك المسلمين ؛ وان اربعين شركة بريطانية للضمان اضطرت الى الغاء فروعها فى تركيا ، وان مديرة احدى المدارس الثانوية الانكليزية للبنات بمدينة اســـتنبول اودعت رهن التحقيق ، وكادت المدرسة تسد نهائيا ، لان المديرة المذكورة رفضت قبول مدرس تركى عينته وزارة المعارف • وقد اطلق سراح المديرة بعد ان اقتنعت وزارة المعارف بعدم صلاح ذلك المدرس •

وكان من نتيجة تشريع قانون العمال التركى ، ان سدت ابواب الرزق بوجه كثيرين من الاجانب ، حتى ان المالطيين فى تركيا الذين يحملون جنسية بريطانية اخرجوا من اعمالهم وظلوا عاطلـين عن كسب رزقهـم • وقـد استوطنت غالبية المالطيين تركيا منذ اجيال ، ولهذا تعذر عليهم العودة الى مالطا ، فاضطروا الى البقاء فى تركيا محرومين من اسباب العيش ، اللهم الا مما تقدمه اليهم حكومتا بريطانيا ومالطا من مساعدات •

واخذ التحسن فى العلاقات البريطانية التركية يظهـــر عند بدء عام ١٩٣٠ • ويعزى هذا التحسن الى بعد نظر الرئيس اتاتورك ؛ فانه ادرك بثاقب رأيه ان بريطانيا وان وقفت بوجه الحركة الوطنية عندما طالب حلفاء الاتراك التحكيم ، وانها ساندت العراق عندما طالب بضم الموصل اليه ، ترغب فى أن تكون تركيا قوية مستقلة ، وفى وضع اقتصادى طيب • وقد استمرت العلاقات الحسنة بين البلدين وأخذت مظهرا جديدا • فاتخذت اللغة الانكليزية لغة ثانية للتدريس عوضا عن الفرنسية ، وتوصل الطرفان الى ايجاد حلول للمشاكل المالية المتعلقة بين البلدين ، وارسلت بعثة من الضبـــاط الاتراك للتدريب فى انكلترة • ومع ذلك فان هذا الاتجاه الجديد لم يحول دون تشديد الاتراك فى مطالبتهم شراء اسهم الشركات الانكليزية فى المؤسسات

الاقتصادية التركية . وكانت شركة التلغراف الشرقية آخر تلك المؤسسات التى يسيطر عليها المساهمون الانكليز ، فانها انهت اعمالها وانسحبت من تركيا عام ١٩٣٢ .

وقد اظهرت بريطانيا نواياها الحسنة اجلى ظهور فى مؤتمر منترو عند بحث مشكلة المضايق عام ١٩٣٦ ، عندما اقر المؤتمر حلا لهذه المعضلة لا يؤمن المصالح البريطانية كل التأمين ، كما كانت تتطلبه السياسة التقليدية . فقد طالبت الحكومة التركية مرارا الغاء المواد التى تقضى بتجريدها من السلاح من معاهدة لوزان ، ولكن طلبها لم يلب الا عندما تحدى هتلر الحلفاء واحتل اقليم الراين ، وعندما تحدت ايطاليا عصبة الامم واضافت الحبشة الى ممتلكاتها . عند ذاك ادرك الحلفاء ان تركيا كانت محقة فى مطاليبها ، ولا محيص من الاسراع فى تلبية تلك المطاليب . ولا ريب ان النتائج التى توصل اليها مؤتمر منترو كانت تلائم المصالح الروسية اكثر من نتائج أى مؤتمر دولى آخر ، منذ ان الغيت المعاهدة الروسية التركية المعروفة بمعاهدة انكيراسكلسى المعقودة عام ١٨٣٣ . فبحسب أحكام معاهدة منترو « لا يسمح للاساطيل البحرية الكبيرة أن تمخر المضايق متجهة الى البحر الاسود الا فى ظروف الحرب فقط . بينما يسمح للبوارج الحربية السوفياتية ان تجتازها متجهة الى البحر المتوسط أو بحر البلطيق أو المحيط الباسفيكى وبالعكس » . ولو ان ايطاليا اشتركت فى ذلك المؤتمر لكانت وطأة قراراته عليها اخف مما كانت عليه بالنسبة الى سياستها التقليدية فى البحر المتوسط . ولكنها رفضت الاشتراك متأثرة من قرارات عصبة الامم التى كانت تقضى بفرض الحصار البحرى عليها نتيجة اعتدائها على الحبشة .

وقد نشأت مصاعب حالت دون تحقيق رغبة تركيا لعقد اتفاقات اقتصادية

بينها وبين بريطانيا • فكانت تركيا ترغب بشراء طائرات بريطانية ، كما كانت تود ان تتعاقد مع المؤسسات البريطانية لانشاء معامل كبيرة للحديد والفولاذ • ولكن لم يكن لديها الرصيد الاسترليني الكافي الذي يمكنهـا من تحقيـق رغبتها ؛ خاصة وانه لم يكن في وسع بريطانيا ان تستورد من تركيا المنتجات التركية التي توفر الرصيد المطلوب • وقد امكن التغلب على هذه المشاكل قبل سنوات الحرب الاخيرة وتم الاتفاق بين الطرفين • فكان من نتائج ذلك الاتفاق ان اوفدت بعثة من رجال الطيران الملكي البريطاني الى تركيا لتدريب رجال القوة الجوية التركية • اما في النواحي الثقافية فقـد بدأ الاتراك يقدرون الجهود التي يبذلها المجلس الثقافي البريطاني • وفي عام ١٩٣٨ تم عقد اتفاق آخر ، منحت تركيا بمقتضاه ضمانا بعشرة ملايين جنيه استرليني تصرف لاغراض الانماء الصناعي ، وقرضا بستة ملايين جنيه لشراء اسلحة بريطانية • وفي مايس من عام ١٩٣٩ نشر بيان انكليزي تركي يعد فاتحة للمعاهدة المعقودة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا في شهر تشرين الاول من العام المذكور • فقد مهد البيان المذكور السبيل الى عقد اتفاق دفاعي متبادل ، والى التعاون وبذل المساعدات عند حدوث أي اعتداء من شأنه ان يثير حرب في البحر المتوسط •

- ٣ -

اختارت اهم دول الحلفاء والدول المؤيدة لها بريطانيا للانتـداب على فلسطين ؛ وبعد ذلك أقر مجلس عصبة الامم هذا الاختيار • وضمن تصريح بلفور(١) في صك الانتداب • وقـد نص ذلك التصـريح على الاعتراف

---

(١) Balfour Declaration.

« بالعلاقات التاريخية للشعب اليهودى بفلسطين وبالاسس التى تمكنهم من اعادة بناء وطنهم القومى فيها • » ولذا فان تضمين التصريح المذكور فى صك الانتداب أوجب على الدولة المنتدبة ان تعمل من اجل تأسيس الوطن القومى اليهودى ، وانماء المؤسسات ذات الكيان المستقل • كما اوجب عليها تأمين الحقوق الدينية والمدنية لسكان فلسطين ، دون الالتفات الى جنسياتهم أو اديانهم • وتسهيل أمر الهجرة اليهودية فى الاحوال الملائمة « على ان تراعى حقوق الطوائف الاخرى من السكان وان يحال دون الاعتداء عليها » •

لقد ظل أمل عودة اليهود الى فلسطين متقدا فى قلوبهم طيلة بقائهم فى المنفى • وكانوا يحاولون العودة الى فلسطين افرادا وجماعات ، كلما تسنح لهم الفرص للعودة • يحفزهم لذلك دوافع شخصية وروحية أو تصاميم اقتصادية محكمة • وبدأت عناية بريطانيا بأمر عودة اليهود الى فلسطين بعد الاحتلال المصرى لها بين عامى ١٨٣١ و ١٨٤٠ • حتى ان الحكومة البريطانية عهدت الى أول قنصل بريطانى عين فى القدس عام ١٨٣٨ ، أمر حماية اليهود الموجودين فى فلسطين مهما كان اصلهم ، وجعلت هذه المهمة من اولى واجباته الرسمية • وساعدت مشاريع الاستيطان التى كان يغذيها ويساهم بها كل من السر موزس مونتفيور(١) والبارون ادموند دى روتشايلد(٢) ، فى مضاعفة عدد المهاجرين الى فلسطين • وكان من اثر تلك الخطط أن بلغ عدد المهاجرين خلال السنوات الثلاثين التى سبقت الحرب العالمية الاولى نحـــوا من الف مهاجر فى العام •

وبعد اعلان الانتداب توقع اليهود أن يتزايد عددهم فى فلسطين زيادة كبيرة وسريعة ، حتى ان جلهم كان يعتقد اعتقادا جازما بان تحويل البلاد الى

(١) Sir Moses Montefiore. (٢) Baron Edmond de Rothechild.

دولة يهودية أمر منتهى منه ، وكلما يتطلب فترة من الزمن تكفي لذلك التحول • وان الدكتور وايزمان[١] رئيس المنظمة الصهيونية[٢] عندما سؤل في مؤتمر فرساى عما يقصده بالوطن القومى اليهودى ، أجاب بانه يعنى وجوب صيرورة فلسطين يهودية كما انكلترة انكليزية • وكان العرب فى الناحية الثانية يعلنون فى المؤتمر السورى العام[٣]، الذى انتخب الامير فيصل ملكا على سوريا ، معارضتهم الشديدة للهجرة اليهودية الى اى من اجزاء سوريا وبضمنها فلسطين • كما انهم لم يعترفوا بأن رسائل مكماهون استثنت فلسطين من الاقطار العربية المطالب باستقلالها • بينما كانت الحكومة البريطانية تصر على ان تلك الرسائل استثنت فلسطين منها • وان السر هنرى مكماهون[٤] والسر جلبرت كلايتون[٥] الذين قاما بمفاوضة العرب أعلنا بأنه كان مفهوما لدى المتفاوضين ـ فى جميع مراحل المفاوضات ـ بأن فلسطين مستثناة من تلك الاقطار • ويستطيع المرء أن يستنتج ، من الاتجاه الذى اتجه كل من فيصل فى مفاوضاته بباريس ، والملك حسين عند سماعه تأكيدات هوغارث ، بأن العرب كانوا مدركين بأن للحكومة البريطانية رأياً خاصاً بشأن فلسطين • ومما يؤسف له ان رسائل مكماهون جاءت غير واضحة ، وان صك الانتداب جاء مبهما بصدد مصير فلسطين • ولان الانتداب كان مستندا الى تصريح بلفور فان العرب لم يعترفوا بالانتداب ، خاصة وانهم لم يستشاروا بأمر التصريح قبل اعلانه • كذلك انهم كانوا يجمعون على ان ذلك التصريح انتهاك للوعود التى قطعت لهم •

وبعد ان ادرك عرب فلسطين وجهة نظر الحكومة البريطانية فى مصير

(١) Dr. Weizmann. (٢) Zionist Organisation.

(٣) General Syrian Congress. (٤) Sir Henry McMahon.

(٥) Sir Gilbert Clayton.

بلادهم ، ثاروا مرتين بوجه السلطة المحتلة قبل ان يتم فرض الانتداب على بلادهم • كانت الاولى فى عيد الفصح عام ١٩٢٠ وكانت الثانية فى مايس عام ١٩٢١ ؛ قتل الكثيرون من اليهود فى هاتين الثورتين ، كما قتل وجرح عدد ليس بالقليل من العرب بسلاح السلطة المحتلة • ومع ذلك فقد استمرت هجرة اليهود الى البلاد بمقياس واسع حتى بلغ عدد المهاجرين اليهود المجازين خمسة آلاف وخمسمائة مهاجر عام ١٩٢٠ ، واربعة وثلاثين الف مهاجر فى عام ١٩٢٥ • ثم ضعفت الهجرة خلال فترة قصيرة هى فترة الأزمة الاقتصادية العالمية • ومع ان الهجرة اليهودية ظلت مصدرا لسخط العرب واستيائهم ، فان السبب المباشر لثورة عام ١٩٢٩ ، كان وقوع حادث بسيط عند حائط المبكى خلاصته ان اليهود أقاموا حاجزا فى المكان الذى يتعبدون فيه الا ان السلطات رفعت ذلك الحاجز لان واجبها كان يقضى عليها بمحافظة الوضع الراهن كما كان عليه فى العهد العثمانى • فحدث من جراء ذلك ان قام اليهود بمظاهرات صاخبة ادت الى ان يقوم العرب بمظاهرات معادية ، تطورت الى قيام العرب بثورة على السلطات باعتبارها المسؤولة عن السياسة الاعتدائية التى انتهجها اليهود[1] • وكانت ثورة العرب هذه على جانب كبير من الخطورة لانها جاءت بعد مرور سنوات هدوء وسلام بررت للسلطات الحاكمة ان تسحب جيوشها من البلاد مستعيضة عنها بقوة جوية صغيرة • فلما اشتعلت نار الثورة لم يكن فى البلاد من المشاة ما يكفى لمساعدة قوة الشرطة للقضاء على الاضطرابات •

---

(١) على اثر الاضطرابات الواسعة التى وقعت بين العرب واليهود فى عام ١٩٢٩ الفت لجنة تحقيق برئاسة السر ولتر شو • وقد اوصت هذه اللجنة بضرورة تحديد الهجرة اليهودية (المعرب) •

وفى خلال السنوات العشر التى تلت عام ١٩٢٠ سمح بادخال مائة الف يهودى • وفى السنوات السبع التى اعقبتها ادخل مائة وثمانين الف يهودى ؛ اى ان مجموع اليهود فى فلسطين بلغ ربع مليون يهودى خلال تلك الفترة القصيرة • وكان يتردد فى اذهان العرب السؤال التالى : هل ستستمر الهجرة اليهودية حتى يتفوق اليهود بعددهم على العرب ؟ ومع ان العرب رفضوا الانتداب فان صكه كان ينص على ان الهجرة اليهودية يجب « الا تغمط حقوق السكان غير اليهود والا تضعف مكانتهم » • ولكن العرب كانوا شاعرين بان الهجرة اليهودية تهدد حقوقهم وتضعف مكانتهم خاصة بعد ان يصبحوا أقلية فى بلادهم • وحاولت الحكومة البريطانية خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين ايضاح ما ورد فى تصريح بلفور وفى صك الانتداب من ابهام بما نشرته من كتب بيضاء[1] فى عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٠ ، ومقررات اللجنة الملكية فى عام ١٩٣٦ ، والكتاب الابيض فى عام ١٩٣٩ •

ومما لا ريب فيه ان الكتاب الابيض المنشور عام ١٩٢٢ انكر على الدكتور وايزمان تفسيره « للوطن اليهودى » كما انكر عليه « زعمه بان فلسطين يجب أن تصبح يهودية كما ان انكلترة انكليزية » • واوضح ان الحكومة البريطانية لم تكن تهدف تلك الاهداف وانها لا تسعى لابادة العرب من سكان البلاد ، أو اخضاعهم الى غيرهم أو القضاء على لغتهم أو ثقافتهم أو فرض الجنسية اليهودية على جميع سكان فلسطين • وبالوقت ذاته جاء الكتاب الابيض مؤيدا ان وجود اليهود فى فلسطين نتيجة حق تاريخى ، وليس نتيجة ما يلاقونه من اضطهاد فى بعض اقطار شرق اوربا • ولهذا فان تأسيس الوطن القومى اليهودى يتطلب كما قرره الكتاب الابيض مضاعفة عدد

(١) White Papers.

المهاجرين الى فلسطين « على الا تكون الهجرة من الجسامة بحيث تتجاوز حدود قابلية البلاد الاقتصادية لاستيعاب المهاجرين » .

وكان يظن بان الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٢٢ ، شطب امكانيـة تأسيس دولة يهودية فى فلسطين . الا ان اللجنة الملكية التى الفت عام ١٩٣٦ ذهبت خلاف ذلك ، وايدت المنظمة الصهيونية فيما تسعى اليه . ومن الغريب ان الدكتور وايزمان أقر ما ورد فى الكتاب الابيض المنشور قبـــل اعلان الانتداب ، ووعد الحكومة البريطانية بان المنظمة الصهيونية ستتصرف وفق السياسة التى وضع الكتاب الابيض اصولها . وقد وقف اليهود هذا الموقف لاعتقادهم بأن حماسهم لقضيتهم ، وما يتمتعون به من مهارة فنية وما يتوفر لديهم من رؤوس اموال ، سيمكنهم من مضاعفة قابلية البلاد الاقتصـــادية لاستيعاب جميع ما يستطيعون ادخاله اليها من مهاجرين ، فيتفوقون بعددهم على العرب دون ان يخالفوا ما نص عليه الكتـــاب الابيض المذكور . ومن الملاحظ ان الكتاب الابيض هذا لم ينص على ان الهجرة اليهودية يجب ان تبلغ الغاية القصوى لقابلية الاستيعاب الاقتصادى للبلاد ، وانما نص على انهـا يجب الا تتجاوز تلك القابلية .

وقد أدى هذا التباين بوجهات النظر الى حدوث احتكاك بين اليهود وسلطات الانتداب . فكثيرا ما انتقدت المنظمة الصهيونية الاجراءات المتخذة لتحديد الهجرة زاعمة بأن البلاد لا زالت تستوعب أكثر مما تقرره السلطات . وهذا ما جعلها تشجع الهجرة غير المجازة ، وتتواطأ على التستر عليها . الامر الذى جعل الهجرة غير الرسمية تبلغ نسبة عالية خلال الفترة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ . ولم تكتف المنظمة الصهيونيـة بادخال عدد كبير من اليهود خلسة الى البلاد ، بل حرضت عددا ليس بقليل من اليهود المجازين بالاقامة

الوقتية على العصيان والتمرد ورفض الخروج من البلاد بعد انتهاء مدد اقامتهم • ولم تتثبت السلطات الحاكمة من عدد اولئك المهاجرين غير المجازين الذين تسربوا الى البلاد خلال السنوات الاولى للانتداب • ولكن عددهم بلغ فى عام ١٩٣١ نيف وستة آلاف مهاجر ، اضطرت السلطات الحاكمة الى قبولهم نتيجة ضغط المنظمة الصهيونية التى سبق لها – على لسان رئيسها – ان وعدت بتنفيذ السياسة التى أوحى بها الكتاب الابيض ، والتى أخذت الآن تهدد بعدم تعاون السكان اليهود مع السلطات الادارية فى قيامها باجراء احصاء عام للبلاد ما لم تعترف بهجرة اولئك المهاجرين غير المجازين •

وجاءت المحاولة الثانية لايجاد حل للمعضلة الفلسطينية فى عام ١٩٣٠ على ضوء تقرير لجنة انتدبت لبحث أسباب ثورة عام ١٩٢٩ • ومما شددت عليه اللجنة بتقريرها وجوب قيام سلطات الانتداب بالتزاماتها نحو غير اليهود من سكان فلسطين • وقد كان هذا التقرير شديد الوطئة على الصهيونيين لانهم كانوا يعتبرون ان الغاية من الانتداب هى تنفيذ التزامات الانتداب نحو اليهود ، ولهذا يجب تنفيذ تلك الالتزامات على حساب الطوائف الاخرى • كذلك انتقد التقرير بشدة مؤيدى الصهيونية فى بريطانيا • ولدى اصرار سلطات الانتداب على تنفيذ السياسة التى اوصى بها التقرير ، استقال الدكتور وايزمان من رئاسة المنظمة الصهيونية التى اتخذت لنفسها اسم « الوكالة اليهودية »[1] فى عام ١٩٣٠ ، تلك التسمية التى وردت فى صك الانتداب • وبلغ سخط اليهود ومؤيديهم فى بريطانيا حدا اضطر رئيس الوزارة ان يبعث برسالة شخصية الى الدكتور وايزمان ينكر فيه وجود أى قصد للنكول عن

---

(١) Jewish Agency.

الوعود التى قطعت لليهود[1] .

ومع ان الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٠ لم يرض اليهود ، وأثار حفيضتهم ، فان الحكومة البريطانية اتخذت منه وسيلة للتخفيف من حدة مطاليب العرب المستندة الى ما هو وارد فى صك الانتداب بشأن اقامة مؤسسات مستقلة ذاتيا تدار من قبل العرب وحدهم . لقد رفض العرب فى عام ١٩٢٣ مشروع اقامة مجلس تشريعى لاعتقادهم بان قبولهم المشروع اعتراف بالانتداب . فلما اصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ ، ادرك العرب انهم لا يستطيعون الحصول على أكثر مما جاء فى توصيات الكتاب المذكور ، « فليس ثمة فائدة من الاصرار على مطاليب العرب الاولى القاضية بمنح البلاد دستورا . لان ذلك يزيد فى المصاعب التى تجابهها الحكومة البريطانية عند قيامها بتعهداتها لكلى الطرفين ... اليهود من جهة والسكان الاخرون من جهة » . غير ان العرب كانوا يعتبرون احداث حكومة عربية مستقلة من الامور التى يتوقف عليها كيانهم . ومن العوامل التى كانت تدفعهم الى الالحاح بمطاليبهم تلك ، انهم الفوا نوعا من الحكم الذاتى فى العهد العثمانى ، وان العراق على وشك حصوله على استقلاله ، كما ان ثمة دولتين عربيتين أقل من فلسطين تقدما تتمتعان بالاستقلال التام ــ المملكة العربية واليمن . ومع كل ما بلغه الفلسطينيون من تقدم فانهم حرموا من ممارسة السلطة السياسية ، لمجرد تخوف السلطة المنتدبة من ان ذلك

---

(١) على أثر توصيات لجنتى شو وسيمون ازداد سخط اليهود واستقال وايزمان من رئاسة المنظمة الصهيونية واخذ انصار اليهود فى بريطانيا يشددون الضغط على الحكومة البريطانية حتى اضطر رئيس الوزارة يوم ذاك رامسى مكدونلد الى التصريح بان الحكومة البريطانية مستعدة لتفسر الكتاب الابيض الذى اصدرته فى تشرين الثانى فى عام ١٩٣٠ تفسيرا يلائم مصالح الصهيونية . (المعرب) .

يحول دون استمرار الهجرة اليهودية • وكانت السلطة الادارية عاجزة عن تحديد الهجرة ، بدليل ان آلافا من اليهود دخلوا البلاد خلسة وبدون اجازة • وهذا ما ينم عن أحد أمرين : اما ان السلطات كانت تشجع تلك الهجرة غير المجازة أو انها كانت عاجزة عن فرض سيطرتها على اليهود •

وقد عزت اللجنة الملكية التى الفت عام ١٩٣٦ ، ثورة العرب عام ١٩٣٣ الى سببين رئيسيين : حرمانهم من الاستقلال ، واستيائهم من موقف الحكومة بالنسبة للهجرة اليهودية • اما اليهود فقد ادعوا بانه لا يوجد فى صك الانتداب ما يمنعهم من ان يصبحوا أكثرية فى فلسطين ، مستشهدين على دعواهم هذه بما أورده لويد جورج فى مذكراته : « ومما كان يدور فى خلد الوزارة يوم ذاك انه يجب الا تقام حكومة يهودية فور عقد معاهدة الصلح ، دون الرجوع الى رغبة أكثرية السكان • وبالوقت ذاته كان أعضاء الوزارة مجمعين على انه اذا ما حان الوقت لتأليف مثل تلك الحكومة ، سيما اذا استجاب اليهود الى الظروف المهيئة لهم ، فأصبحوا أكثرية بينة بالنسبة لسكان البلاد ، عندئذ تصبح فلسطين دولة يهودية » • ولا شك ان مثل هذه الاقوال زادت فى مخاوف العرب من ان الانتداب يقف حجرا مانعا دون حصولهم على حقهم فى الحكم الذاتى ، حتى يصبح اليهود أكثرية تستطيع فرض ارادتها على العرب • ولماذا نلوم اليهود اذا ما اعتبروا سياسة مشروعة ، تلك التى يعدها العرب شرا على كيانهم ، واليهود يلاقون ذلك التشجيع من سياسيين أمثال لويد جورج •

ونظرة الى موقف الحكومة البريطانية أزاء المعضلة الفلسطينية يوم ذلك ، تجعلنا نشك فيما كان يدور فى مخيلة اليهود عن ان الحكومة البريطانية كانت تقوم بصورة تدريجية ، وبأساليب احتيالية ، بما يجب ان تقوم به فورا

وبكيفية علنية . غير عالمين بان البعض من الساسة البريطانيين كانوا فى شك من رغبة اليهود للعودة الى فلسطين ، كما كانوا غير واثقين بأن القابلية الاستيعابية للبلاد تتسع لاكثر من عدد صغير من المهاجرين . والحقيقة ان غالبية الساسة البريطانيين كانوا يعتقدون بان ابلاغ عدد اليهود النازحين الى فلسطين ، الى نسبة السكان العرب يتطلب سنوات عديدة يمكن خلالها التغلب على كفاح العرب فتضيق الشقة بينهم وبين اليهود ويستسلمون الى الامر الواقع نتيجة حرصهم على منافعهم المادية ، فيصبح من السهل ايجاد دولة عربية يهودية . وهذا الاعتقاد هو الذى حدى بالحكومة البريطانية عند وضع صيغة وعد بلفور الى رفض الاعتراف باعتبار فلسطين وطنا قوميا لليهود ، والى اصرارها على الصيغة التالية : « اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين » . وقد أسس الانتداب لتحقيق مدلول هذه الصيغة .

والواضح ان العرب لم يخبروا بانهم سيصبحون أقلية فى فلسطين يوما من الايام . ولذا كانت ثمة آمال باصلاح الوضع فى فلسطين . ولكن تلك الآمال تلاشت وتبددت بعد تولى هتلر الحكم فى المانيا . ومع ان الحكم النازى بدأ عام ١٩٣٣ ، فان اليهود أخذوا يهاجرون من المانيا الى فلسطين منذ عام ١٩٢٠ ، وقد تضاعفت تلك الهجرة بعد اعلان سياسة التفريق العنصرى فى المانيا . ففى عام ١٩٣٣ وصل الى فلسطين ثلاثون الف مهاجر ، وفى عام ١٩٣٤ سمح بادخال اثنين واربعين الف مهاجر ، وفى عام ١٩٣٥ ستين الف مهاجر . ومع ان عدد المهاجرين حتى عام ١٩٣٥ لم يتجاوز قابلية البلاد الاقتصادية لاستيعاب النازحين اليها ، الا ان مخاوف العرب دفعتهم الى حساب عدد السنوات التى تتطلبها سرعة تزايد الشعبين زيادة طبيعية . وقد قامت بمثل هذا العمل اللجنة الملكية عام ١٩٣٦ ، وعلى ضوء ذلك الحساب امكن

تعيين عدد المهاجرين اللازم ادخالهم الى البلاد لتكون نسبة اليهود معادلة الى نسبة سكان البلاد الآخرين • ولقد وجدت اللجنة الملكية التي باشرت عملها عام ١٩٣٧ ، ان نسبتي اليهود والعرب تتعادل بعد عام ١٩٦٠ اذا ما حددت الهجرة بثلاثين الف مهاجر في العام ، أو انها ستتعادل في عام ١٩٤٧ ، اذا ما سمح بهجرة ستين الف مهاجر في العام • واذا ما اعترفنا بأن اليهود استوطنوا مناطق غير مأهولة وانشؤوا حقولهم ومزارعهم في مناطق غير صالحة للزراعة ، وان العرب القاطنين بجوار القرى اليهودية استفادوا بعض الفائدة منها ، وان الخدمات العامة التي قامت بها الدولة أمكن تحقيقها بفضل الضرائب التي تجبى من السكان ، ونسبة ما يجبى من اليهود أكثر من نسبة ما يجبى من العرب ، وان العرب استفادوا من تلك الخدمات أكثر من غيرهم ، فليس معنى هذا ان العرب يجب ان يخضعوا لغيرهم وان يرضوا بنصيبهم • « فليس بالخبز وحده يحيي الانسان » • والغريب ان اليهود الذين نقلت هذه العبارة من توراتهم والذين اندفعوا لتشجيع الصهيونية تشجيعا جنونيا ، لم يدركوا ان المغانم الاقتصادية وحدها لا يمكن ان تطفيء رغبة العرب بالاستقلال وبالحكم الذاتي •

وقامت الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٥ بمحاولة ثانية لاقامة مجلس تشريعي وكان نصيب هذه المحاولة الفشل أيضا نتيجة مقاومة اليهود للمشروع • يضاف الى ذلك ان الفكرة لاقت مقاومة عنيفة في البرلمان الانكليزي ، بعضها بني على الزعم القائل بان البلاد غير مهيئة للحكم الذاتي ، وبعضها الاخر على الزعم بان اقامة مجلس تشريعي يعيق تأسيس الوطن القومي اليهودي • وفشل تلك المحاولة زاد في اعتقاد العرب بأن قضيتهم لم تلق أذنا منصفة ؛ سيما وان اثنين من معارضي المشروع في مجلس العموم ،

واثنين آخرين فى مجلس اللوردات كانوا أنفسهم يهودا • وتكررت الاضطرابات في عام ١٩٣٦ • وكان يشجعها المتطرفون من القوميين المصريين والعراقيين وبلغت تلك الاضطرابات من العنف حدا اضطر سلطة الانتداب الى استقدام مفارز من جيوش بريطانية مرابطة فى أقطار مجاورة • ولم تخمد الا بعد ان ارسل ملوك بعض الاقطار العربية ـ العراق والاردن والمملكة العربية السعودية ، نداء يطلبون من عرب فلسطين الاخلاد للسكينة حقنا للدماء • وكان لذلك النداء بالاشتراك مع التدابير العسكرية فعلا ايجابيا أعاد الى البلاد النظام والاستقرار • وقد أظهر اليهود طوال فترة الاضطرابات هدوءا عجيبا وضبطا لاعصابهم • ومع ذلك يجب ان لا ننسى « بان الصراع كان قائما بين قوميتين واحدة تساندها جميع القوى من أجل تحقيق أغراضها ، وأخرى فى طريق الاندحار » •

وبعد ان هدئت البلاد ، اصبحت الظروف ملائمة لقدوم اللجنة الملكية السابقة الذكر اليها • وكان الغرض من تعيين تلك اللجنة تحديد أسباب الاضطرابات أو دراسة الطرق التى اتبعها الانتداب فى تحقيق الرسالة التى عهدت اليه ، ومعرفة مدى ما أصاب العرب أو اليهود من حيف من جراء اتباع تلك السياسة ، وما هى التوصيات العملية لازالة ذلك الحيف ولعدم تكراره • ومن بين جميع اللجان التى عينت لدراسة المعضلة الفلسطينية تعد لجنة بيل ـ كما سميت باسم رئيسها ـ أكثر اللجان توفرا على دراسة المهمة التى اسندت اليها • وان التقرير الذى قدمته يعد أكمل تقرير قدم حول الموضوع • ومع ان العرب لم يرضوا عن عملها ، لانها اعتبرت صك الانتداب وتصريح بلفور من الامور المسلم بها ، وحاولوا مقاطعتها ولم يوافقوا على عرض مطاليبهم عليها الا قبيل رحيلها من البلاد ، فان لجنة بيل انصفت

العرب واستمعت لشكواهم بصدر رحب •

وقدمت اللجنة تقريرها فى عام ١٩٣٧ • ومما توصلت اليه ان الاسباب الحقيقية للثورة الاخيرة هى الاسباب ذاتها التى أدت الى الثورات السابقة • وتتلخص تلك الاسباب ما يأتى :

(١) رغبة العرب بالاستقلال • (٢) تخوفهم من تأسيس الوطن القومى اليهودى والقضاء عليهم • وثمة عوامل ثانوية أثارت العرب ودفعتهم الى الثورة وهى تقدم الاقطار العربية المجاورة ، وبلوغها مرحلة الاستقلال الذاتى ، وهرب اليهود من اوربا ولجؤهم الى فلسطين • واعتقاد العرب بأن اليهود يستطيعون بأى وقت يشاؤون التأثير على الحكومة البريطانية ، بينما يعجز العرب عن ذلك ، وعدم ثقة العرب بالانكليز لتكرر نكوثهم بما أعطوه اليهم من وعود خلال الحرب، وخوفهم من توسع اليهود فى شراء الاراضى وانتقالها من ايدى العرب الى ايديهم ، وعنف الدعاية اليهودية ، وأخيرا تخوف العرب من نوايا الانتداب • وانتقدت اللجنة سلطات الادارة فى فلسطين لتفاؤلها من وضع البلاد مما جعلها توحى بنقل الجنود من فلسطين خلال الفترة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٨ • فكان من نتائج ذلك ان عجزت عن ضمان سلامة اليهود ووقايتهم من الاعتداءات العربية أو عن قمع أى اضطراب ربما يحدث فى البلاد بحزم وصراحة • ومع ذلك فانها لم تشارك اليهود فى زعمهم بان ثورة العرب تعزى الى ضعف الحكومة الفلسطينية •

وقامت اللجنة بدراسة الهجرة غير المشروعة دراسة مستفيضة فتوصلت الى ان عدد اليهود الذين ادخلوا الى البلاد خلسة خلال عام ١٩٣٢ — ١٩٣٣ زاد على اثنين وعشرين الف مهاجر • كما وجدت اللجنة انه لا يمكن تحديد عدد العرب الذين دخلوا خلسة الى البلاد ، ذلكم لان الهجرة العربية موسمية

والذين يستقرون منهم فى البلاد لا يؤثرون على اوضاعها الاقتصادية • وأخيرا توصلت اللجنة الى ان قاعدة قابلية الاستيعاب الاقتصادي أهملت عوامل لن يهملها أي سياسي مدرك لحقيقة الظروف المحيطة بالبلاد • فليس من الصواب ان توضع قاعدة للهجرة اليهودية ما لم تراع العوامل النفسية والعوامل السياسية التى تتأثر بها حياة سكان البلاد • ولهذا اوصت اللجنة ان يوضع حد للهجرة اليهودية ، والا يزيد عدد المهاجرين خلال السنوات الخمسة التالية عن اثنى عشر الف مهاجر فى العام مع مراعاة قابلية الاستيعاب الاقتصادى للبلاد • وطلبت اللجنة فى حالة رفض توصياتها العامة ان يؤخذ بتوصياتها الخاصة ان أريد للبلاد استقرار وسلام) •

وقد انتقدت اللجنة انتقادا شديدا الرأى القائل بان العرب سيكيفون انفسهم تكيفا تدريجيا حسب مقتضيات سياسة انشاء الوطن القومى اليهودى ، نتيجة للرخاء المادى الذى سيحل بالبلاد من أثر الهجرة اليهودية • فثمة مجتمعان مختلفا القومية ـ فى صراع عنيف ـ مليون عربى يقاوم اربعمائة الف يهودى ؟ واذا ما استطاعت الحكومة البريطانية التخفيف من حدة ذلك الصراع نتيجة ما تتخذه من تدابير وقتية ، فذلك لا يعني انها توصلت لايجاد حل للخلاف القائم بين المجتمعين • واذا ما كان تحويل فلسطين الى مستعمرة تحت التاج البريطانى ملائم لكلى المجتمعين ، فان اقامة حكومة مستقلة فى البلاد أمر متعذر لان ذلك لايوفر للبلاد نظاما يقيم العدل بين الفريقين المتنازعين، ولا يرضيهما فلا يمكن ان يسود البلاد سلام ونظام وحكم عادل الا باتباع الضغط والشدة ، وهذا ما لا يرضى الحكومة البريطانية ولا يؤدى بالبلاد الى النهاية المرجوة • وبالوقت ذاته تقضى مصلحة بريطانيا ان تحتفظ بصداقة العرب واليهود معا • ولذا فليس من اليسير عليها ان تعطى ايا منها جميع

ما يطمح اليه • وبحسب ما ذهبت اليه اللجنة ، ليس من الصواب ان يسلم مصير اربعمائة الف يهودى الى العرب ، أكثر اولئك اليهـود دخلوا البلاد بمساعدة الحكومة البريطانية وبموافقة عصبة الامم • وبالوقت ذاته ليس من الصواب ان تسلم مقدرات مليون عربى الى اليهود ، وخاصة بعد ان يصبح اليهود أكثرية فى البلاد • ومراعاة لمثل هذه الظروف رأت اللجنة انه لا حل لهذه المعضلة الا بتقسيم البلاد الى قسمين قسم يهودى وآخر عربى •

وبحسب مشروع التقسيم المقترح ، تؤسس دولة يهودية تضم القسم الساحل الممتد حتى نقطة تقع الى الشمال عند منتصف المسافة بين غزة ويافا ، وتمتد حتى لبنان من ناحية وحتى بحيرة طبرية من ناحية أخـرى • اما الاماكن المقدسة وتوابعها فتبقى تحت الانتداب ، ويشمل هذا القطاع القدس وبيت لحم والناصرة وجزء من ساحل بحيرة طبريا • وتترك الاجزاء الباقية من فلسطين الى العرب لتنظم الى شرق الاردن فى دولة واحدة • واشترط ان تتخذ التدابير لتسهيـل مرور البضائع العائدة لاحدى هـذه الدول من أراضى الدولة الاخرى ، كما يجب على الدولة اليهودية ان تساهم فى انعاش الوضع الاقتصادى للدولة العربية ، وأخيرا تحول المنحة البريطانية التى تدفع سنويا الى شرق الاردن الى الدولة العربية الجديدة •

وأدى نشر تقرير اللجنة الملكية الى انتشار الاضطرابات وفى زيادة حدتها ، وقد بدأت الاضطرابات عند قدوم اللجنة الملكية الى البلاد ، الامر الذى اضطر السلطة الادارية الى اتخاذ تدابير صارمة للقضاء عليها • ومن تلك التدابير الغاء اللجنة العربية العليا واللجنة القومية واعتبارهما منظمتين غير قانونيتين ، كما نفت سكرتير اللجنة العربية العليا ، وثلاثة من اعضائها الى سيشل • اما مفتى القدس وهو محور المقاومة العربية ، والذى سبق ان عزل من وظيفته

رئيسا للمجلس الاسلامى الاعلى ، فقد فر الى لبنان • (التجأ خلال الحرب العالمية الثانية الى بغداد ومنها الى ايران بعد ان فشلت حركة مقاومة الحلفاء التى سعى لاثارتها فى العراق ، ثم فر الى المانيا وأخيرا انضم الى حركة مقاومة اليهود وساهم فى تجنيد مسلمى البوسنة لمحاربة الحلفاء) •

وفى هذه الفترة بدأت لجنة التقسيم عملها دون ان يتعاون العرب معها • لقد كان مشروع التقسيم المقدم عام ١٩٣٦ بشكل ابتدائى ولهذا وجد انه لا محيص من تحويره وتكييفه بحيث يتمشى مع بعض الاعتبارات السياسية • غير ان الشروط التى فرض على اللجنة اتباعها عند بحث قضايا الدفاع والاكتفاء الذاتى والمالية لكل من الدولتين، كانت من الشدة بحيث جعلت مشروع التقسيم من الامور المتعذر تحقيقها ، ويلقى النقاد تبعة ذلك على الحكومة البريطانية • ان التقسيم لا يمكن تحقيقه ما لم يفرض على العرب قسرا ، بينما كانت الحكومة البريطانية تنهج معهم سياسة اللين وتتبع أساليب الاقناع والاغراء • واستعمال مثل هذه السياسة معناه محاولة لتهدئة الخواطر ـ أى اما اقناع اليهود للتضحية من أجل تحقيق السياسة البريطانية أو التردد فى الدخول بنزاع مع العالم العربى فى ظروف حرجة من أجل تحقيق أغراض غير واضحة جاءت فى تصريح بلفور فى صك الانتداب •

ومهما كان الغرض من تحديد الشروط التى فرضت على مشروع التقسيم ، فان اللجنة التى كلفت بوضع أصول المشروع قدمت تقريرا نصت فيه على تعذر تعيين الحدود اللازمة لكلى الدولتين بحيث تجعل من كل واحدة منها وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا • وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة البريطانية ان المشاكل الادارية والسياسية والمالية تحول دون تحقيق التقسيم ، ولهذا قررت ان تحاول محاولة حاسمة لان تقرب بين وجهات نظر العرب

واليهود • وتحقيقا لمحاولتها هذه ستدعو لعقد مؤتمر فى لندن يحضره ممثلون عن عرب فلسطين وآخرون عن الاقطار العربية المجاورة كما يحضره ممثلون عن الوكالة اليهودية •

وسمح لعرب فلسطين باختيار ممثليهم على الا يكون المفتى من بينهم ، لان الحكومة البريطانية ترفض قبوله فى بلادها • غير ان العرب رفضوا ان يجلسوا مع اليهود فى اجتماع واحد ، وهذا ما حدى بممثلى الحكومة البريطانية ان يتفاوضوا مع كل من الوفدين على انفراد • وفى هذا المؤتمر وجد العرب لاول مرة آذانا صاغية لسماع قضيتهم • وترجمت رسائل مكماهون ونشرت فأبدى ممثلوا الحكومة البريطانية أسفهم لما وقع من سوء فهم من جراء احدى العبارات الواردة فيها • كما اعترفوا بوجهة نظر العرب ، بما يخص حدود الاقطار التى وعدت بالاستقلال والتى تشمل أقل مما يجب ان تكون • ومع ذلك فان الممثلين البريطانيين أصروا على الرأى القائل بان جميع فلسطين غرب نهر الاردن مستثناة من تلك المساحة •

وأعلنت الحكومة البريطانية انها تتفق اتفاقا تاما مع توصيات اللجنة ، واقترحت ان تحدد الهجرة اليهودية بثمانية آلاف مهاجر خلال الاشهر الثمانية التالية ، كما انها اوصت بمنع انتقال الارض من العرب الى اليهود انتقالا يؤثر فى مشروع التقسيم اثناء تطبيقه • واوضحت الحكومة البريطانية بان مشروع التقسيم يعود بالخير على كل من الطرفين فلا يبقى مجال لخوف العرب من تحول جميع فلسطين الى دولة يهودية ، ويصبح اليهود يسيطرون على جزء محدود من البلاد ، لهم ان يدخلوا اليه العدد الذى يريدون ادخاله من المهاجرين اليهود كما ان لهم ان يؤسسوا فى هذه الجزء الوطن القومى

اليهودى بالكيفية التى يتخيلونها ٠

وبعد ان اقترن التقرير بموافقة البرلمان ولجنة الانتداب التابعة لعصبة الامم ، قررت الحكومة البريطانية تعيين لجنة أخرى تقوم بدراسة المشروع وتقديم اقتراحاتها العملية بصدده ٠ هذا وقد اثار مشروع التقسيم جدلا عنيفا بين الأوساط اليهودية والعربية ٠ فعند بحث المشروع فى المؤتمر الصهيونى انقسم الاعضاء على أنفسهم وجاء قراره مرتبكا ٠ ففى الوقت الذى ينتقد قرار المؤتمر بشدة توصيات لجنة التقسيم ، باعتبارها نكوصا عن التعهدات التى قطعت لليهود ، ولهذا يرفض المؤتمر مشروع التقسيم ، فانه خول اللجنة التنفيذية للمؤتمر « ان تتثبت من الشروط الحقيقية التى تشترطها الحكومة البريطانية لاجل تأسيس الوطن اليهودى » ٠

ورفض عرب فلسطين مشروع التقسيم حال صدور قرار اللجنة ، وأيدهم فى الرفض جميع الاقطار العربية ٠ ولنا ان نتساءل هل كان العرب محقين بهذا الرفض ؟ ٠ ان اليهود كما يعتقد الدكتور وايزمان يوافقون على مشروع شبيه بمشروع التقسيم ٠ والواقع انه لما انتهى الانتداب ، وانسحبت بريطانيا من البلاد ، استطاع اليهود ان يشغلوا جزءا أكثر سعة من الجزء الذى حددته لجنة التقسيم لهم ٠ ولهذا يتسائل الكثيرون هل أصاب العرب برفضهم المشروع بدلا من اتخاذه أساسا للمفاوضة وللمطالبة بأمور أخرى ؟ والجواب على ذلك ان تسليم البلاد نتيجة اندحار فى حرب أمر ، وتسليمها بدون حرب وبمحض اختيار أمر آخر ٠

وكانت فى فلسطين فئة من العرب تنظر الى المستقبل نظرات بعيدة ٠ فكانت لا تحجم عن الاعلان بدوائرها الخاصة أنه لا مفر من التفاهم مع عصبة الامم ، ومع اليهودية العالمية ، من أجل ايجاد حل وسط للمعضلة التى

يعانى العرب منها • وان تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية هو الحل المرضى • ولكن هذه الفئة وان دفعتها شجاعتها الى الاعلان عن رأيها هذا ، فانها لن تجد من يناصرها من بين جمهرة العرب فى فلسطين أم فى غيرها من الاقطار العربية • وربما كان مصير تلك الفئة ان اعلنت عن ميولها الابادة والهلاك • وكان العرب يبنون اصرارهم على مطاليبهم الاولى تخوفهم من ان اليهود اذا ما سمح لهم بجزء صغير من فلسطين فسيتخذون منه قاعدة للتوسع وللاستيلاء على الاجزاء الباقية • وللعرب الحق اذا ما بالغوا فى تخوفهم من اطماع اليهود • فمما يجب الا ينسى ان اليهود عندما كانوا يناقشون الدكتور وايزمان فيما يخص حدود الدولة اليهودية المزعومة ، وانها كما اقترحتها لجنة التقسيم لا تضم هذا الجزء أو ذاك ، كان جواب وايزمان لهم « ان هذه الاجزاء لن تطير » • كذلك كان العرب يعتقدون بان الحكومة البريطانية وعصبة الامم عاجزة عن صد جماح اليهود من أجل التوسع •

ولما لم يوافق العرب واليهود على المقترحات المقدمة اليهم اضطرت الحكومة البريطانية لان تختط لنفسها السياسة التى رأتها واجبة الاتباع • وضمنت تلك السياسة فى الكتاب الابيض الذى أصدرته عام ١٩٣٩ ، والذى اعترفت فيه بأن غموض بعض التعابير الخاصة الواردة فى صك الانتداب مثل « الوطن القومى للشعب اليهودى » كانت السبب الرئيسى للعداء المتحكم بين العرب واليهود ، وان وضع سياسة بينة المعالم واضحة الاهداف من الامور اللازمة لحل القضية الفلسطينية • وكم كان جديرا ان يتخذ مثل هذا القرار قبل عشرين عاما عند بدء الانتداب ؟ •

وقد ذهبت الحكومة البريطانية الى ما ذهبت اليه اللجنة الملكية بأن واضعى صك الانتداب لم يهدفوا تحويل فلسطين الى دولة يهودية ، خلاف

رغبة العرب من سكانها • ولهذا أعلنت بدون مواربة انه ليس من سياسة الحكومة البريطانية ان تحول فلسطين الى دولة يهودية وان تعهد بريطانيا باقامة الوطن القومى اليهودى قد انجز بعد ان ادخل الى البلاد نيف وثلثمائة الف يهودى منذ عام ١٩٢٢ حتى تاريخ صدور الكتاب الابيض • وبهذا اصبحت نسبة اليهود من سكان البلاد أكثر من ثلث مجموع سكان البلاد •

وتنفيذا لمهمة « تهيئة البلاد للحكم الذاتى » عرضت الحكومة البريطانية على العرب واليهود مشروع تأسيس دولة فلسطينية مستقلة خلال فتـــرة لا تزيد على عشر سنوات ، ترتبط هذه الدولة مع بريطانيا بمعاهدة تؤمن المصالح التجارية والدفاعية لكلى الدولتين • وفى خلال فترة الانتقال هذه ، ستحول جميع الدوائر الحكومية تحولا تدريجيا الى دوائر فلسطينية يديرها مدراء فلسطينيون ويساعدهم فى أعمالهم مستشارون بريطانيون • ويؤلف اولئك المدراء مجلس تنفيذى يتحول فى الوقت المناسب الى مجلس للوزراء • اما بالنسبة الى الهجرة فان الحكومة البريطانية لا تستطيع ان توافق على جعل القابلية الاقتصادية للاستيعاب أساسا لقبولها • كما انها لم تؤيد العرب بطلبهم ايقاف الهجرة فورا وانما اقترحت ادخال خمسة وسبعين الف مهاجر جديد خلال السنوات الخمس القادمة ، وعندئذ تمنع الهجرة ما لم يوافق العرب على السماح بها • اما ما يخص تزايد السكان العرب وانتقال الاراضى من ايدى العرب الى اليهود فقد قررت الحكومة البريطانية الاستمرار على تنفيذ القانون السابق بشأنها والذى اعطى الحاكم العام صلاحية تنظيمها • وقد منع القانون المذكور انتقال الاملاك العربية الى اليهود فى منطقة من البلاد وترك ذلك حرا فى منطقة أخرى واخضعها لموافقة الحاكم العام فى الأجزاء الباقية من البلاد •

واذا ما فشل الكتاب الابيض في كسب رضاء العرب بما يخص اقامة الحكم الذاتي في البلاد ، فانه أثار غضب اليهود ونقمتهم في وقت كان الضغط شديدا على يهود المانيا واقطار اوربا الوسطى ، لما اقترحته الحكومة البريطانية بشأن تحديد الهجرة والسماح بادخال خمس وسبعين الف مهاجر فقط بدلا من السماح بادخال جميع اليهود الذين يرغبون بالهجرة الى فلسطين • ومعنى هذا الاقتراح ابقاء اليهود دائما اقلية في فلسطين ، وذلك كما يزعمون يتنافى والوعود التي قطعت بعدم اخضاع أية طائفة الى الاخرى • وقد لاقى الكتاب الابيض مقاومة عنيفة في البرلمان الانكليزي ؛ كما أعلنت لجنة الانتداب في عصبة الامم بان الكتاب الابيض يفسر الانتداب تفسيرا جديدا • ولذا فانها قررت ، بأربعة أصوات ضد ثلاثة ، ان الانتداب لا يمكن ان يفسر التفسير الذي ذهب اليه الكتاب الابيض • وقبل ان يتخذ مجلس العصبة قرارا بشأن الموضوع أعلنت الحرب العالمية الثانية ووضع الكتاب الابيض على الرف •

- ٤ -

في عام ١٩٢١ توجه الامير فيصل الى العراق ، ورشح لعرش العراق بتأييد من قبل الحكومة البريطانية التي أعلنت انها تعتبره أكثر المرشحين لعرش العراق صلاحا ، وبمساندة العراقيين ممن ساهموا معه في تشكيل الحكومة السورية ، والذين استلموا ادارة البلاد بعد الغزو الفرنسي لسوريا وعودتهم الى العراق • ونجد أقوى مبررات اختياره لهذا المنصب فيما ساد البلاد من استقرار وهدوء بعد اعتلائه عرش البلاد • فانه حاز على رضاء أكثر سكان البلاد حتى اولئك الذين ناوؤه في أول الامر ، وقابلوا ترشيحه للعرش ببرود • واشترط مجلس الدولة ان تكون الحكومة الجديدة

دستورية انتخابية ديمقراطية يقيد سلطتها ما اختطته البلاد لها من دستور • وقد سارت بيعة الشعب لفيصل سيرا حسنا فى جميع مراحل القطر باستثناء المناطق الكردية •

ومع ان « الانتداب » كان يستهدف الوصاية الوقتية ، الا ان العراقيين كانوا يفسرون الانتداب بانه نوع من الاستعمار أو التابعية ، أو انه صنف من اصناف الحماية البعيدة عن الآمال التى كان العرب ينشدونها عندما قاموا بثورتهم خلال الحرب • وللتغلب على هذه المشكلة تقرر ان تنظم الحكومة البريطانية علاقاتها مع العراق على أساس معاهدة تمكن الدولتين من التحرر من الالتزامات التى فرضها عليها صك الانتداب • فبحسب المعاهدة البريطانية التى عقدت فى شهر تشـــرين الاول من عام ١٩٢٢ ، تعهدت الحكـــومة البريطانية بأستخدام نفوذها لضمان دخول العراق الى عصبة الامم فى اول فرصة ممكنة • وبعد عام من عقد تلك المعاهدة وقع كل من بريطانيا والعراق على بروتوكول جاء فيه انـــه اذا مـــا اصبح العراق عضوا فى العصبـــة تلغى المعاهدة • وبقيت المعاهدة بصيغتها الراهنة حتى عام ١٩٢٥ ، عندما اوصى مجلس العصبـــة نتيجة شكـــه فى كفائة العراق فى الحكم الذاتى ان يستمر الانتداب خمس وعشرين عاما آخر ، ما لم يقبل العراق خلال ذلك لعضوية العصبة ، عندئذ ينهى الانتداب • اما البروتوكولات الملحقـــة بالمعـــاهدة فقد ضمنت انتقال السكك الحديدية والميناء والاشغال العامـــة الى الحكومـــة العراقية • كذلك اقرت تأسيس نظام عدلى مستقل الى حد كبير ، يعتبر خطوة تقدمية بالنسبة الى الامتيازات الاجنبية ، كما أقرت استخدام المستشـــارين البريطانيين فى الحكومة العراقية •

وجابهت الحكومـــة العراقية الفتيـــة كثيرا من المشاكل ، بعضها يتعلق

بأسلوب الحكم وبعضه الاخر بأستتاب الامن والنظام ، وبعضها ذات طابع دولي وعلاقة بحدود البلاد الشمالية • ولم يكن بد من مجابهة المشاكل الاخيرة ، لانه كان متعذرا عقد صلح مع تركيا ما لم تستثن قضية الموصل من شروط معاهدة الصلح ، ريثما يوجد لها حل يرضى الجميع • وتطلب حل هذه العقدة وقتا طويلا دام عامين بعد التوقيع على معاهدة الصلح • فلم يكن من الهين على الاتراك وهم فى عز ثورتهم ، التنازل عن ولاية الموصل ، كما تنازلوا عن مطاليبهم فى الولايات العربية الاخرى المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية • وسبب ذلك كما كانوا يعتقدون ان ولاية الموصل تضم طائفة من السكان منحدرة من عترة تركية ، كما ان فيها عددا ليس بالقليل من الاكراد ، الذين لو تركوا خارج نطاق السيطرة التركية لصار لهم تأثير فى اثارة الاكرادالباقين بتركيا • سيما وان اكراد العراق استطاعوا خلال فترة الادارة البريطانية من الحصول على بعض الامتيازات التى كانوا محرومين منها فى العهد التركى • منها استعمالهم اللغة الكردية فى المدارس وفى المعاملات الرسمية ، وتأليف جيش من الاكراد بأمرة ضباط من جنسهم ، وممارسة بعض الصلاحيات المالية التى من شأنها ان تجعل المناطق الكردية مستقلة بعض الاستقلال • ولما وجدت بريطانيا نفسها عاجزة عن الاتفاق مع تركيا بشأن الموصل اضطرت الى عرض قضيتها على عصبة الامم • فوضع مجلس العصبة حدودا جديدة فاصلة بين العراق وتركيا بحيث ابقت للعراق جميع ولاية الموصل • فأغضب هذا التحديد تركيا ورفضته مولية وجهتها نحو روسيا ، التى كانت مستعدة لاغتنام الفرص عاقدة معاهدة عدم اعتداء بين البلدين • ومع هذا فأن المحادثات التى اجريت بين بريطانيا وتركيا والعراق ادت الى التوقيع فى عام ١٩٢٠ على معاهدة ، وافقت تركيا بحسبها

على الحدود المقررة من قبل العصبة شريطة أن تتسلم تركيا مقابل ذلك ولمدة خمس وعشرين عاما جزءا مما تتسلمه حكومة العراق من عوائد النفط المستخرج من ولاية الموصل •

ومما لا ريب فيه ان النفط احتل المحل الاعلى في المفاوضات التي جرت بشأن الموصل • ففي احدى المناسبات عرضت الحكومة التركية على المؤسسات المالية البريطانية ، بدافع التودد للحكومة البريطانية ، ليس فقط امتيازات المنطقة المختلف عليها فقط ، بل وحتى استغلال عدد من الموانى التركية ، ومد بضع آلاف اميال من الخطوطالحديدية داخل البلاد • وفي ظرف آخر ، ولكي تنال تأييد اميركا في مؤتمر لوزان ، عرضت الحكومة التركية على المؤسسات المالية الاميركية امتيازات اقتصادية واسعة ، تشمل حتى امتيازات استغلال حقوق النفط في ولاية الموصل • وقد استطاعت الحكومة البريطانية الحصول على امتياز نفط الموصل ، على اساس ان الشركات البريطانية لها الحق في امتياز نفط الموصل مستندة الى وعد تحريري وجهه الصدر الاعظم التركي الى شركة النفط التركية ، التي تتألف أسهمها من ٥٠ ٪ لشركة النفط الانكليزية الفارسية و ٢٥ ٪ لكل من شركة شل والشركات الالمانية • وبحسب الاتفاق الذي عقد في سان ريمو عام ١٩٢٠ ثم نقل اسهم الشركات الالمانية الى الشركات الفرنسية كما اشترط انتكون الشركة تحت السيطرة البريطانية الدائمة • غير ان حكومة الولايات المتحدة رفضت الاعتراف بمطاليب شركة النفط التركية ، ذلكم لان القرار السالف يخالف قاعدة تساوي الظروف لرعايا جميع الشعوب المسؤولة عن الاقطار الخاضة للانتداب • وتخفيفا لحدة المقاومة الاميركية نقلت نصف اسهم شركة النفط الانكليزية الفارسية ، ونصف اسهم شركة

النفط التركية ، التي سميت شركة نفط العراق ، الى الشركات الاميركية . واستطاعت الشركة الجديدة من الحصول على امتياز النفط من حكومة العراق . وبدء النفط يتدفق بكميات غزيرة في موقع بالقرب من كركوك منذ عام ١٩٢٧ . وفي عام ١٩٣٤ شرع بنقل النفط من حقول كركوك الى حيفا وطرابلس في انبوب ينقسم الى قسمين في موقع يقع على نهر الفرات .

ومع ان مجلس الدولة الذي ألف بعد صدور بيان القائد البريطاني العام في عام ١٩٢٠ كان يعد بمثابة نواة للحكومة العراقية المستقلة ؛ فأن القائد العام ظل رئيسا للحكومة . ولهذا سرعان ما استغل نفوذه عندما ظهر أن ثمة تلكؤ يبدو من العراقيين في قبول المعاهدة المراد عقدها مع العراق . وتم التوقيع على المعاهدة نتيجة ذلك الضغط ، غير ان المجلس المنتخب حديثا عدل بعض بنودها عندما عرضت عليه . وكان من نتيجة ذلك التعديل انانتهت مهمة القائد العام ، بوصفه رئيسا للسلطة التنفيذية ، وأصبح مستشارا لحكومة العراق . ومع ذلك فأنه ظل حتىعام ١٩٣٢ عندما انضم العراق الىعصبة الامم مسؤولا عن العراق ازاء العصبة . يضاف الىذلك ان كلمته ظلتالعليا فيبعض القضايا السياسية الخاصة ، وفيما عدا تلك القضايا فان مهمته اقتصرت على تقديم المشورة للحكومة ، وليس على الحكومة الاخذ بما يقترحه .

على ان التعهد الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها في عام ١٩٢٢ ، بشأن ترشيحها العراق لعضوية عصبة الامم ، لم يتحدد الا في عام ١٩٢٩ عندما وعدت بأنها ستقوم بتحقيق وعدها في عام ١٩٣٢ . واعقب ذلك الوعد عقد المعاهدة الانكليزية ـ العراقية في عام ١٩٣٠ . واشترطت فيها أن تظل المعاهدة نافذة المفعول مدة خمس وعشرين عاما من تاريخ دخول العراق عصبة الامم . وقد نصت المعاهدة على التعاون بين الطرفين

فى الشؤون الخارجية ، وفى تقديم المعاونات المتبادلة حالة نشوب حرب • وتتضمن المساعدات العراقية ابداء جميع التسهيلات اللازمة ، واستخدام ما فى البلاد من سكك حديدية ومطارات وغير هذه من المرافق العامة • وتأجير قواعد جوية الى بريطانيا العظمى مقابل ما ستقدمه هذه من مساعدات عسكرية الى العراق • كذلك اشترطت المعاهدة انه اذا ما احتاجت الحكومة العراقية الى الخدمات الاجنبية فان الرعايا البريطانيين هم المفضلون ، وان السفير البريطانى فى بغداد يتقدم جميع ممثلى الدول الاخرى فى الاحتفالات الرسمية •

وبعد مضى بضعة اشهر على عقد المعاهدة اشعرت الحكومة البريطانية عصبة الامم برغبتها لترشيح العراق لعضوية العصبة فى عام ١٩٣٢ بدون قيد أو شرط • وقابلت العصبة هذا الطلب بادىء الامر ببرود ، لانها كانت فى شك من مصير الاقليات فى العراق ، ومن درجة تقدم العراق اداريا واجتماعيا وسياسيا • ولو قدر الرفض لذلك العرض لاعتبر العراقيون بريطانيا ناكثة بوعدها ، ومسؤولة عن عدم دخولهم العصبة • ولهذا خولت الحكومة البريطانية المندوب السامى فى العراق اشعار لجنة الانتداب « اذا ما ثبت بان العراق غير جدير بالثقة التى أوليت اليه فان المسؤولية الادبية لذلك تقع على عاتق الحكومة البريطانية » • واخيرا وافق مجلس العصبة على قبول العراق الى عضوية العصبة على ان يتعهد بضمان حقوق الاقليات ، وبسلامة القضاء ، وبتنفيذ القانون الدولى ، وغير هذه من التحفظات • وقد وقع العراق على ذلك التعهد وقبل لعضوية العصبة فى تشرين الاول من عام ١٩٣٢ •

ولم تمض اعوام ثلاثة على التعهد الادبى الذى قدمته بريطانيا الى

العصبة نيابة عن العراق ، حتى بدر من العراق ما يناقض ذلك التعهد ، عندما سفك العراقيون دماء نيف وثلثمائة آثورى بينهم نســـاء واطفال • ومصدر هذا الحادث كره متبادل بين الآثوريين والعراقيين • فقــد رفض العراقيون قبول هذه الفئة من اللاجئين وهي تختلف عنهم عنصرا ودينا ولغة ؛ والتي نزحت الى العراق من موطنها الاصلي فى تركيا بقرار من عصبة الامم • ولا ريب ان معضلة اسكان الآثوريين فى العراق ، أو فى غيره من الاقطار المجاورة ، تعقدت كثيرا نتيجة ما اظهره الآثوريون من نزعة • فكـــانوا يحسبون انفسهم بحماية بريطانيا ، ولهذا لهم ان يقوموا بما يشاؤون • وبدأت مذبحة الآثوريين بعدما عاد بضع مئات من الآثوريين من سوريا ، وكانوا قد ارتحلوا عن العراق بدون اذن من السلطات العراقية • ومع ان الحكومة البريطانية كانت مسؤولة عنهم ، الا انها كانت عاجزة عن الوقوف بوجه الحكومة العراقية ، لكى لا تمنع الآثوريين من الدخول الى البلاد ثانية • الامر الذى جعلها فى وضع حرج بالنسبة للعراقيين والى الآثوريين • ولما عرضت قضية الآثوريين على العصبة اعتذر الممثل العراقى للشـــدة التى اتخذتها السلطات العراقية معهم ، وايد للعصبة بأن الحكومة العراقية على استعداد لمعاونة اولئك الآثوريين الذين يرغبون بترك العراق ليستقروا فى قطر آخر •

وكان اكراد العراق وهم الاقلية الكبرى فى المملكة يظهرون استيائهم لاغفال ذكر قضيتهم فى المعاهدة العراقية الانكليزية أو لعدم اعطاء أى تعهد بشأن مستقبلهم لعصبة الامم • سيما وان معاهدة سيفر كانت عاملا مشجعا لهم لطلب الوحدة مع اكراد تركيا وايران ، وللمطالبة بمنحهم حكما ذاتيا • ومما يجب الا يغرب عن بالنا ان اكراد العراق لم يكونوا يرغبون أن يخضعوا

لحكومة العراق • وقد عرقلت الثورات العديدة التى قام بها بعض الفئات من الاكراد الجهود التى كان المندوب السامى يبذلها لاقناع حكومة العراق لمنح المنطقة الكردية نظاما خاصا • وكانت تلك الثورات تنم عن مطامع شخصية وليست ناجمة عن تذمر عام من نظام الحكم •

ولم تسر العلاقات البريطانية العراقية السير الحسن الذى كان متوقعا ، بعد أن تمتع العراق باستقلاله • وقد يقول المتطرفون ان السبب فى ذلك القيود التى فرضت على العراق والتى اعاقته عن ممارسته الاستقلال التام • غير ان المشكلة ابسط من ذلك كثيرا • فان الملك فيصل وان كان كثيرا ما يشجع العناصر المتطرفة فى شعبه ، كان يعطى أهمية كبيرة لتوطيد العلاقات البريطانية العراقية • ومن سوء الحظ ان الاجل عاجله عام ١٩٣٣ ، فاعتلى العرش بعده ولده الملك غازى وظل فى الحكم ستة اعوام • وكان هذا الملك فى عنفوان شبابه يفيض وطنية وروحا عسكرية •

وحدث فى عام ١٩٣٦ انقلاب عسكرى ، تألفت على اثره حكومة عسكرية ، ظلت فى الحكم عاما واحدا • ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٩٤١ كان الطابع العسكرى يغلب على جميع الحكومات التى الفت خلال تلك الفترة • وهذا ما شجع انتشار الروح الاعتدائية فى العراق ، حتى ان الحكومة العراقية لم تتردد فى المطالبة بالكويت على أساس ان هذا الميناء كان فى العهد العثمانى قضاء تابعا الى ولاية البصرة • كذلك اخذت النازية تثبت اقدامها فى البلاد ، فلم يتورع الالمان عن استغلال الروح الوطنية من اجل تحقيق اغراضهم • ولم يكن الوزير المفوض الالمانى فى بغداد بحاجة الى قوى خارقة لاكتشاف الممالئين للحركة النازية ، الذين كانوا يعتقدون بأن انسلاخ بلادهم عن تركيا كان نتيجة للثورة العربية ، وان ما حازت عليه من حكم

ذاتي كان نتيجة ثورة عام ١٩٢٠ • ومما زاد في اندفاع هـذه الفئة من الشباب نحو النازية استيائهم من وضع البلاد وتباطؤ تطورها المتوقع • وكان الوزير المفوض الالماني يستغل كره العرب للصهيونية في نشر دعاياته ضد اعدائه • والعراقيون شأن ابناء العربية الآخرين يناهضون هجرة اليهـود الى فلسطين ، ويعتقدون بأن فتح باب الهجرة مخالف للوعود التي قطعت الى العرب خلال الحرب • وكان من اثر هذه العوامل كلها انه ما حلت سنة ١٩٣٩ حتى اصبح الجو السياسي في البلاد غير ملائم للتعاون زمن الحرب كما تفرضه معاهدة سنة ١٩٣٠ •

- ٥ -

وما دام فيصل على عرش سوريا ، فان شرق الاردن كانت تعد جزءا لذلك القطر ، مع ان الادارة السورية يوم ذاك كانت من الضعف بحيث انها عجزت عن مقاومة غزوات الصحراء ، تلك الغزوات التي لو لم تصدها الجيوش البريطانية لكانت الفوضى والفقر النتيجة المنتظرة للبلاد • على ان اعلان الانتداب الفرنسي على سوريا ادى الى انسحاب البريطانيين من سوريا ومن شرق الاردن ايضا وان ظل المندوب السامي في القدس مسؤولا عن استتباب الامن في شرق الاردن • وبعد مؤتمر القاهرة عهد حكم البلاد الى الامير عبدالله ، وتعهدت بريطانيا بمساعدته ماليا مقابل تعهده بمقاومة ايـة حركة عدائية في شرق الاردن ضد فرنسا • ومع ان الامير عبدالله كان يمني نفسه بعرش العراق ، وقد اختاره له المؤتمر السوري ، كما اختار فيصلا لعرش سوريا ، الا انه قنع بتوليه امارة شرق الاردن • وباشر الامير عبدالله فور توليه الامارة في خلق ادارة مستقرة فيها وسط مشاكل متعددة ، منها

غزوات الصحراء ، والمشكلة الصهيونية فى غرب البلاد ، ووجود الانتداب الفرنسى فى شمالها • ولم تقتصر المساعدات البريطانية على المال وحده ، بل شملت المشورة الادارية ، وتخصيص عدد من الضباط البريطانيين لتدريب الفرقة العربية (وكانت هذه الفرقة جزءا من قوات الامن فى فلسطين) • وكانت هذه القوى تدعمها الطائرات البريطانية والسيارات المصفحة لصد العدوان الوهابى المتزايد • والواقع ان الطائرات البريطانية قضت قضاءا مبرما على الغزوات الوهابية عام ١٩٢٤ •

وقد استطاعت الحكومة البريطانية من اقناع عصبة الامم من اعفاء شرق الاردن من بعض نصوص صك الانتداب ، ولا سيما منها تلك التى تتعلق بالوطن القومى اليهودى • وكان الصهيونيون يدعون بأنهم بموافقتهم على هذا الاعفاء ، فانما يتنازلون عن وعد قطع لهم سابقا • ومما لا ريب فيه ان رسائل مكماهون ، مع كل ما ورد فيها من ابهام ، اعتبرت شرق الاردن من الاقطار التى سيستقل العرب فيها • وتوطدت العلاقات بين بريطانيا وشرق الاردن فى عام ١٩٢٨ ، عندما تم التوقيع على معاهدة اتفق على اصولها واخذ بتطبيقها منذ عام ١٩٢٣ • فبحسب هذه المعاهدة اعتبرت الحكومة البريطانية حكومة شرق الاردن حكومة مستقلة شريطة أن تتبع نظاما للحكم دستوريا وان تتبع سياسة ادارية ومالية تؤمن للبلاد ، استقرارا ونظاما حكوميا ثابتا وميزانية متوازنة • ووافق الامير عبدالله على قبول المشورة البريطانية فى الشؤون السياسة الخارجية •

– ٦ –

من المشاكل التى جابهتها الحكومة البريطانية ، العداء الشديد المتحكم بين حليفين من حلفائها ــ الملك حسين وابن السعود • فمما يؤسف له ان

هذين الزعيمين لم يجتمعا معا فى حياتهما ، ولو قدر لهما الاتصال الشخصى لما فشل الملك حسين فى التثبت مما كان يتمتع به خصمه من مزايا ومن حذق سياسى ، ولادرك ان خصمه شخص يقابل الاستفزاز بما هو أشد منه • وقد بدأ الصراع بين الخصمين عندما اعتدى الوهابيون على جزء من اراضى الحجاز واستولى ابن السعود على واحتى خرمة وترابة • ففى عام ١٩١٨ تعجل الملك حسين بطلبه من ابن السعود أن يعترف له بأنه ملك العرب • فلما اغفل ابن السعود ذلك الطلب اخذ الملك حسين يحرض عائلة الرشيد فى حائل ضد ابن السعود • ولا ريب ان احتلال ابن السعود لمدينة حائل وفشل الامير عبدالله باسترداد ترابة من الوهابيين عام ١٩١٩ ، أفقد الملك حسين صوابه • وقد حاولت الحكومة البريطانية فى اواخر عام ١٩٢٣ تقريب وجهات النظر بعقدها مؤتمرا بين نجد والحجاز والعراق وشرق الاردن • غير ان تلك المحاولة بائت بالفشل منذ البداية ، لان الملك حسين رفض أن يبعث بممثل عنه ما لم يوافق ابن السعود ، وقبل انعقاد المؤتمر ، على بعض الامتيازات الاقليمية التى كان من المتعذر تحقيقها • وكان الملك حسين يوم ذاك فى وضع لا يستطيع السيطرة على عشائره المرابطة حول مكة والمدينة لمنعهم من جمع ما يفرضونه على الحجاج الوافدين على الحجاز من الاقطار الاسلامية الاخرى من جزية •

وبعد أن ألفت الحكومة البريطانية نفسها عاجزة عن ازالة الخلافات بين كل من ابن السعود والملك حسين ، اضطرت الى ايقاف المساعدات المالية فى عام ١٩٢٤ عن ابن السعود • وقد ظلت تدفعها له بانتظام طيلة اعوام عديدة حتى بعد أن أوقفت المساعدات المالية الضخمة التى كانت تدفعها للملك حسين • وبعد ايقاف المساعدات المالية بعام واحد ، قام الوهابيون بحملة

مركزة على الحجاز واستولوا عليه . وعند عقد معاهدة جدة فى عام ١٩٢٧ اعترفت بريطانيا بالوضع الجديد الذى اتخذه لنفسه الملك ابن السعود . وتختلف هذه المعاهدة عن معاهدة عام ١٩١٥ التى تم عقدها بين ابن السعود ونائب الملك فى الهند ، على غرار المعاهدات المعقودة مع حكام امارات الساحل المهادن . ففى معاهدة عام ١٩٢٧ اعتبر ابن السعود فى صعيد واحد وملك بريطانيا ، كما اعترفت الحكومة البريطانية « باستقلال الاقطار التى يحكمها جلالة ملك الحجاز ونجد استقلالا كاملا مطلقا » . ونصت احدى مواد المعاهدة على المكانة الخاصة التى تتمتع بها بريطانيا فى الخليج . فبحسب تلك المادة تعهد ابن السعود « بان يحافظ على العلاقات الودية بينه وبين امارتى الكويت والبحرين ومشايخ قطر وساحل عمان الذين تربطهم بالحكومة البريطانية معاهدات خاصة » .

كذلك تعهد ابن السعود فى تلك المعاهدة « بأن يتعاون مع الحكومة البريطانية بجميع ما لديه من امكانيات لمقاومة تجارة الرقيق » . ويعتبر هذا التعهد ضربة قاصمة لتجارة الرقيق ، تلك التجارة التى سبق للحكومة البريطانية ان أعلنت الحرب عليها منذ قرن من الزمن . والحقيقة ان جميع المعاهدات التى عقدت مع حكام امارات الخليج الفارسى تتضمن نصوصا تهدف الى مقاومة تلك التجارة ؟ وان سلطات الخفارة البحرية البريطانية فى البحر الاحمر والخليج الفارسى ساهمت كثيرا فى عرقلة تلك التجارة عرقلة كبرى جعلتها عالية الكلفة . ومما يجب الا يغرب عن البال ان دستور عام ١٩٠٨ منع الاتجار بالرقيق فى جميع الامبراطورية العثمانية ، ومع ذلك فانه لم يكن ذا تأثير فى البلاد العربية . فقد ظلت اليمن والحجاز ونجد سوقا رائجة للرقيق . وزاد الاتجار بالرقيق بعد ازدياد الطلب عليهم . فكان يؤتى

بالرقيق من بلاد الحبشة الى أسواق الاقطار العربية المتاخمة للبحر الاحمر • وكان الملك حسين يؤمن بأن الاسترقاق يبيحه القرآن ، ولذا فانه كان لا يرضى عن تصرفات الوكالة البريطانية فى جدة عندما كانت تقبل دخالة الرقيق اللاجئين اليها • وكان ابن السعود لا يختلف بنظرته للرقيق عن نظرة خصمه ، ومع ذلك فان حركة عتق الرقيق فى بلاد العرب آخذة فى التنامى والتزايد ، وان كانت بطيئة السرعة • فثمة دوافع دينية وانسانية تزيد فى عتق الرقيق • فمن تقاليد العرب ان امة تلد مولودا من سيدها لا يمكن ان تباع أو ان تسخر فى الاعمال المستهجنة • وتعتبر حرة طليقة بعد وفاة سيدها • وكان يؤمل من ابن السعود ، بما يتمتع به من سلطة عظيمة ، انه سيتمكن من القضاء على استيراد ارقاء جدد الى بلاده ، وبذلك سيقضى على تجارة الرقيق فى بلاد العرب • وبعد توليه الحكم فى الحجاز بعشر سنوات أصدر ابن السعود قانونا يقضى بمنع ادخال أى شخص الى بلاده يمكن ان يباع ويشترى فى سوق النخاسين ، ما لم يكن مزودا بوثيقة تثبت انه كان عبدا قبل تاريخ حدده ذلك القانون • واعتبرت الحكومة البريطانية صدور هذا القانون مبررا لالغاء لجنة عتق الارقاء فى المملكة العربية السعودية •

وليس من المغالات ان يقال ان صداقة ابن السعود لبريطانيا كانت ثابتة وطيدة منذ توليه الحكم فى بلاده ، ولم يبدر منه ما يعكر صفوها • ومع ان الملك حسين ظل يتمتع بالمساعدات البريطانية لبضع سنوات بعد ان أظهر العداء لابن السعود ، وأخذ موقفه هذا يسىء الى المصالح البريطانية ، ومع ان بريطانيا ساندت أولاد الحسين ، أمير شرق الاردن وملك العراق عندما هاجم الوهابيون هذين القطرين فاستخدمت بريطانيا جنودها لصد العدوان الوهابى ، فان العلاقة البريطانية السعودية ظلت على أحسن حال حتى عندما

أخذت الاضطرابات تتفاقم فى فلسطين • ومع ان ابن السعود كان مستعدا دائما لتأييد قضية العرب بالطرق الدبلوماسية اما بمفرده أو مشتركا مع ملوك العرب الآخرين ، فان ابن السعود رفض ان يساهم فى اضطرابات فلسطين ، وأكثر من ذلك انه استغل نفوذه لاخمادها • وزادت العلاقات الحسنة بين الطرفين توطيدا فى عام ١٩٣٨ ، عندما زارت الاميرة اليس وارل اثلون جدة والرياض • وكانت تلك الزيارة فألا حسنا للعرب فانها اقترنت بهطول الامطار بعد انحباسها بضع سنوات • كذلك ان الشركة الاميركية التى كانت تتحرى عن النفط فى بلاد نجد توصلت الى اكتشاف بئر تدفق منه النفط بغزارة غير متوقعة •

- ٧ -

ومع ان الحلفاء أقروا استقلال اليمن عن تركيا بعد الحرب ، فان ذلك لم يحسن العلاقات بين امام اليمن وبريطانيا • فانــه ما ان تخلص من نير الاتراك حتى أخذ يتجاوز على حدود محمية عدن غير مكترث بالحدود التى تم الاتفاق عليها ، بين الحكومتين البريطانية والتركية عام ١٩١٤ • وربما كان تعنت الامام ورفضه الاتفاق على الحدود ، بتحريض من الايطاليين • فلما اضطرت الحكومة البريطانية بعد تحذيرات متكررة الى طرد جيوش الامام من بلاد عدن ، رضخ الامام الى عقد معاهدة عام ١٩٣٤ ، اعترفت بريطانيا فيها باستقلال اليمن كما أقر الامام بان الوضع الراهن للحدود اليمنية العدنية سيحدد بعد اجراء مفاوضات بين الطرفين • كذلك تعهد الامام بابداء المساعدات اللازمة للقضاء على تجارة الرقيق الافريقية •

ومع جميع ما بذله الايطاليون من جهود فانهم حتى بدايــة الحــرب العالمية الثانية لم يستطيعوا ان يفوزوا بمكانة سياسية ممتازة فى اليمن • ولا

يعزى ذلك الى التعهدات التى أعطتها الحكومة الايطالية فى الاتفاق الانكليزى ـ الايطالى المعقود عام ١٩٣٧ ، وانما يعزى الى خوف الامام من الاجانب ومقاومته لاى نفوذ أجنبى ربما يتسرب الى البلاد من أى طرف كان •

- ٨ -

وكان الاشراف على شؤون عدن قبل الحرب العالمية الاولى من مسؤوليات حكومة بومباى ، وفى خلال فترة ما بين الحربين انتقلت تلك المسؤولية الى حكومة الهند أولا ثم الى وزارة المستعمرات • وقد ظلت محمية عدن التى تحادد من جهة مستعمرة عدن واليمن والصحراء وسلطنة مسقط من جهة أخرى ، على ما كانت عليه سابقا من نظام للحكم • ولكن فى عام ١٩٣٧ بذلت جهود من أجل توطيد الامن والسلام بدلا من العداء المستحكم بين القبائل المستوطنة فى الاقليم ، عسى ان تتحسن أحوالهم فيعم بينهم الرخاء • فكانت نتيجة تلك الجهود ان اقتنع بضع مئات من رؤساء القبائل على اختلاف درجاتهم وتباين أهميتهم بضرورة عقد ميثاق عدم اعتداء مدة أعوام ثلاثة ، كان من أثره ان حدث تحسن كبير فى الاحوال المعاشية لتلك القبائل ، كما صار فى مقدورهم التنقل من موضع الى آخر فى البلاد دون أى خطر • واشترطت حكومة عدن عليهم ان أى من رؤساء القبائل يرفض تنفيذ الميثاق أو يأبى دفع الغرامة التى تفرض عليه من قبل حكومة عدن فان مساكن قبيلته ستكون عرضة للقصف الجوى • ومع ان هذه السياسة لاقت انتقادا مرا فان اتباعها للقضاء على الفوضى الضاربة اطنابها فى البلاد ، كان أمرا لابد منه • فالاقناع دون عقاب رادع لا تأثير له فى تلك القبائل ، سيما اذا ما علمنا ان من شأن حملات المشاة ان تذهب بأرواح الكثيرين من الجنـود المحليين وضباطهم

البريطانيين أو العرب • كما ان هذه الحملات ستبيد عددا كبيرا من العصاة أكثر مما يبيده منهم القصف الجوى • وكانت السلطات الحكومية لا تلجأ الى هذا التدبير الا بعد انذار متكرر يعين فيه موقع القصف وزمانه •

- ٩ -

ان معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة التى تم عقدها مع مسقط عام ١٩٣٩ لم تبق وضعا خاصا لبريطانيا ؟ فمسقط لم ترق لاكثر من محمية بريطانية • اما البحرين فانها فازت بأهمية خاصة بعد ان اكتشفت احدى الشركات الاميركية النفط فيها ، وبعد ان انشئت قاعدة بحرية بريطانية فيها منقولة من احدى جزر الخليج • وبالاضافة الى ذلك فان البحرين تتمتع بمطار جوى طبيعى يعد حلقة هامة من سلسلة المطارات على الساحل العربى من الخليج • وكانت تلك المطارات تفى بالغرض ، ولكن بعد ان تطورت وسائط النقل الجوى اصبحت قليلة الفائدة • واكتشف النفط فى الكويت وفى بعض الامارات التى يدير شؤونها مشايخ يرتبطون مع بريطانيا بمعاهدات خاصة • وتستثمر نفط الكويت شركات بريطانية واميركية متكافئة الاسهم • اما امتيازات النفط فى الامارات الاخرى فتمتلكها شركة نفط العراق •

- ١٠ -

وما ان تم التوقيع على شروط هدنـة مودروس حتى بلغ التـأزم فى العلاقات الانكليزية المصرية حده الاعلى • فبالاضافة الى الاستياء العام الناشيء عن ظروف الحرب فان الاحزاب المصرية رفضت قبول اعلان الحمـاية على بلادهم • وقد ظل الوضع بين مصر وبريطانيا متأزما مدة ثمانى عشر شهرا قبل

ان يتم عقد اتفاق بين الطرفين • واذا ما كانت الحكومة البريطانية بطيئة في ادراكها الوجهة التي يتجهها عالم ما بعد الحرب ، فان السياسيين المصريين لم يتورعوا عن اثارة الشعب ويجبنون عن اخباره بتعذر تنفيذ مطاليبه • ولا ريب ان أهم قادة الحركة الوطنية في مصر كان سعد زغلول باشا ، مؤسس الوفد المصرى ، وقد سمى حزبه بهذا الاسم نسبة الى الوفد الذى توجه الى المندوب السامى البريطانى فور عقد الهدنة وطالب باستقلال البلاد استقلالا كاملا • وكان المصريون يتوقعون ان تخفف بريطانيا من شدة سيطرتها على البلاد ، نتيجة للوعود التى قطعتها بريطانيا الى العرب خلال الحرب وتعويضا للمصريين عما قاسوه من متاعب طوال سنوات الحـــرب • ومع ذلك فان الخطوات التى اتخذتها بريطانيا شددت من سيطرتها على البلاد ، كما يتضح ذلك من تزايد عدد البريطانيين المستخدمين فى الجهاز الحكومى • فقد كان عددهم ثلثمائـة موظف عام ١٨٩٨ ، فصار عددهـم حسب ميزانيـة عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ الف وسبعمائة موظف بريطانى • وقد رغب الوطنيون بارسال وفد الى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس ، الا ان الحكومة البريطانية اعترضت على ذلك ، كما رفضت أن تقابل وفدا مؤلفا من رئيس الوزراء وأحد زملائه • وقد أدى هذا التعنت الى حدوث اضطرابات فى البلاد ، كادت ان تؤدى بها الى ثورة عارمة ، الامر الذى دعى الحكومة البريطانية الى نفى سعد زغلول وثلاثة من صحبه الى جزيرة مالطا • فكان رد الفعل لهذا التدبير ، ان وقعت فى البلاد عدة اضطرابات ، كما حدثت سلسلة من الاعتداءات على البريطانيين، أدت الى اغتيال عدد من ضباطهم • ولم يتحسن الوضع كثيرا بعد تعيين اللورد اللنبى مندوبا ساميا لمصر ، وكان يظن ان اطلاق سراح المبعدين السياسيين سيهدىء الحالة كثيرا • ولكن الامر كان خلاف ذلك فقد ازدادت الاضطرابات واضطر

اللورد اللنبي الى التهديد باستعمال سلطاته الخاصة • وبعد وصول زغلول باشا وصحبه الى باريس ، تقدموا بمطاليبهم الى مؤتمر السلام ولكنهم لم يلقوا في المؤتمر من يستمع اليهم • ومما زاد في الامر تعقيدا ان الرئيس ولسن اعترف بالحماية البريطانية على مصر ؛ مما اسقط بيد المصريين وأقنعهم بان الخلاف بين بريطانيا ومصر يجب أن يسوى بالمفاوضات المباشرة • وارسلت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة اللورد ملنر[١] لتقوم بدراسة الوضع الراهن في مصر ، وتقديم توصياتها لتحقيق التسوية المقترحة للقضية المصرية • غير ان الوطنيين المصريين قاطعوا لجنة ملنر لانها اتخذت الحماية البريطانية على مصر اساسا لبحثها • ومع ما لاقته هذه اللجنة من مقاطعة فانها استطاعت أن تلم بوضع البلاد ، وتقدر ظروفها تقديرا عادلا ، سيما وانها ادركت ان الحركة الوطنية يؤيدها عدد من السكان أكثر مما كانت تتوقعه الدوائر البريطانية في مصر • وبعد عودة اللجنة الى لندن عقد اللورد ملنر عدة اجتماعات مع زغلول باشا ، ولكنهما لم يتوصلا الى حل ايجابي • ذلكم لان سعد زغلول لم يرض عن الاستقلال التام بديلا ، بينما كانت الحكومة البريطانية تصر على الحماية ، وتتلكأ في منح مصر استقلالها التام استجابة لرغبة السلطات العسكرية البريطانية التي كانت تصر على ابقاء الجيوش البريطانية في القاهرة •

ولكن بعد ان وجدت الحكومة البريطانية نفسها عاجزة عن التوصل الى اتفاق مع حزب الوفد أو مع حزب مصري آخر ، قررت من جانبها اعلان استقلال مصر • واعلنت في تصريح فبراير لعام ١٩٢٢ انتهاء الحماية على مصر ، وان حكومة مصر ستكون مستقلة • وريثما يحين الوقت المناسب

---

(١) Lord Milner.

لعقد اتفاق يحقق للبلاد استقلالها التام ، فان الحكومة البريطانية تحتفظ بمسؤولية تأمين النقاط الاربع التالية حفظا لسلامة مصالحها :

(١) ضمان سلامة مواصلات الجيوش البريطانية فى مصر •

(٢) الدفاع عن مصر من جميع الاعتداءات الاجنبية والتدخل الاجنبى المباشر وغير المباشر •

(٣) محافظة المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات •

(٤) السودان •

وبعد تصريح فبراير ، اتخذ السلطان لنفسه لقب ملك ، واصبحت مصر مع وجود التحفظات السالفة الذكر سيدة بيتها كما يقال • وسمح لسعد زغلول ، الذى كان منفيا فى سيشل نتيجة معارضته المطاليب البريطانية ، بالعودة الى البلاد • وعندما اعدت مسودة الدستور تدخلت الحكومة البريطانية فى الامر لكى لا يضمن الدستور اية مادة تتعارض والتحفظات ، ولكى تجعله شاملا المبادىء والاسس التى تكفل للشعب المصرى حقوقا اكثر مما كان الملك يرغب بمنحها له • كذلك الغيت الاحكام العرفية التى ظلت مفروضة على البلاد منذ عام ١٩١٤ ، واعلنت الانتخابات فى البلاد فكانت نتيجتها فوز الوفد بأكثرية ساحقة فى المجلس واصبح سعد زغلول رئيسا للوزارة •

ولم تنته الاضطرابات التى اثارها سعد زغلول وصحبه من اجل الحصول على الاستقلال التام واتحاد السودان مع مصر بعد اختياره رئيسا للوزارة المصرية ؛ كما انه لم يحاول اخمادها والتخفيف من وطئتها • فانها كانت لا تقتصر على مصر وحدها بل شملت السودان ايضا ، وكان يذكى نارها المصريون الموجودون هناك بالاشتراك مع بعض السودانيين المتطرفين • على

ان الجيش السودانى لعب دورا هاما فى اخمادها واعادة السكينة الى البلاد • اما فى مصر فقد عانى الجنود البريطانيون وضباطهم سلسلة من الاغتيالات بلغت ذروتها عندما اغتيل سر لى ستاك ، حاكم السودان العام ، والقائد العام (سردار) للجيش المصرى • وكتعويض لهذه الجريمة ، لم تكتف الحكومة البريطانية بالمطالبة بمعاقبة مرتكبى الجريمة ، ودفع تعويض لعائلة القتيل ، وانما اشترطت سحب جميع الضباط المصريين والوحدات العسكرية المصرية من السودان • واعقبت هذا الحادث سنوات هدوء فى مصر • فحادث اغتيال السردار وتفاقم السياسة الاعتدائية الإيطالية ، كبحت جماح الرأى العام المصرى • وقد استقال سعد زغلول فور استلام الحكومة المصرية الاحتجاج البريطانى ولكنه اختير لرئاسة مجلس النواب ، وأظهر كفاءة ممتازة وحسن دراية فى قيامه بهذه المهمة الجديدة • وظل فى منصبه هـذا حتى عاجلـه الاجل عام ١٩٢٧ • فلما أقال الملك خليفة سعد ، النحاس باشا فى عام ١٩٢٩ ، وعطل مجلس الامة لمدة سنوات ثلاث سادت السياسة المصرية فترة هدوء ، جرت خلالها مفاوضات بين بريطانيا ومصر • ومع ان تلك المفاوضات لم تثمر الثمرة المرجوة الا انها أدت الى تحسن العلاقات ، وساعدت فى عقد اتفاق بشأن مياه النيل ، أمن حقوق كل من مصر والسودان فى تلك المياه • وظل الوضع فى مصر مترجرجا حتى عام ١٩٣٦ ، عندما امكن عقـد المعاهـدة الانكليزية المصرية نتيجة تنبه المصريين للخطر الذى كان يهدد بلادهم من غزو موسولينى لبلاد الحبشة •

ونصت المعاهدة الانكليزية المصرية لعام ١٩٣٦ على عقد تحالف بين الطرفين المتعاقدين وابقائه نافذا مهما طرأ من تبديل أو تحوير على نصوص المعاهدة • كذلك انهت المعاهدة الاحتلال العسكرى البريطانى ، وحتمت على

الجيوش البريطانية التي حدد عددها بعشرة آلاف محارب من المشاة واربعمائة من رجال السلاح الجوى ، الانسحاب الى منطقة القناة حالما تعد لهم وسائل السكنى فيها • كما نصت احدى موادها على انه في حالة نشوب حرب ، يساعد الفريقان المتعاقدان احدهما الاخر بوصفهم حلفاء متكافئين •

ولا ريب ان تنفيذ هذا التعهد خلال الحرب العالمية الثانية ساعد كثيرا في صد عدوان المحور على مصر ؛ وانجاها من ان تصير مستعمرة ايطالية • ومما ورد في تلك المعاهدة ان الفريقين المتعاقدين سيبحثان في عام ١٩٥٦ مسألة ما اذا كانت الجيوش المصرية في مكانة تستطيع فيها تأمين سلامة الملاحة وحريتها في قناة السويس • وان المعاهدة وان لم تحل قضية السودان مهدت السبيل الى حلها • ومع انها لم تتطرق لسيادة الدولة ، ونظم الادارة في السودان ، فانها سمحت للجيوش المصرية التي أخرجت من السودان قبل نيف وعشر سنوات ، بالعودة اليه • كما أجازت هجرة المصريين الى السودان ، على ان تكون تلك الهجرة مقيدة بأحكام قوانين حفظ الامن والنظام والصحة العامة • واشترطت المعاهدة على بريطانيا لزوم تأييد مطلب مصر للانضمام الى عصبة الامم • كما نصت على ان تشترك الدولتان في المساهمة في ضمان الغاء الامتيازات الاجنبية ، وان تترك مسؤولية حماية أرواح الاجانب وممتلكاتهم الى السلطات المصرية •

وانهى مؤتمر منترو في عام ١٩٣٧ مسألة الامتيازات الاجنبية • ومنذ ان تم التوقيع على مقررات هذا المؤتمر ، ألغيت جميع ما كان الاجانب يتمتعون به من امتيازات في مصر ، باستثناء الامتيازات القضائية التي تقرر انهائها في عام ١٩٤٩ ، أى عند الغاء المحاكم المختلطة ومحاكم القنصليات الاجنبية •

ومع ان بلاد فارس لم تنظم الى احد الطرفين المتحاربين ، فانها كانت ميدانا حربيا طوال سنى الحرب . فقد كانت البلاد فى حالة فوضى ، وخزينة الدولة خالية خاوية . وكانت فيها ثلاثة اصناف من الجيوش : الدرك الفارسى بقادته السويديين ، يمالى بعضهم الالمان ويقف البعض الاخر على الحياد ؛ القوزاق الايرانيين بضباطهم الروس ؛ وجيش جنوب ايران بقيـــادته الانكليزية . ولما كان استتباب الامن والنظام فى البلاد من الامور الهامة بنظر الحكومة البريطانية وحكومة الهند . فقد حاولت بريطانيا عقد اتفاق انكليزى فارسى ، تتعهد الحكومة البريطانية بحسبه بمد فارس بالضباط الانكليز لاعادة تنظيم الجيش الفارسى ، وجعله جيشا موحدا . كما تتعهد بانتداب عدد من الخبراء الماليين لاصلاح الاوضاع المتردية فى وزارة المالية ؛ وأخيرا اقراض الحكومة الفارسية مليونى جنيه استرلينى . والاسباب المبررة لهذا الاتفاق لم تكن ظاهرة لغير الانكليز ولذلك لاقى الاتفاق معارضة من غير ابناء البلاد فى أول امره . فقد اعترضت عليه حكومتا الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا ، معتبرتان ان القصد من الاتفاق يقتصر على تأمين منافع خاصة لبريطانيا وحدها ، مستغلة بعملها هذا نصرا حققته جهود مشتركة . ولذا فقد وصم هذا المشروع ، على ما فيه من منافع لفارس بوصمة الاستعمار ، فكان مصير ذلك الاتفاق الاهمال . على ان الغرض الرئيسى الذى كان يستهدف من ذلك الاتفاق ، أى استتباب الامن والنظام فى البلاد ، حققته شخصية فارسية فذة ذات مواهب نادرة لم تكن معروفة لاحد . تلك هى رضا خان أحد ضباط القوزاق الايرانيين . ففى عام ١٩٢١ ، حدث فى فارس انقلاب وضع السلطة العليا فى البلاد بيد

صحفى اعتمد فى حركته على رضا خان • فلما شكلت الحكومة الجديدة اسندت وزارة الحربية الى رضـا خان • وقد رفضت الحكـومة الجديدة التصديق على المعاهدة الانكليزية الفارسية سابقة الذكر ، فاعتبرتها ملغاة •

وفى عام ١٩٢٥ اعتلى عرش فارس رضا خان ، وسمى منذ ذلك الحين برضا شاه ؛ وهو أول أفراد الاسرة البهلوية • والغريب انه عندما أخذت أخطاء هذا الملك تتجسم فى عقول رعيته بحيث أخذت تطغى على جميع الأصلاحات التى قام بها ، القيت تبعت اعتلائه عرش البلاد على البريطانيين ؛ وليس ثمة دليل يثبت هذا الزعم • ففى الواقع ان الانقلاب حدث على حين غرة بالنسبة للحكومة البريطانية وحتى للمفوضية البريطانية فى طهران • ولما كان الشعب الفارسى سائما من الفوضى والاضطراب الذين سادا البلاد سنوات طويلة فقد رحب برمته باستلام رضا خان السلطة العليا ، وبالتالى اعتلائـه عرش البلاد • ومما لا ريب فيه ان البريطانيين شأن جميـع من كان فى البلاد كسبوا كثيرا من اعادة النظام الى البلاد ، ولكنهم عانوا أكثر من أية جاليـة أجنبية ، من الاحداث السياسية والاقتصادية التى قام بها رضا شاه •

وكان من جراء اتساع سيطرة حكـومة طهران على الاقليـم ، بعـد ان اصبح رضا خان وزيرا للدفاع ، ان سددت ضربة قاصمة لاحد اصدقاء الحكومة البريطانيـة المخلصين ـ أى الشـيخ خزعل أمير المحمرة • فقـد سبق للحكومة البريطانية ان قدمت له تعهدات لحمايته من اعتداء أية سلطة أجنبية ، وان تعاونه لايجاد حل مرضى فى حالة ما اذا حاولت الحكومة الفارسية سحب سلطته أو اذا لم تعترف بحقوقه ، وممتلكاته فى فارس • وفى الوقت ذاته اشترطت عليه ان يخضع وخليفته من بعده الى الحكومة الفارسية وان يبقى مهتديا بمشورة الحكومة البريطانية • كما افهم ان معاونة

الحكومة البريطانية له ستقتصر على العمل السياسى • وهذا ما جعل الشيخ خزعل فى أول الامر يتفق مع الحكومة الفارسية بشأن القضايا المتعلقة بالضرائب • غير ان الاجراءات التى اتخذتها الحكومة مع حكام الاقاليم المجاورة للمحمرة ، أثارت مخاوف الشيخ خزعل ودفعته الى عدم الاعتراف برضا خان وبسياسته • فكان مصيره من جراء موقفه هذا ، ان نقل الى طهران ، حيث ظل معتقلا الى ان وافاه الاجل المحتوم بعد سنوات قلائل من اعتقاله • وهكذا قضى على مشيخته • ومما كان يجب أن يكون واضحا ، ان المكانة الممتازة التى كان الشيخ خزعل يتمتع بها طوال سنوات عديدة ، لابد من ان تتضاءل بعد ان استتبت الامور للحكومة المركزية • ولم يكن من مجال للحكومة البريطانية ان تتدخل من أجل ابقاء الوضع فى المحمرة على ما كان عليه سابقا • ويبدو ان عدم تدخل حكومة طهران بشؤون امارته مدة طويلة ، وصداقته الوطيدة لبريطانيا ، جعلته يقتنع بانه فى مأمن من نوايا الحكومة الجديدة • وربما خلف تخلى الحكومة البريطانية عنه ، وهو فى أشد ساعات محنته ، حسرة مؤلمة فى قلبه •

وبعد ان فرض رضا شاه سلطته على جميع أقسام فارس وجه اهتمامه الى الشؤون الخارجية • ففى عام ١٩٢٧ اشعرت الدول ذات العلاقة بفارس ان جميع الاتفاقات ذات الامتيازات الخاصة ستلغى بعد عام من تاريخ الاشعار • وسوف تعقد بدلها معاهدات جديدة • وقد وافقت الحكومة البريطانية على الغاء الامتيازات الاجنبية • وتم عقد اتفاق بين الدولتين ، تعهدت الحكومة الفارسية بحسبه بان تقدم بعض الضمانات لتطبيق القوانين على الاجانب تطبيقا عادلا ، وان تبنى سجونا صالحة • وبعد عام من عقد ذلك الاتفاق ، أى فى عام ١٩٢٩ اثارت الحكومة الفارسية من جديد مطالبتها بجزيرة

البحرين ، ذلك الطلب الذى كانت حكومة فارس تكرره منذ ان عقدت بريطانيا معاهدة ١٨٢٠ مع البحرين ، ولا سيما فى عام ١٨٦٩ • وسبب اثارة هذه القضية معاهدة ١٩٢٧ التى تتضمن مادة وافق ابن السعود بموجبها على الا يتدخل بشؤون البحرين • وفى مذكرة ارسلت نسخ منها الى جميع الدول الاعضاء فى عصبة الامم ، ادعت الحكومة الفارسية بها بأن وزير خارجية بريطانيا فى عام ١٨٦٩ اعترف بمطاليب فارس فى الجزيرة • وفى الجواب الذي قدمته الحكومة البريطانية والذى أرسلت نسخ منه الى الدول الاعضاء، رفضت مطاليب فارس كما كذبت الزعم القائل باعتراف بريطانيا بذلك الطلب فى عام ١٨٦٩ ، أو فى أى وقت آخر • وقد تكرر احتجاج الحكومة الفارسية من وقت لآخر ، ولاسيما عندما منح شيخ البحرين أول امتياز للنفط فى بلاده ، الى اتحاد شركات بريطانية وأخيرا الى شركة أميركية • وفى عام ١٩٢٩ قدمت الحكومة البريطانية جوابا مطولا كاملا ، فندت فيه مدعيات فارس • وكل ما فى الامر ان فارس غزت البحرين فى عام ١٧٣٢ ، ولم يكن من أثر لمطلبها فى البحرين ، اللهم الا خلق مصاعب لاولئك الذين يرغبون بالسفر بين البحرين وفارس •

وتلى الغاء الامتيازات الاجنبية فى فارس عدد من الخطوات كان القصد منها جعل العلاقات بين بريطانيا وفارس حسنة • فلقد كانت بريطانيا حتى ذلك الحين مسؤولة عن اضائة سواحل الخليج الفارسى ، وعن القيام بالحجر الصحي للقادمين الى فارس • فسلمت بريطانيا هذه المهام الى الحكومة الفارسية• وفى عام ١٩٣١ انسحبت من فارس الشركة الهندية الاوربية للتلغراف •

وفي سنة ١٩٣٥ نقلت محطة تموين الفحم للسفن في مركزى باسيدو وهنجام الى البحرين ، واصبحت هذه الجزيرة المحطة البحرية البريطانية الوحيدة في الخليج الفارسي .

وبتزايد نمو الشعور القومي خلال حكم رضا شاه ، ازدادت العلاقات البريطانية الفارسية توترا ؛ وبلغت شدتها في عام ١٩٣٢ ، عندما اعلن الشاه « الغاء » امتياز شركة النفط الانكليزية الفارسية الذي يمتد حتى عام ١٩٦١ . لقد كانت الحكومة الفارسية تبحث منذ بضع سنوات مع شركة النفط عن الطريقة التي تحسب بها حصتها من ارباح الشركة . تلك الحصة التي لم ترض الحكومة يوما من الايام . ومما زاد في سخط حكومة فارس تناقص عوائد النفط كثيرا عند حدوث الازمة المالية العالمية عام ١٩٢٩ . وأثار قرار الشاه بشأن امتياز النفط استياء جميع الاوساط في لندن .

ولكي تحتاط لما قد يحدث نتيجة الغاء الامتياز ، ارسلت الحكومة البريطانية وحدة من السفن الحربية الى الخليج الفارسي ، وبالوقت ذاته عرضت المسألة المختلف عليها ، على عصبة الامم . ولكن العصبة اعادة القضية ثانية الى الطرفين المتنازعين ، وقد توصلا في عام ١٩٣٣ الى اتفاق جديد . وبحسب هذا الاتفاق مددت مدة الامتياز الى عام ١٩٩٣ ، مقابل ذلك حددت المناطق الخاضعة للامتياز القديم والتي كانت تشمل جميع نواحي البلاد عدا الولايات الشمالية الخمس ، الى مائة الف ميل مربع ، وعلى الشركة ان تقوم باختيارها خلال مدة خمس سنوات . كذلك عدلت عوائد النفط تعديلا أرضى الحكومة ، فأصبحت تشمل ضريبة ثابتة تفرض على الانتاج مقدرا بالاطنان

ولا تتأثر بانخفاض سعر الجنيه الذهبي أو بصعوده • وبالوقت ذاته تعهدت الحكومة الفارسية بالا تلغى أو تعدل الامتياز ، الا بموافقة الطرفين المتعاقدين ، واذا ما اختلفا فيعرض الخلاف على التحكيم • ومن مزايا الاتفاق الجديد ان الشركة الزمت بارسال عدد من شباب فارس الى بريطانيا لدراسة الموضوعات اللازمة لصناعة النفط •

وفي عام **١٩٢٨** عقد اتفاق آخر مع فارس سمح بموجبه لوسائط النقل الجوى القادمة الى الشرق ، أو الذاهبةمنه ان تهبط على أراضي شواطيء الخليج الفارسي • ولكن عندما انقضت مدة الاتفاق وأرادت بريطانيا تجديده اشترطت الحكومة الفارسية ان يكون الخط الجوى على امتداد الجبال عبر مدينة شيراز • ولما كان هذا الشرط مضرا بصالح الخطوط الجوية البريطانية فانها اضطرت الى نقل مطاراتها الى الساحل العربي •

واتبع رضا شاه ، فيما يخص التجارة الخارجية والعملة وقيود اخراج البضائع ، وسائل لا تتلائم وما ألفه البريطانيون سابقا ، وانما كانت تتمشى ونظام هتلر • كذلك اعتبر انتاج فارس مكملا لانتاج المانيا • فلدى فارس وفرة بمواد الخام ، وبعض المواد الغذائية الصالحة للتصدير ، ولدى المانيا مواد مصنوعة تحتاج لها فارس • وهذا ما جعل المانيا ان تضع يدها على تجارة فارس وتستخدمها من أجل تحقيق نفوذها السياسي • فقد تمكن الالمان من الحصول على جزء كبير من تجارة فارس وساعدهم في ذلك رغبة الشاه في تصنيع بلاده • فقدعهد الشاه الى الالمان بتأسيس عدد من المعامل ، واستقدم عدد منهم لتدريب أبناء فارس واعدادهم لتشغيل تلك المعامل • كما استقدم عددا آخر

منهم للتعليم فى المدارس المهنية والصناعية • على ان منتوجا بريطانيا واحدا لم يرض الشاه عنه بديلا ، ذلك هو الطائرات البريطانية • فتنفيذا لرغبته اقامت احدى الشركات البريطانية مصنعا للطائرات فى طهران أشرف على ادارته مهندسون بريطانيون يعاونهم عمال وطنيون وقد بنى هـذا المصنع طائرات بريطانية التصميم بريطانية المحركات •

وفى عام ١٩٣٥ اصدر رضا شاه قانونا حتم تسمية بلاده بايران وشعبه بالايرانيين • ولذا فاننا سندعو فى الفصول القادمة من الكتاب ، هذه البلاد بالاسم الجديد أى ايران وابنائها بالايرانيين •

القسم السابع

الحرب العالمية الثانية وما بعدها

- ١ -

عندما قررت تركيا الانضمام الى الدول المركزية فى الحرب العالمية الاولى ، كان موقفها يوم ذاك مهددا لخطوط المواصلات البريطانية ، وعندما قررت البقاء على الحياد فى الحرب العالمية الثانية فقد برت بوعدها ولم يبد منها ما يجعل البريطانيين يتوقعون موقفا معاديا ، وأكثر من ذلك انهم كانوا يأملون المعاونة فى بعض الظروف • اما ايطاليا فقد تظاهرت بحياد يخفى بين طياته عداء كامنا • بينما أثار سلوك روسيا المبهم قلق بريطانيا ومخاوفها • فلما شعرت كل من بريطانيا وفرنسا وتركيا بالاخطار التى تهددهم عقدوا فى شهر تشرين الاول من عام ١٩٣٩ معاهدة تبادل المساعدات العسكرية فى أحوال خاصة • واشترطت تركيا ان الالتزامات التى تفرضها عليها هذه المعاهدة يجب الا تضطرها للدخول بأى صراع مع روسيا • فلما أعلنت ايطاليا الحرب ظلت تركيا بحيادها متجنبة أى عمل عدائى يجرها للاختلاف مع روسيا وطلبت ان تعفى من تنفيذ الالتزامات التى تفرضها المعاهدة سابقة

الذكر • وكانت تركيا على حذر من روسيا بعد الموقف الذى وقفته من فلنده وبولونيا ودول البلطيق • كما انها أصبحت فى وضع حرج بعد انضمام الفرنسيين فى سوريا الى حكومة فيشى • وقد ضاعف انخذال فرنسا من التزامات بريطانيا لتركيا اقتصادية كانت تلك الالتزامات أم عسكرية • فالحرب سدت جميع المسالك التجارية بوجه تركيا ، فأصبحت فى حاجة ماسة لاسواق جديدة تبيع فيها منتوجات بلادها وفى حاجة لمصادر جديدة تستورد منها ما تحتاج اليه من مواد حربية للدفاع عن سلامة بلادها • وكان على بريطانيا ان تملأ الفراغ الحاصل من عدم مساعدة دول الحلفاء الاخرى لتركيا • فكان من نتيجة ذلك ان تضاعفت التجارة البريطانية مع تركيا • فقد اشترت الحكومة البريطانية مقادير كبيرة من الفواكه التركية المجففة ومن التنباك التركى ، كما حاولت ، مع ما كانت تلقاه من مخاطر ، ان توصل الى تركيا كميات مناسبة من المواد الحربية •

- ٢ -

وفى فلسطين نشط الارهابيون العرب منهم واليهود قبيل استعار نار الحرب • وبعد اعلانها ساد البلاد هدوء نسبى • فقد وعدت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بمساندة بريطانيا ضد المانيا • ومع ان زعماء العرب ذوى الكلمة النافذة لم يكونوا موجودين فى فلسطين عند اعلان الحرب ، الا ان تأكيدات مماثلة لتلك التى قدمها اليهود قدمت من قبل بعض الشخصيات العربية الفلسطينية • وكان اليهود يؤملون ان بريطانيا ستلغى الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ مقابل مساعدتهم لها • وما ان وجدوا ان الادارة الفلسطينية مصرة على منع انتقال الاراضى من ايدى العرب الى ايدى اليهود حتى ازدادوا

حنقا • فقاموا بمظاهرات مصحوبة ببعض الاعمال المخلة بالامن احتجاجا على الكتاب الابيض • ومع ذلك فانهم نفذوا قرارهم بشأن التعاون مع بريطانيا ضد المانيا اللهم الا الاحزاب المتطرفة منهم مثل جماعة شترن فانهم باشروا عملهم الا [illegible]د عام ١٩٤٠ • ومما يلاحظ ان اليهود لم يوحدوا كلمتهم الا فى أمر واحد هو مقاومة المانيا • وكان الصهيونيون يعتقدون بأن أية رغبة من الحكومة البريطانية تبديها لاعطاء العرب بعض حقوقهم انما هى « تسكين لخواطرهم » تنم عن جبن البريطانيين وخوفهم •

- ٣ -

وفى السنوات الاولى للحرب عرض اليهود استعدادهم لتجنيد جيش يهودى ، الا ان الادارة الفلسطينية رفضت عرضهم • ذلكم لان الاعتراف بوجود جيش يهودى بدلا من جيش فلسطينى ، ليس فى صالح البلاد ، ولان تأليف ذلك الجيش لمما يغيض العرب ويدفع اليهود عند نهاية الحرب الى المطالبة ببعض الامتيازات مقابل ما سيقدمونه من خدمات • ومع ذلك فقد تكونت وحدات يهودية صغيرة انضمت الى فرق أخرى غير يهودية • ولم يأخذ اللواء اليهودى شكله النهائى الا فى عام ١٩٤٤ ؛ وكان اليهود يفسرون تردد الحكومة البريطانية فى الموافقة على تشكيل اللواء اليهودى لموقف بريطانيا العدائى نحوهم • وقد تضاعف حنقهم بعد ان اقترب الالمان من حدود مصر فأصبحوا بين خطرين ، خضوعهم الى الالمان ثانية ، وانتقام العرب منهم • ولمجابهة ما قد يطرأ من ظروف غير متوقعة قام اليهود بتأليف عصابة عهد اليها أمر سرقة مقادير كبيرة من الاسلحة البريطانية ومن المتفجرات • فاستعانت تلك العصابة ببعض الجنود البريطانيين الذين يعطفون على اليهود

لتحقيق مأربها ، متناسين ان تلك الاسلحة استخدمت لمقاومة الجنود البريطانيين وللاعتداء على موظفى الحكومة الفلسطينية وعلى ممتلكاتها .

ومما زاد في تعنت اليهود وتزمتهم شدة تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين من الاقطار الاوربية حيث كان الالمان يتبعون سياسة وحشية لافنائهم . فمنذ ان أخذ الالمان باتباع تلك السياسة واليهود يتدفقون على فلسطين لا بدافع انسانى ، بل من أجل خلق مشكلة لبريطانيا قبل الحرب ، ولكنها لم تكن توافق على قبول عدد كبير منهم الى فلسطين ، لان ذلك من شأنه ان يجعل الاكثرية العربية أقلية فيها . وليس في هذا عدل أو حنكة سياسية والحرب العالمية قائمة وبريطانيا في غنى عن اثارة غضب العرب عليها . ولهذا قررت الحكومة البريطانية احد أمرين اما اعادة المهاجرين الى الاقطار التى ارتحلوا عنها ، أو حجزهم في بلد آخر خاضع لبريطانيا كموريشيوس وقبرص . وقابل الصهيونيون هذا القرار بالاحتجاجات الشديدة وبالمقاومة الارهابية . وقد لاقوا تشجيعا كبيرا من اميركا حيث عقد مؤتمر بلتيمور الصهيونى وقرر الصهيونيون فيه المطالبة بجعل فلسطين دولة يهودية ، وخلق جيش يهودى ، واطلاق باب الهجرة في فلسطين وجعل أمرها موكول الى الوكالة اليهودية . وهذه المقررات تمثل في الواقع السياسة التى كانت المنظمة الصهيونية تتبعها ولا زالت تصر عليها .

- ٤ -

ومع كل ما بذلته المانيا من فنون الدعاية في العراق وفي مصر فان حكومات هذين القطرين قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا . فلما دخلت ايطاليا الحرب كان موقف بريطانيا العسكرى من الضعف درجة جرأت

كلتا الحكومتين على التلكؤ فى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع ايطاليا • وبعد جهود قطعت الحكومة المصرية علاقاتها مع ايطاليا متبعة أسلوبا خفف من وقع الضربة عليها • اما حكومة العراق فقد رفضت ان تفعل ما فعلته مصر وسمحت للمفوضية الايطالية فى بغداد ان تبقى مفتوحة الابواب متخذة من نفسها مركزا للدعاية وللمؤامرات المحورية •

وكان ابن السعود ثابتا فى صداقته لبريطانيا وفى عطفه عليها • ومع ذلك فانه لم يعلن الحرب على دول المحور ، لان ليس ثمة معاهدة تقضى عليه بذلك ، ولان سيطرته على الاماكن المقدسة الاسلامية كانت تمنعه من اعلان الحرب على دولة ذات رعايا مسلمين • وكانت المملكة العربية السعودية طوال ايام الحرب تعتمد على بريطانيا اقتصاديا كما صارت بعد ذلك تعتمد على الولايات المتحدة فى طلب المساعدات المالية • سيما بعد ان نقصت عوائد الحج خلال سنوات الحرب نقصا بينا ، ولم تكن عوائد النفط تكفى لتسيير شؤون المملكة • ومع تلك الاوضاع الحرجة فان ابن السعود اضطر فى آخر الامر الى اعلان الحرب على دول المحور والى الانضمام الى الدول المتحدة •

- ٥ -

وفى ايران قضت القيادة البحرية للحلفاء على مشروع الشاه لتصنيع بلاده ولتسليح جيشه • فقد تعذر نقل البضائع الالمانية فى الطريق البرى عبر روسيا وان ظل هذا الطريق مفتوحا • كما حال ارتفاع أجور النقل البحرى دون نقلها بحريا • وهذا ما جعل ايران فى وضع اقتصادى حرج • ومساعدة لها عرضت الحكومة البريطانية عليها قرضا بخمس ملايين جنيه استرلينى الا ان الشاه رفض القرض عندما وجد ان بريطانيا لا تستطيع تزويده

بالسكك الحديدية والطائرات وبالاسلحة • ومع ذلك فان ايران أعلنت حيادها ، وان لم يكن الايرانيون محايدين بمجموعهم • وكانت ايران تعتبر ميثاق عدم الاعتداء المعقود بين المانيا وروسيا من الامور غير الطبيعية ، لان المانيا هى العدوة الدائمة لروسيا وان تظاهرا بالصداقة ، ولذا فانها اعتبرت المانيا صديقة طبيعية لايران • ولما كانت بريطانيا حليفة لروسيا فى الحرب العالمية الاولى ، وساعدتها فى السيطرة على ايران عام ١٩٠٧ ، فانها يجب ان تعامل المعاملة التى تلقاها روسيا • يضاف الى كل ذلك ان الايرانيين يعتبرون المانيا سوقا ملائما لاغراضهم الاقتصادية ، ومصدرا لاستيراد ما يحتاجون اليه من بضائع • ومما زاد فى اقبال الايرانيين على الالمان ، انهم كانوا مخدوعين بالدعايات الالمانية ، بانهم والالمان يشتركون بالدم الآرى • واذا ما استثنينا الاقسام الجنوبية والشرقية من ايران حيث يسود النفوذ البريطانى ، فقد كانت جميع الاقسام الباقية من ايران مناصرة لالمانيا • ولا ينكر انه لم تكن منافع شخصية للشاه من وقوفه ذلك الموقف • ولكنه أراد ان تكون بلاده بعيدة عن ويلات الحرب والا تحرم بلاده القومية التى سار على انتهاجها • وان ضغطه على شركة النفط فى العام المذكور لم يكن الا من أجل الحصول على نسبة عالية من العوائد النفطية معادلة لنسبة الكميات المباعة فى الاسواق العالمية ، وهذا مما يدل على عزمه على الا تتضرر البلاد من جراء حرب لا منفعة له بها •

- ٦ -

ومرت سنة ١٩٤٠ دون حدوث انتكاسة خطرة ، مع انها كانت سنة حرجة على بريطانيا • فالميدان الحربى بشمال أفريقيا لم تنتابه أحداث

سيئة ، وان لم يبق البحر المتوسط أمينا على عهده ، وان القطعات العديدة من الجيش الفرنسى المرابطة فى سوريا يجب ان تظل تحت رقابة قوية دائمة •

وفى أوائل عام ١٩٤١ تداعت أضعف حلقات سلسلة الشرق الاوسط ــ أى العراق ــ فقد تصرف القادة العسكريون فى العراق تصرفا بعيدا عن روح المعاهدة الانكليزية العراقية ونصها ، وحرضوا العراقيين لاغتنام الفرصة من أجل تحرير فلسطين من اليهود ، وسوريا من الانتداب • وفى نيسان من عام ١٩٤١ قام الجيش بانقلاب عسكرى تولى رئاسة الحكومة على أثره السيد رشيد عالى معتمدا على مؤازرة القادة العسكريين • وقد ظهر من تصرفات رئيس الوزارة ان العراق سيدفع الى احضان المانيا • وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تسارع للقيام بعمل حاسم يحول دون ذلك • لهذا قررت الحكومة البريطانية ارسال لواء من الجيش الى البصرة تمشيا مع نصوص المعاهدة التى لم يستطع رشيد عالى الاعتراض عليها • وحين وصول اللواء الثانى الى مياه البصرة أصر رشيد عالى على عدم انزاله الى البر ما لم يرحل اللواء الاول • ولم يكن ثمة مبرر لهذا الاصرار ، سيما وان الفيضانات المرتفعة فى البلاد كانت تحول دون ارتحال اللواء الاول •

على ان وصول اللواء الثانى الى البصرة ، واعتقاد رشيد عالى بقرب بلوغ الالمان سوريا ، واحتلالهم لها ، دفعه الى الاسراع بحركته العدائية للحلفاء • غير ان مقاومة الجيش البريطانى فى كريت عرقلت تقدم الالمان نحو سوريا وبددت احلام رشيد عالى • وفشل حصار الجيش العراقى لمطار القوة الجوية البريطانية الواقع على بعد خمسة وخمسين ميلا من بغداد • ويعزى ذلك الى ضعف معنوية الجنود العراقيين وعجزهم عن مقاومة حامية المطار على قلة عددها • وكانت قوة الليفى الآثورية التابعة للجيش البريطانى تسند حامية

المطار ، كما ان امدادات سريعة نقلت اليها من البصرة • وفي الوقت ذاته جاءتهم النجدة مما وراء الصحراء ، من فلسطين • فأنقذت المطار ورفعت الحصار عنه وردت الجيش العراقي على أعقابه • وعندما طلب الى القوات الفلسطينية نجدة حامية المطار ، لم يكن من السهل عليها باديء الامر جمع النجدة المطلوبة ، وان تطوع المتطرفون الصهيونيون ـ ارغون زفاى لومى لتلك النجدة • فلولا مساعدة الجيش العربي لتعذرت نجدة حامية المطار • وبانسحاب الجيش العراقي تداعت الحركة المناهضة للحلفاء في العراق وتولى الحكم نفر من العراقيين مؤمنون بان مستقبل بلادهم رهين بنجاح الحلفاء في الحرب التي يخوضون غمارها • وبمساعدة هذا النفر اصبح العراق مركزا لتنظيم مقاومة الخطر المحوري في الشرق الاوسط • ومما يجب الا يغفل ان المستر ايدن وزير الخارجية أصدر في مايس من عام ١٩٤١ ، قبيل حركة رشيد عالي ، بيانا مشجعا ينطوي على عطف بريطانيا نحو أماني العرب للوحدة • كما اوضح انه في الوقت الذي تساند بريطانيا أي مشروع يقترن بموافقة الاقطار العربية كافة فان المبادئة يجب ان تأتي من العرب أنفسهم •

وثمة خطر آخر ظل جاثما في سوريا • ففي فترة الاضطرابات بالعراق ، لم تكتف السلطات الفرنسية في سوريا بوضع المطارات السورية تحت تصرف الالمان بل قدمت الذخائر الحربية الى رشيد عالي ، ونقلتها بقاطراتها الى العراق • ولهذا اضطرت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة الهجوم على جيش حكومة فيشي ودحره • وقبيل زحف تلك القوات نشر الجنرال كاترو بيانا وعد به نيابة عن الجنرال دي غول منح لبنان وسوريا حرياتهما واستقلالهما ، كما وعد باجراء مفاوضات لعقد معاهدة من أجل تحقيق تلك

الاغراض • واشتركت الحكومة البريطانية بتلك الوعود التى وضحتها فرنسا الحرة ببيان آخر نص على ان جيش فرنسا الحرة يدخل الى سوريا ولبنان لوضع نهاية لنظام الانتداب فيهما • وفى أواسط تموز استسلمت قوات حكومة فيشى وزال الخطر المتوقع منها فى سوريا ولبنان وبذلك تحول الاهتمام الى نقطة حرجة أخرى هى ايران •

- ٧ -

وفى هذه المرحلة اشتركت روسيا بالحرب بعد ان هاجمتها حليفتها المانيا • ولا ريب ان رضا شاه لم يكن يود نجاح روسيا فى الحرب خوفا من اعتدائها على بلاده ، ولكن ليس ثمة دليل على مساعدته الالمان وان كانت الصحافة الايرانية التى تسيطر عليها الحكومة تعنى بنشر أخبار الجبهة الالمانية ، أكثر من عنايتها بأخبار جبهات الحلفاء • كما ان الحكومة الايرانية لم تتخذ التدابير التى تطمئن الحلفاء بان الالمان لن يستطيعوا اضعاف سلطتها فى بلادها كما فعلوا ذلك فى بلاد النروج وهولندا قبيل غزوها • يضاف الى ذلك انه كان من الصعب تخيل الصورة التى كان رضا شاه يرسمها عن العالم • ومع انه كان يتمتع بمواهب عظيمة فقد ظل أميا ويضطر الى الاعتماد على غيره من الناس لمعرفة ما يجرى فى العالم من أحداث • ولشدة مخاوفه من الاجانب وابتعاده عنهم ، اقتصرت صلته بالناس على وزرائه وكبار موظفيه • فكان هؤلا ينقلون اليه ما يسره من الاخبار فقط • ولم يكن لممثلى بريطانيا وروسيا السوفياتية من أثر عليه لانهما قلما كانا يحضيان بمقابلته • وللحد من نشاط الالمان فى ايران اضطرت الحكومة البريطانية الى الفات نظر الحكومة الايرانية نحو تصرفات بعض الضباط الالمان الموجودين فى ايران متسترين

وراء اسماء تجارية يشك فى وجود مؤسساتها • ومن بين اولئك الضباط من ساهم فى اثارة الاضطرابات فى العراق • ومع ذلك فان الشـــاه رفض ان يصغى الى تلك الاخبار مصرا على عدم وجود رتل خامس فى بلاده •

وظل الشاه حتى آخر أيام حكمه يعتقد بانه مسيطر على جميع انحاء بلاده عن طريق موظفى حكومته ورجال شرطته ؛ ولا ريب ان تلك الثقة لم تكن فى موضعها • لان رجال الحكومة والشرطة كانوا فى وضع اقتصادى متدنى من قلة ما كان يدفع اليهم من رواتب ، ولهذا كانوا لا يترفعون عن استغلال وظائفهم فى سبيل الحصول على ما يمكنهم من العيش فى مستوى مناسب • ولا شك ان استغلال الموظفين لوظائفهم هو الذى مكن مفتى القدس ورشيد عالى وغيره من قادة الحركة العدائية للحلفاء فى العراق ، من الالتجاء الى ايران بعد فشل حركتهم ، والسكنى فى طهران عددا من الشهور دون ان تمنعهم الحكومة الايرانية من اتيان الاعمال العدائية التى تضر بقضية الحلفاء• يضاف الى ذلك ان الشاه رفض ان تتخذ تدابير لحجز سبع سفن تجـارية محورية التجأت الى بندر شاه بور • وكانت السلطات البريطانية مقتنعة بان بعض تلك السفن تحمل مقادير من المواد المتفجرة فى مواضع خفية بمخازنها • ولهذا كان يخشى ان تهرب تحت ستار الظلام ليغرقها بحارتها عند مدخل شط العرب ، فيحال دون وصول السفن البريطانية الى العراق ونقل نفط عبادان الى الاقطار التى تحتاج اليه • وقد طلب الى السلطات الايرانية تشديد الرقابة على هذه السفن ، وان تحتجز بحارتها أو ان تنزع منها بعض آلاتها الرئيسية • ولكن الحكومة الايرانية رفضت هذا الطلب مدعية ان تلك السفن لا تحمل مواد متفجرة وان الشرطة الايرانية على أهبة الاستعداد لمنع وقوع أى حادث تخشى الحكومة البريطانية حدوثه • وقد اثبتت الحوادث بطلان

ذلك الادعاء • فعندما دخلت الجيوش البريطانية جنـوب ايران قام بحارة سفينتين من تلك السفن بتفجير ما كانت تحمله من مواد متفجرة واغراقها •

ولا ريب ان الحكومة البريطانية كانت على صواب فيما اتخـذته من تدابير من اجل حماية مصانع النفط فى جنوب ايران من الاخطار التى كان فى الامكان تفاديها لو ان ايران لم تصر على بقائها على الحياد • سيما وان نجاح الحلفاء فى الحرب يتوقف الى حد كبير على انتاج النفط والمواد النفطية • فكانت بريطانيا تخشى ان يقوم جواسيس الالمان الموجودين فى ايران أو الذين يهبط منهم بالمظلات ، كما حدث فعلا ، بتخريب الاجهـزة والمكـائن اللازمة للصناعة • كذلك كانت تخشى من ان تدبر دول المحـور مؤامرة لاغتيال الشاه لاشاعة الفوضى والاضطرابات فى البلاد ، فتسنح الفرصة بذلك للقيام بانزال على طهران وضم الجيش الايرانى الى المحور • ولو تم ذلك فى تلك الظروف الحرجة التى اجتازتها ايران عام ١٩٤٢ ، والالمـان فى بلاد القفقاز من طرف وعلى أبواب الاسكندرية من طرف آخر ، للاقت مصالح الحلفاء فى الشرق الاوسط اعظم الاخطار •

وربما قيل ان السبب الرئيسى للاحتلال الانكليزى الروسى لايران ، الرغبة فى فتح طريق أمين لنقل المساعدات الى روسيا بدلا من الطـريق البحرى الى مورمنسك • الا ان السبب الحقيقى للاحتلال الانكليزى الروسى هو عجز الشاه عن ايقاف نشاط الالمان فى اتخاذه التدابير التى تحول دون قيامهم بأى انقلاب فى البلاد • ويذهب الكثيرون من الايرانيين ومن الكتاب الاجانب الى ان اهداف الحلفاء يمكن تحقيقها دون اللجوء الى الاحتلال • ويكفى لتحقيق تلك الاهداف التهديد بالاحتلال ؟ ولكن التهديد ليس بذى تأثير فى النفوس كالاحتلال • يضاف الى ذلك ان قيام الحلفاء بارسال مقادير

عظيمة من الذخائر الحربية الى روسيا لم يكن ممكنا لو لم يسيطروا على خطوط المواصلات الايرانية، ويضعوها تحت حراسة فرق من جيوش الحلفاء ، واتخاذهم التدابير الفعالة للقضاء على جاسوسية الاعداء ، المتغلغلة فى جميع انحاء ايران . وكما لا يخفى ان من شأن الاحتلال احداث بعض الاضطراب فى الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد المحتلة ، ولهذا رغبت الحكومة البريطانية فى التقليل من تأثير ذلك الاضطراب بقبولها الاقتراح القائل باستبدال الاحتلال العسكرى بعقد معاهدة بين الدول المعنية بالامر ــ بريطانيا وروسيا وايران . ولم يستاء الايرانيون من دخول الجيوش الاجنبية بلادهم ، لانهم كانوا يتوقعون ذلك ، كما كانوا يتوقعون حدوث احد امرين آخرين ، اما ان يتنازل الشــــاه عن العرش بمحض ارادته ، او ان يضطره الحلفاء على ذلك . ومع ان بريطانيا كانت تخشى اثارة الشعب الايرانى عليها اذا سمحت بابقاء الشاه على عرشه ، فان الحلفاء لم يطلبوا اليه التنازل . وان الشاه تنازل دون اكراه ، بعد أن شعر باستياء الشعب لتصرفاته ؟ وتلاشى الامل فى مساندة بريطانيا له بعد ان أخذ القسم الايرانى من محطة الاذاعة البريطانية ينتقد تصرفاته وموقفه من الحلفاء انتقادا مرا . ومما عجل فى تنازله عن العرش ، تقدم الجيوش الروسية المرابطة فى قزوين ، المدينة التى تبعد تسعين ميلا عن طهران واتجاهها نحو العاصمة . وقام الجيش الروسى بهذه الحركة نتيجة الاتفاق القاضى بقيام الجيشين الروسى والبريطانى باحتلال ضواحى طهران ، لكى يعجلوا بطرد ممثلى دول المحور من ايران وبالقاء القبض على اعضاء الممثلية الالمانية فى طهران وتسليمهم الى الحلفاء . وما ان ابلغ الشاه بزحف الجيوش الروسية نحو العاصمة حتى سارع الى كتابة صك تنازله عن العرش تاركا طهران ومتوجها نحو القسم الجنوبى من بلاده . ومن ثمة غادر البلاد على ظهر باخرة بريطانية . وخلفه

ابنه الاكبر محمد رضا • ومع ان الشاه الجديد كان فى الثالثة والعشرين من عمره فقد ابدى شجاعة فائقة فى التعاون مع الحلفاء وفى القضاء على الحياة الاوتوقراطية التى خيمت على البلاد طوال حكم أبيه متبعا نظاما للحكم مبنى على أسس برلمانية •

وانتهت المفاوضات بين الدول الثلاث بالتوقيع على معاهدة ثلاثية فى كانون الثانى من عام ١٩٤٢ ، تقوم ايران حسبها بمساعدة الحلفاء وتقديم جميع التسهيلات الممكنة لمرور الجيوش والذخائر الحربية من بلادها • وابداء المعاونة اللازمة لتوفير ما تحتاجه تلك الجيوش من مواد محلية ومن عمال • كذلك سمح للحلفاء بالاحتفاظ بما يرونه مناسبا لهم من القوات فى ايران ، على ان يتعهد الحلفاء بسحب قواتهم بعد فترة لا تزيد على ستة اشهر بعد انتهاء الحرب ، أو من عقد الصلح ، اى الامرين يتم التوصل اليه اولا • وقبل نهاية الحرب انضمت فرق فنية اميركية الى الجيوش البريطانية والروسية المرابطة فى ايران لتتعهد نقل المساعدات الاميركية الى روسيا • وكانت تلك الفرق تشرف على تسيير القطارات من جنوب ايران حتى طهران ، وكذلك تشرف على النقل البرى بواسطة السيارات من الجنوب الى الشمال •

- ٨ -

واحتلال الحلفاء لايران اثار مخاوف تركيا حتى بعد ان تم عقد المعاهدة الثلاثية • فما ان اجتازت الجيوش الروسية الحدود الايرانية وتوغلت نحو قلب البلاد حتى اصبح الروس يجاورون تركيا من الناحيتين الشرقية والشمالية • يضاف الى ذلك ان تركيا كانت تخشى تسرب الدعاية الروسية الى المناطق الكردية من بلادها ، سيما وقد وقعت المناطق الكردية الايرانية تحت

النفوذ الروسى • ولم تكن سنة ١٩٤١ من السنين المباركة بالنسبة للعلاقات الانكليزية التركية • فالضغط المحورى وضغط الظروف الاقتصادية بلغـا غايتيهما • واضطرت تركيا الى عقد معاهدة عدم اعتداء مع بلغاريا كما عقدت معاهدة صداقة مع المانيا ، تضمنت تأكيدات بعدم الاعتداء على الطرفين المتعاقدين ويتعهدا بحل جميع المشاكل ذات المصالح المشتركة بطرق ودية • وكانت الحكومة البريطانية على بينة من الوضع الحرج الذى صارت اليه تركيا ، كما كانت تقدر الظروف العسيرة التى كانت تجتازها • ومع ان تركيا كانت تشعر بريطانيا سرا بجميع مراحل المفاوضات التركية الالمانية ، الا ان بريطانيا ظلت فى ريبة من موقف تركيا • ومما زاد فى مخاوفها اصرار تركيا على تزويد المانيا بالكروميوم المادة الحيوية للمجهود الحربى • ولم تتوقف عن ذلك الا فى نيسان من عام ١٩٤٤ •

- ٩ -

وتحسن وضع الحلفاء فى مصر تحسنا كبيرا بعد عودة النحاس باشا ، زعيم حزب الوفد ، الى الحكم فى شباط من عام ١٩٤٤ • ومع ان بريطانيا استعملت بعض الضغط لاحداث ذلك التغيير ، فان الشعب المصرى تلقى عودة النحاس برضا وحماس • ولا ريب ان وجود حكومات صديقـة فى مصر والعراق وايران وسوريا جعل الشرق الاوسط فى استقرار مع وجود الالمان على مقربة من طرفيه الشمالى والغربى • ومما يسر ان الحكومة المصرية بقيت صامدة فى احرج الاوقات ، وخاصة عندما كان رومل على بعد اقل من مائة ميل من الاسكندرية • وربما كان المصريون يفضلون البريطانيين المعروفين لديهم على الايطاليين غير المعروفين ، ذلكم لانه كان مقررا انه فى حالة انتصار

دول المحور ستكون مصر من نصيب موسوليني .

وبعد ان حطمت قوات المحور بشمال افريقيا في مايس من عام ١٩٤٣ ، اتجه تيار الحرب اتجاها كفل سلامة الشرق الاوسط . وزاد في اطمئنان ايران ان مؤتمر طهران المنعقد في تشرين الثاني من العام المذكور شدد على تحقيق الوعود التي قطعتها كل من روسيا وبريطانيا لايران في معاهدة عام ١٩٤٢ ، وايدها الرئيس روزفلت . ومع ان الوضع العام للحلفاء تحسن تحسنا كبيرا ، فان تركيا رفضت طلب الحلفاء للاشتراك في الحرب مدعية بان خطوط دفاعها لم تكن بالقوة الكافية ، وان موقفها الحيادي يخدم مصالح الحلفاء كما يؤمن مصالحها الذاتية . فانها ما دامت على الحياد تستطيع حماية سوريا وفلسطين من اعتداء المحور . والتاريخ وحده حكم عادل في سلامة قرار تركيا هذا . غير ان الحكومة البريطانية شعرت بأنها لا تستطيع الاستمرار بارسال مواد حربية الى بلد محايد كتركيا في وقت هي احوج ما تكون اليها في بلدان محاربة أخرى . وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تتوقف عن ارسال المؤن الحربية الى تركيا ، وتسحب البعثة العسكرية البريطانية منها .

- ١٠ -

وكان من نتائج قلة وسائل الشحن البحري ، واضطراب اوضاع التجارة الخارجية خلال سنوات الحرب ، ان جابه الشرق الاوسط مصاعب اقتصادية جمة . ولكي تخفف وطئة تلك المصاعب اقامت الحكومة البريطانية في القاهرة عام ١٩٤١ مركز تموين الشرق الاوسط(١) . وساهمت الولايات

(١) Middle East Supply Centre.

المتحدة فى تدعيم هذا المركز بعد عام من تأسيسه • وكانت الاهداف التى يتوخاها هذا المركز الاقتصاد فى استخدام وسائل الشحن البحرى ، وانماء المصادر الاقتصادية المحلية ، وتنظيم توزيع ما يفيض عن تلك الاقطار مما يتوفر لديها من منتجات اقتصادية وما تستورده من بضائـع من بريطانيـا واميركا • فمما قام به هذا المركز تشجيعه زراعة القمح فى مصر ، والاقلال من زراعة القطن ، وتوسيعه المجال الزراعى فى سوريا • فبمساعدة شركة من جنوب افريقيا ذات اختصاص بجغرافية مياه السقى، امكن ايصال مياه الينابيع فى الجبال لارواء بضع آلاف من الافدنة من اراضى السهل الساحلى لم تزرع فى الماضى لتعذر اروائها • وبذلك زادت الثروة العامة للبلاد زيادة محسوسة ثابتة • كذلك وزع مركز التموين مقادير عظيمة من الموادالمستوردة الخاضعة لنظام الاعارة والتأجير ، كالسكر والشاى والاقمشة والمواد الطبية • وقد تم نقل جميع هذه المواد ببواخر الحلفاء التى كانت تتعرض لمخاطر جد عظيمة قلما كان يشعر بها مستهلكوها ، وحتى اذا ما ادركوا مبلغ تلك المخاطر فانهم قلما يكترثون لها • يضاف الى ذلك ان مركز تموين الشرق الاوسط ساهم بتقديم المساعدات الفنية لامكان دراسة المشاكل الزراعية وغيرها من المشاكل الاقتصادية ، كما ساهم فى مكافحة الجراد والقضاء على أخطاره البالغة • وحتى المملكة العربية السعودية رحبت بالمساعدات البريطانية والمصرية لمكافحة اخطار الجراد • وفى ايران كانت مكافحة الجراد على نطاق واسع جدا ساهم فيها خبراء بريطانيون عاونهم عدد ليس بقليل من افراد الجيش الهندى ومن الموظفين الايرانيين • كما اشتركت الطائرات السوفياتية فى المكافحة برشها المواد السامة من اعالى الجو على المناطق الموبوئة •

ولكثرة ما كانت تنفقه جيوش الحلفاء المرابطة فى اقطار الشـــرق

الاوسط من اموال اخذت بوادر التضخم النقدى تظهر فى هذه الاقطار • ولم تقم حكوماتها بما يخفف من وطئة ذلك التضخم • ذلكم لان السيطرة على التموين وعلى أسعار السلع كان يتطلب ادارات جديدة وحازمة ليس من السهل على بلدان الشرق الاوسط ايجادها • كما ان فرض ضرائب عالية على الدخل لم يكن ليرضى الاثرياء ممن بيدهم مقاليد الحكم • ولهذا أخذت الاسعار بالارتفاع السريع ، فنجم عن ذلك ان اتسعت الشقة بين الاغنياء والفقراء اتساعا كبيرا مخطرا •

وكانت هذه الظاهرة جد بينة فى ايران ولا سيما بعد تنازل الشـــاه عن العرش وتصدع الجهاز الحكومى من أثر ذلك ، سيما وان قوة الحكومة الايرانية كانت مستمدة من قوة الشاه • وعجزت السلطات الايرانية عن جمع الحنطة من المناطق المنتجة لها بالسعر الذى حددته الحكومة وعن توزيع ما يجب توزيعه منها فى المناطق المحتاجة لها • فاضطر الحلفاء الى تمـوين ايران بالحنطة • وقد بلغت كميات الحنطة التى قدمتها الحكومة البريطانية لايران نيف وتسعين ألف طن من الحنطة خلال عامين من احتلال ايران • يضاف الى ذلك ان الحكومة البريطانية عينت على نفقتها الخاصة ، عددا كبيرا من الموظفين لمساعدة السلطات الايرانية فى جمعها الحاصلات الزراعيـــة ولاستلام الكميات الواجبة التسليم الى الحكومة من الحنطة بالسعر المقرر • وبعد ان استخدمت الحكومة الايرانية الدكتور ملسبو[١] وغيره من الخبراء الاميركان لاعادة تنظيم الوضع المالى والاقتصادى فى البلاد ، اشترك الموظفون البريطانيون وحتى الايرانيون المعينون من قبل السلطات البريطانية فى معاونة

---

(١) Dr. Millspaugh.

اولئك الخبراء الاميركان • ولو امكن تعاون الحلفاء الثلاثة فى اتخاذ تدابير اقتصادية فعالة من اجل اصلاح الوضع فى ايران لصارت ظروفها الاقتصادية العامة على خير ما يؤمل منها • غير ان الروس فضلوا اتباع سياسة اقتصادية خاصة • ويعتبر اصرار الروس على تنفيذ سياسة انفرادية من الامور التى يؤسف لها ، سيما وان القسم الشمالى من البلاد خاضع لاحتلالهم وهو غنى بالمواد الغذائية التى تفتقر اليها الاقسام الباقية من البلاد •

وعلى العموم استمرت العلاقات البريطانية الايرانية تتقدم تقدما حسنا • ولما كانت دوائر الاستخبارات البريطانية لا تعتمد كل الاعتماد على الشرطة الايرانية فى اقتفائها أثر الجواسيس والمظليين الالمان والقاء القبض عليهم ، ولان الايرانيين كرماء بالنسبة الى اولئك الذين يستنجدون بهم ، فانهم لم يقدروا ضرورة اعتقال الايرانيين الذين لهم ميول عدائية نحو الحلفاء ، ولذا فان الحلفاء اضطروا انفسهم الى البحث عن الجواسيس الالمان واعتقال الايرانيين الموالين الى دول المحور • ولا ينكر ان عددا ليس بقليل من الساسة البارزين ومن كبار الموظفين الايرانيين تعاونوا تعاونا وثيقا مع الحلفاء ، وان آلاف عديدة من العمال الايرانيين استخدمهم الحلفاء فى بناء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات وانشاء الموانىء وفى غيرها من الاعمال التى كان الحلفاء يحتاجون اليها فى مجهودهم الحربى • فمن أمثلة ذلك ان قوافل سيارات النقل التابعة للشركة التجارية للمملكة المتحدة والتى يقودها سواق وميكانيكيون ايرانيون نقلت مقادير من المساعدات المرسلة الى روسيا اكثر وفرة مما نقلته قوافل السلطات العسكرية الاميركية أو البريطانية أو الروسية • وفى اوائل عام ١٩٤٤ تقدم الى الحكومة الايرانية ممثلو احد شركات

النفط البريطانية وممثلوا شركتين من شركات النفط الاميركية طالبين منح شركاتهم امتياز التحرى عن النفط فى جنوب ايران • وصادف ان تقدمت الحكومة السوفياتية اثناء ذلك طالبة منحها حق التحرى عن النفط فى المناطق الشمالية واستغلال مساحات واسعة من تلك المنطقة اذا ما عثرت على النفط فيها • فما كان من الحكومة الايرانية الا ان تقرر تأجيل النظر بجميع تلك الطلبات الى ما بعد الحرب • وتلقت الشركات البريطانية والاميركية قرار الحكومة الايرانيـة برضى ؛ فهى حكومة مستقلة ولها ان تتصرف ببلادها كما تشاء • غير ان الدعاية السوفياتية هاجمت رئيس وزراء ايران هجوما عنيفا مما اضطره الى الاستقالة كى لا يضع بلاده موضعا حرجا • وخشية ان يتفاقم الامر بين الدولتين ، أسرع البرلمان الايرانى الى تشريع قانون يمنع منح أى امتياز للنفط الى أية دولة أجنبية أو الى أى شخص ما لم يقترن المنح بموافقة البرلمان • كما فرض القانون عقوبات مشددة على من يفاوض من أجل ذلك بدون تخويل من البرلمان •

وفى هذا الظرف الدقيق ظهرت حركة استقلالية فى مقاطعة ازربيجان الايرانية حيث تعسكر الجيوش السوفياتية بمقتضى معاهدة ١٩٤٢ ، وطالب زعماء الحركة بمنح مقاطعتهم استقلالا ذاتيا • واعتقد الايرانيون ان الباعث لتلك الحركة هم الروس • بينما أعلن الروس انها لم تكن الا حركة ذاتية ظلت كامنة بتأثير سياسة الضغط التى كان يتبعها رضا شاه ؛ فلما زالت تلك السياسة أخذت الحركة بالظهور •

- ١١ -

ووضعت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ نهاية للضغط الروسى على جيران روسيا الجنوبيين تركيا وايران والذى دام بضع سنوات • ولكن ما ان انقشع

الخطر الالمانى عن روسيا عند نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عادت الى سياستها القديمة ، فأخذت تضغط على جيرانها من جديد • ومما يجب الا ينسى ان الالمان حاولوا جهدهم اثارة مخاوف كل من روسيا وتركيا فى نوايا الواحدة نحو الاخرى • فادعوا انهم وجدوا من بين الوثائق التى وضعوا ايديهم عليها فى باريس دلائل تثبت ان الاتراك اتفقوا مع انكلترة وفرنسا على القيام بهجوم جوى على باكو فى حالة قيام روسيا بالهجوم على فنلندة • وفى الوقت ذاته كانوا يزعمون بعد ان باشروا بالهجوم على روسيا ، وبعد ان وضعوا نهاية للاتفاق الالمانى الروسى ، ان الروس كانوا يلحون لمعرفة الموقف الذى ستقفه المانيا اذا ما قامت روسيا بضم المضايق الى ممتلكاتها • كذلك ان روسيا كانت تشكو من موقف تركيا الحيادى ففيه مساعدة للالمان • وكان رد تركيا على ذلك ان الاتفاقات العسكرية التى عقدتها مع الحلفاء دليل على بطلان ذلك الزعم • والغريب ان روسيا أخذت تطالب بمقاطعتى قارص واردهان وقد سبق لروسيا ان ردت هاتين المقاطعتين الى تركيا بعد الحرب العالمية الاولى لانها مقاطعات تركية • كما طالبت بمنحها قاعدة بحرية على البسفور لتشترك فى الدفاع عن المضايق • وقد تقدمت روسيا بطلبها هذا الى حلفائها فى مؤتمر بوتسدام معتبرة ان العرض الذى قدمته بريطانيا بالاشتراك مع الولايات المتحدة بما يخص حرية الملاحة فى المضايق عند حالتى السلم والحرب غير كافية لتأمين المصالح الروسية •

ولكى لا تبدى بريطانيا والولايات المتحدة معارضتها لمطاليب روسيا غير العادلة طلبت الدولتان من الحكومة التركية الاسراع بعقد مؤتمر يعيد النظر بميثاق مونترو المعقود عام ١٩٣٦ ، سيما وان فيه ما يفسح المجال لاعادة النظر بمواده كلما دعت الظروف الى ذلك • ومع ان التعديلات التى اقترحتها

بريطانيا والولايات المتحدة ليست بذات أهمية كبيرة الا ان عقد المؤتمر سيفسح المجال أمام روسيا لازالة ما كانت تشعر به من مخاوف بالنظر لموقف تركيا • ومع ذلك فأن الروس رفضوا فى مذكرة تهديدية اقتراح تركيا لاعادة النظر فى الميثاق المذكور •

وفى الوقت ذاته كانت صحافة روسيا وأذاعتها تقوم بحرب دعاية واسعة ضد تركيا • وان حكومة جورجيا التابعة لروسيا أخذت تطالب بضم جزء كبير من بلاد الانضول اليها• واتهمت روسيا تركيا بأنها سمحت لبريطانيا باقامة قواعد عسكرية بالقرب من المضايق ، وشجعت الشيوعيين اليونانيين ليقوموا بحركات اعتدائية على الحدود التركية اليونانية ؛ الامر الذى دعى تركيا الى تشديد الرقابة على تلك الحدود أيضا • ولم تكن تركيا لتكترث لتهديدات روسيا ولكنها كانت مضطرة الى الاحتفاظ بجيش كبير على أهبة الاستعداد • يضاف الى ذلك ان تكاليف التجنيد العام الذى دعت اليه تركيا خلال سنوات الحرب اثقل كاهل الاقتصاد التركى • وقد اشارت الى ذلك المذكرة التى وجهها الرئيس ترومان الى الكونغرس الاميركى فى مارت من عام ١٩٤٧ • فمما جاء فى تلك المذكرة ان تركيا طلبت مساعدات مالية من بريطانيا ومن الولايات المتحدة ليتسنى لها القيام بما يمكنها من المحافظة على سلامة استقلالها • ولم يكن فى وسع الحكومة البريطانية بعد اليوم تقديم المساعدات المالية لتركيا • وان الولايات المتحدة الاميركية وحدها تستطيع ان تمد لها يد المساعدة • وغرض تلك المساعدات « ضمان تطور الشعوب تطورا بعيدا عن تيارات الحرب ، وانماء مؤسساتها الحرة ، وضمان سلامة استقلالها من الحركات الاعتدائية التى تهدف الى فرض نظم جماعية ، تلك النظم التى من شأنها ان تضعف أسس السلام ، وبالتالى سلامة الولايات المتحدة » • وتلبية

لطلب الرئيس ترومان قرر الكونغرس تخصيص اعتمادات وافرة لمساعدة تركيا (وكذلك اليونان) ، كما أقر تلبية طلب الاقطار المتخلفة للخبراء المدنيين والعسكريين ليساهموا في اعمارها •

- ١٢ -

واذا ما كان الضغط الروسي على تركيا ضغطا خارجيا ، فانه كان بالنسبة الى ايران ضغطا داخليا • ومرد ذلك وجود الجيوش الروسية في شمال ايران ، وان كان وجودها لا يعني احتلال البلاد احتلالا عسكريا • وقد سبق لبريطانيا وروسيا ان اتفقتا على رفض طلب حكومة ايران بشأن سحب جيوشهما من بلادها حالما يتحقق اندحار المانيا • لان الشرق الاوسط بنظر هاتين الدولتين حلقة هامة من حلقات سلسلة مواصلات الحلفاء لدحر اليابان • على ان بريطانيا وايران اتفقتا على سحب جميع الجيوش الاجنبية من الاراضي الايرانية بعد انقضاء ستة أشهر من تاريخ تسليم اليابان ، أي بعد اليوم الثاني من مارت عام ١٩٤٦ • وكانت روسيا السوفياتية مؤيدة لذلك الاتفاق بدليل الرسالة التي وجهها وزير خارجيتها الى وزير خارجية بريطانيا في ايلول من عام ١٩٤٥ ؛ والتي يقول فيها ان الاتحاد السوفياتي يعلق « أهمية بالغة » على تنفيذ الالتزام المذكور • وقد اضطرت الحكومة الايرانية الى رفع شكواها الى هيئة الامم المتحدة قبل حلول شهر مارت سنة ١٩٤٦ لتصرف روسيا في ايران • فقد اشتدت عنفا حركة ازربيجان ضد حكومة طهران • الامر الذي اضطر الحكومة الايرانية الى ارسال قوة من الجيش بقصد تقوية حامية تبريز • ولكن السلطات السوفياتية ، مع ادعائها بانها محايدة ، اوقفت تلك القوة في قزوين ومنعتها من التقدم • وفي كانون الاول عندما استولى

الثوار في ازربيجان على المواقع الهامة من المدينة منع الروس خروج الحامية الايرانية في تبريز من معسكراتها •

وقد حاول البريطانيون والاميركان ايجاد حل لهذه المعضلة ولكنهم فشلوا ، كما عجزت الحكومة الايرانية من اقناع الحكومة السوفياتية لاجراء مفاوضات بشأن ازربيجان • ولهذا تقدمت ايران بشكواها ضد روسيا الى مجلس الامن ، على أساس ان تدخل السوفيات في الشؤون الداخلية لايران من شأنه ان يؤدي الى احتكاك دولي • وقد حاول ممثلا روسيا السوفياتية واوكرانيا في المجلس التذرع باتهامات لا صحة لها ، زعموا فيها بان الحكومة البريطانية تتدخل بشؤون اليونان واندونيسيا الداخلية • فلما لم تجد تلك الاتهامات نفعا أعلنت الحكومة السوفياتية استعدادها لمتابعة المفاوضات التي قطعتها الحكومة الايرانية • فوافق المجلس على استمرار المفاوضات المباشرة بين الطرفين المتنازعين على أن يشعر المجلس بتطورات تلك المفاوضات •

وحل اليوم الثاني من شهر مارت سنة ١٩٤٦ دون ان تنته المفاوضات • بينما ارتحلت الجيوش البريطانية في ذلك اليوم وسبقتها قبل ذلك الجيوش الاميركية • اما الروس فقد أعلنوا بأن جيوشهم في الوقت الذي تنزح فيه عن القسم الشمالي الشرقي من ايران فانها ستظل مرابطة في المقاطعات الشمالية الاخرى الى ان ينجلي الموقف • وقد « انجلى » الموقف في شهر نيسان عندما استطاع الروس الحصول من رئيس الوزراء قوام السلطنة على وعد خطي بانه سيتقدم الى البرلمان بلائحة قانون يجيز تأليف شركة النفط الايرانية السوفياتية • وستكون اسهمها موزعة بين الدولتين بنسبة ٥١ ٪ لروسيا و ٤٩ ٪ لايران ،وان تحل القضية الازربيجانية حلا سلميا وبروح مراعاة حقوق السكان • وبعد ان تم الاتفاق على ذلك سحبت ايران شكواها من

مجلس الامن • وبعد مرور شهرين من التاريخ الذى حددته معاهدة عقدت بين الدولتين للانسحاب ، نزحت الجيوش الروسية فعلا عن ايران • وقد تأخر تقديم لائحة القانون السابق الذكر نتيجة تأخر اجراء الانتخابات العامة ولاسيما في ازربيجان • لان اعادة السيطرة الايرانية على تلك المنطقة تطلب وقتا طويلا ـ حتى آب من عام ١٩٤٧ ، فلما رفض المجلس هذا القانون بأكثرية ساحقة ، حملت الدعاية الروسية حملة عنيفة مركزة على قرار المجلس ، وعزته الى نكوث رئيس الوزارة الايرانية بوعده ، وانه تآمر مع شركة النفط الايرانية الانكليزية • والحقيقة ان الدعاية الروسية عزت موقف ايران هذا الى كل شيء عدا السبب الحقيقي ، وهو خوف ايران من نفوذ التأثير الروسي الى بلادها ، ومن تدخل الروس فى الشؤون الداخلية اذا ما سمح بتأليف شركة نفط يسيطر عليها الروس •

وبالوقت ذاته أخذت الدعاية السوفياتية فى مهاجمة المصالح البريطانية • وكان حزب تودة الذى يترسم الخطى السوفياتية يعاون ويشجع تلك الدعاية • فدبر اضرابا بين عمال شركة النفط الايرانية الانكليزية ، وسادت فى البلاد دعاية مفادها ان شركة النفط تستخدم العرب بدلا من الايرانيين • وحدوث اضراب فى مؤسسات النفط بمدينة كركوك فى العراق يدل على أمرين : احدهما وجود اتصال بين عمال شركة النفط الايرانية الانكليزية وعمال شركة نفط العراق ، والاخر ان رؤساء الشعب المهيمنة على شؤون العمال فى الشركتين لم يحسن اختيارهم • سيما وان عمال شركات النفط يتمتعون بشروط استخدام لا يتمتع بها غيرهم من مستخدمي المؤسسات الاخرى فى ايران والعراق •

كذلك اتهمت الدعاية السوفياتية بريطانيا بانها أثارت الاضطرابات فى

جنوب ايران وحرضت القبائل العربية عام ١٩٤٦ ضد الحكومة المركزية • والحقيقة ان عشائر جنوب ايران كانت ترفض دائما سيطرة طهران وان حركتهم تلك لم تكن الا انتفاضة على ما كان يفرضه عليهم رضا شاه من ضغط وشدة • ويعزو البعض حركة تلك القبائل الى نزعة قومية لمقاومة سياسة طهران المستوحاة من الحكومة السوفياتية ، ومن أعوانها فى ايران ـ اعضاء حزب تودة • ومهما كانت الاوضاع الراهنة يوم ذاك فى ايران ، فان وجود حكومة قوية مما يدعم المصالح البريطانية • ولهذا السبب ولغيره من الاسباب قررت الحكومة البريطانية عام ١٩٤١ وجوب الكف عن تشجيع أية قبيلة ايرانية ضد حكومتها مهما كانت أسباب تذمرها من حكومتها • ومنذ ذلك الحين ظلت الحكومة البريطانية أمينة على تنفيذ ذلك القرار • وكم انزعجت السلطات البريطانية فى ايران بادىء الامر عندما وجدت ان الحكومة الايرانية ميالة الى تصديق التقارير السوفياتية بأن اثنين من الموظفين البريطانيين اتصلوا بالقبائل فأثاروهم ، ولذا فقد طلبت سحب ذينك الموظفين • الا ان الحكومة الايرانية بعد أن تأكدت من بطلان المزاعم السوفياتية لم تلح على طلبها السابق ، مما يدل على ان ذلك الطلب لا يمثل الميل الحقيقى للحكومة الايرانية نحو الحكومة البريطانية أو نحو الموظفين البريطانيين •

وبعد ان قررت حكومة الولايات المتحدة الاميركية مساعدة ايران لدعم كيانها الداخلى ، تبدل الوضع فيها وأخذت الدولة تزداد قوة • ففى كانون الثانى من عـام ١٩٤٨ منحت الولايات المتحـدة ايران قرضا بمبـلغ خمس وعشرين مليون دولار ، ليتيسر لايران شراء مواد حربية من الولايات المتحدة الاميركية يحتاج اليهـا الجيش والدرك الايرانى ، القـوتان اللتان تعهـدت تنظيمها مجموعة من الضباط الاميركان منذ سنوات عدة • وما ان تأكدت

الحكومة السوفياتية من قبول ايران ذلك القرض حتى قدمت احتجاجا شديد اللهجة مدعية بأن المستشارين الاميركان يعدون ايران لان تكون قاعدة للولايات المتحدة وانهم ينشؤون مطارا بالقرب من الحدود الروسية ، كما انهم يقيمون استحكامات عسكرية عندها • وان موقف ايران هذا مخالف لاحكام المعاهدة الروسية الفارسية المعقودة عام ١٩٢١ ، التى نصت على انه يجوز لروسيا ان تبعث بجيوشها الى ايران اذا ما استخدمت ايران قاعدة عسكرية لحركة معادية لروسيا • ومع ان الفقرة التى تمسكت بها روسيا حددت مفعولها الرسائل المتبادلة بين ايران والحكومة القيصرية ، فأن جميع التهم المضمنة فى تلك المذكرة ردتها حكومة واشنطن ردا شديدا • وفى شهر مايس من عام ١٩٤٨ قررت الولايات المتحدة ان تبعث الى ايران بمقادير من الاسلحة التى لا يمكن ان تستخدم للاعتداء على دول أخرى ، بضمنها بعض الدبابات والمدافع وطائرات مقاتلة ، بلغت كلفتها ستين مليون دولار • وكان الغرض الاول من هذه المساعدة دعم سلامة البلاد الداخلية • فالاستقرار الداخلى لبلدان الشرق الاوسط كافة وايران خاصة من الشؤون التى تعنى بها الولايات المتحدة الاميركية ، وتهتم بها •

وفى عام ١٩٤٩ بدأت المفاوضات بين بريطانيا وايران بشأن ناحيتين هامتين من نواحى المصالح البريطانية فى ايران ــ البنك البريطانى وشركة النفط • فان امتياز البنك الامبراطورى فى ايران ادرك نهايته ، ومع ذلك فقد سمح له بمتابعة أعماله حسب شروط وافقت عليها الحكومة الايرانية • اما امتياز شركة النفط الانكليزية الايرانية فانه لا ينتهى الا فى عام ١٩٩٣ • وبالنظر للسياسة التى انتهجتها الحكومة البريطانية بشأن توزيع الارباح والتى أقرتها الشركة ، فانها أبدت استعدادها لان تدخل فى مفاوضات مع الحكومة

الايرانية تهدف منها تذليل المصاعب الناشئة عن تنفيذ تلك السياسة • وبطلب من الحكومة الايرانية فان مجـال المفاوضات اتسـع حتى شمل المشـاكل الاقتصادية الاخرى • وفى تموز من عام ١٩٤٩ تم الاتفاق على جميع النقاط المختلف عليها • ومما اتفق عليه الطرفان زيادة عوائد النفط زيادة تجعل مدخولات الدولة من النفط مصدرا هاما لتمويل وانماء مشاريعها الاقتصادية •

- ١٣ -

عندما بدأت الحرب العالمية الثانية كانت سوريا ولبنان تحت السيطرة الفرنسية • فلما شارفت الحرب على نهايتها ، نالت سوريا كمـا نال لبنان استقلالها الكامل • وانتهت الوعود الفرنسية بمنح سوريا استقلالها وانهاء الانتداب ببيان اصدرته فرنسا بأنها لن تتخلى عن « صداقتها » أو المكانة الممتازة التى استطاعت الحصول عليها خلال قرون مضت • كذلك أعلنت بريطانيا بعد اخماد مقاومة جيوش فيشى فى سوريا ولبنان ، ان ليس لها مطامح فى هذين البلدين ، وانها تعترف بمكانة فرنسا الممتازة فى القطرين المذكورين • ولما كان نظام الحكم خلال مدة الانتداب الفرنسى جد معقدا ، ولا ينسجم مع حياة الفرد الحر فان الاتجاه العام كان لتغييره • فما أن أصر الفرنسيون على اجراء انتخابات حرة حتى جاءت النتائج خلاف ما كانوا يتوقعون • فقد فاز القوميون فوزا ساحقا • فلما استلموا مقاليد الحكم اشغل الوطنيون الوظائف التى كان الفرنسيون يشغلونها من قبل • ولم يرض الفرنسيون عن هذه النتائج ، سيما وقد وجدوا أنفسهم معزولين عن وطنهم الاصلى ، أقلية خارج بلادهم ، ولهذا ترددوا فى التوقيع على الوثيقة التى تضع نهاية لعلاقاتهم بهذه البلاد ، تلك العلاقات التى بدأت منذ العهد الصليبى • فما كان منهم الا ان

قاموا بعمل لم يكن متوقعا ، ولا يدل على حكمة ، وهو القبض على رئيس وزراء لبنان واعضاء وزارته ، واودعوهم السجن • ولم يطلق سراحهم ويعادوا الى مناصبهم الا نتيجة للضغط البريطانى الشديد •

وانتهت الازمة بأن عقدت اتفاقات بين الفرنسيين واللبنانيين والسوريين، نقلت السلطات التى كان الفرنسيون يمارسونها سابقا الى ابناء البلاد • ومع ان الكتائب العسكرية المؤلفة من الوطنيين سلمت الى الحكومات الجديدة ، الا ان الطرفين لم يتوصلا الى اتفاق بشأن « الجيوش الخاصة »(١) • وقد عزى الفرنسيون الاسراع بحل هذه المشاكل الى الموقف المعادى الذى وقفه الوزير البريطانى • ومع ان خلف الوزير المذكور حاول جهده التوسط بين الفرنسيين والحكومات الوطنية فى سوريا ولبنان الا انه عجز عن تقريب وجهات نظر الطرفين ، لان الفرنسيين كانوا يصرون على الابقاء على ما كان لديهم من قواعد عسكرية وجيوش فى البلدين • ومما زاد فى الامر تعقيدا وصول الجيوش السنغالية الى سوريا فور عقد الهدنة مع الالمان مما أثار مخاوف السوريين واللبنانيين وجعلهم يعتقدون بأن الفرنسيين بعد ان زال عنهم الخطر الالمانى يهدفون من استقدامهم تلك الجيوش اتباعهم سياسة الشدة • وكان من أثر تصلب الفرنسيين فى سياستهم هذه ، ان حدثت معارك بين الطرفين فى مواضع مختلفة من البلاد ، بلغت شدتها عندما قصف الفرنسيون دمشق بمدافعهم الثقيلة ، قصفهم لها عند احتلالها قبل نيف وعشرين عاما • ولما كان استقرار الشرق الاوسط من الامور الهامة بالنسبة لحرب الحلفاء مع اليابان ، فان القيادة العامة البريطانية أصدرت أوامرها الى السلطات الفرنسية بوجوب ايقاف المعارك ، وحجز عساكرها فى ثكناتهم • وقد اضطرت السلطات الفرنسية

---

(١) (1) Tropes Speciales.

الى الرضوخ لرغبة القيادة البريطانية فى نهاية عام ١٩٤٦ ، بعد ان استنجدت حكومتا لبنان وسوريا بهيئة الامم المتحدة • فانسحبت جميع الجيوش البريطانية والفرنسية من هذا الجزء من الشرق الاوسط •

ويعزو الفرنسيون فشلهم فى سوريا الى مؤامرة دبرها البريطانيون ، متناسين ما ارتكبوه من أخطاء فى تلك البلاد ، ومتجاهلين ثورة الشرق على الغرب • ومما زاد فى حنقهم استخدام الحكومة السورية بعض المستشارين البريطانيين ، وقد اعتبر الفرنسيون هذا العمل انتهاكا لتعهدات سوريا بانها ستعطى المكانة الاولى الى فرنسا والفرنسيين • ومما يجب ان يوضح بهذا الصدد ان ذلك الالتزام مقترن بالتزام آخر تلكأت فرنسا فى تنفيذه ، وهو الاعتراف باستقلال كلتا الدولتين ـ سوريا ولبنان • ومما لا ريب فيه ان البريطانيين لا يترددون فى الاعتراف بأى تفضيل تمنحه حكومتا سوريا ولبنان الى الفرنسيين • غير ان الضغط على تينك الدولتين لمنح الفرنسيين التفضيل المذكور ، أو السماح لفرنسا لاذلال السوريين واللبنانيين على حساب الاضرار بخطوط مواصلات الحلفاء مع الشرق فأمور فيها نظر • ومن الغريب ان الفرنسيين كانوا دوما يصرون على زعمهم بان سلسلة المؤامرات البريطانية التى بدأت عند احداث حكومة فيصل فى دمشق عام ١٩١٨ ، هى التى حرمتهم من حقهم التاريخى فى هذا الجزء من الشرق • والشكوك المتبادلة بين فرنسا وانكلترة قديمة وبالغة حدودها القصوى • ففى أوائل القرن الثامن عشر كان الانكليز النازحون الى اميركا يزعمون بان الجزويت الفرنسيين كانوا يعلمون الهنود بان انكلتره ليست الا مقاطعة تابعة الى ملك فرنسا ، وهذا ما دعى السلطات الانكليزية الى استقدام طائفة من زعماء الهنود الى انكلترة ليتثبتوا بأنفسهم من ان لا علاقة لملك فرنسا بانكلترة • وربما كانت مزاعم الانكليز

عن الجزويت ليست بأكثر صدقا من التهم التى كان الفرنسيون يتهمون بها الضباط الانكليز ، بانهم كانوا يحرضون العرب على مهاجمة السيارات الفرنسية ، واغتيال من فيها حتى وان كانوا من النساء •

- ١٤ -

وما ان أدركت مصر ان الحلفاء كاسبون الحرب ، حتى أخذت تطالب بتعديل المعاهدة المصرية البريطانية ، مقابل ما قدمته لبريطانيا من خدمات خلال سنوات الحرب• وكانت مدة المعاهدة عشرين عاما، الا ان احدى موادها جوزت تعديلها بعد اتفاق من الطرفين المتعاقدين ، وعلى ان ينسلخ من عمر المعاهدة عشرة أعوام ؛ وبمعنى آخر انه لا يجوز اجراء مفاوضات لتعديلها قبل كانون الاول من سنة ١٩٤٦ • ولكى يبرر المصريون طلبهم تعديل المعاهدة قبل التاريخ المحدد للتعديل ، أعلنوا ان التوقيع على المعاهدة جرى بظروف قاهرة ، وانهم اكرهوا على التوقيع عليها • متناسين ان الظروف القاهرة الناجمة عن وجود الجيوش البريطانية فى مصر كانت أخف وطئة على المصريين من الظروف التى كانت تهددهم باحتلال موسولينى لبلادهم ، ذلك الاحتلال الذى حالت دونه بريطانيا وحلفاؤها • وقد أغتيل رئيس الوزراء الذى تولى الحكم بعد النحاس باشا ، أى بعد ان نحيت وزارة الوفد فى تشرين الاول عام ١٩٤٤ ، لانه دفع مصر لاعلان الحرب على المانيا • وكان من أثر ذلك ان قدمت الحكومة المصرية فى كانون الاول من عام ١٩٤٥ طلبا خطيا لتحقيق هدفين رئيسيين : سحب جميع الجيوش المصرية البريطانيـة من مصر ، والاعتراف « بوحدة وادى النيل » بضـم السـودان الى التاج المصرى • وأعلنت الحكومة البريطانية استعدادها للمفاوضة من أجل سحب جيوشها

من مصر ؛ كما انها اوضحت بجلاء ان ذلك لن يتم ما لم تتخذ التدابير من أجل تحقيق التعاون المتبادل الذى اشترطته معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وما لم ينته أمد المعاهدة • وقام الطرفان بمفاوضات لم تبلغ غاية حاسمة ؛ ذلكم لان الوفد المصرى المفاوض لم يرض بقبول أية قاعدة عملية للتعاون المتبادل • فآثر المصريون الرجوع بقضيتهم الى هيئة الامم المتحدة ، معتقدين بان الهيئة ستأخذ بوجهة نظرهم • ولكن سرعان ما اصيبوا بخيبة أمل بعد ان قررت الامم قرارها المعروف بشأن فلسطين • ومع ذلك فان المفاوضات لم تنقطع الا بسبب اختلاف وجهات النظر بشأن السودان • فقد كانت وجهة نظر الحكومة البريطانية ان يترك للسودانيين حرية تقرير مصيرهم ، سواء ارغبوا بالانضمام الى مصر أم بالاستقلال عنها ؛ بينا كان المصريون يرغبون بربط السودان بمصر ربطا نهائيا ، تاركين للسودانيين أمر اختيار شكل الاتحاد المطلوب •

ومع توقف المفاوضات ، فان الحكومة البريطانية سحبت جميع جيوشها من القاهرة ومن جميع المناطق الاخرى عدا منطقة قنال السويس • وبدلا من ان يقدر المصريون موقف بريطانيا هذا ، فانهم قاموا بمظاهرات عنيفة وصاخبة اشترك فيها طلاب المدارس على اختلاف مراحل دراستهم • فكان من أثر ذلك ان اغتيل عدد من الجنود البريطانيين وبعض الساسة من المصريين • ودبرت مؤامرة للقيام بحركة اغتيالات واسعة • ولتقدير مبلغ شدة هذه الحركات لا بد من التنويه بان المصريين كانوا يعاملون خصومهم من المصريين بعنف وبشدة • وقد بلغت نسبة الاغتيالات فى تلك الفترة ، اذا ما قيس عدد الاغتيالات بسكان القطر ، خمسين مرة للنسبة ذاتها فى المملكة المتحدة •

ولم يكن المصريون على بينة من مدى تأثير هيئة الامم المتحدة وحيادها ؛ ولهذا غابت عنهم الحقائق المتعلقة بالدفاع عن الشرق الاوسط ؛ فظلوا على

اعتقادهم بان الهدف من الاحتفاظ بالجيوش البريطانية فى منطقة القنال ، هو الضغط على حكومة مصر ، والتدخل فى شؤونها الداخلية • كذلك ظهر للطرفين ان مسألة السودان لا يمكن حلها عن طريق المفاوضات والاتفاقات ، لانها تتعلق بتثبيت حقوق طرفين غير متفقين • فقد كان المصريون يطالبون « بوحدة وادى النيل » ، لان اعباء الحملة التى وجهت لاعادة احتلال السودان ، سواء فى المال والرجال ، كانت تقع على كاهل المصريين ، بينما كان البريطانيون يدعون بان التنظيم الادارى والمالى والعسكرى الذى حظيت به مصر ، يعود الفضل فيه الى البريطانيين أنفسهم ؛ ولولا ذلك التنظيم لما تيسرت اعادة احتلال السودان • يضاف الى ذلك ان الجيوش البريطانية التى اشتركت فى الحملة المصرية هى التى تلقت المسؤولية الكبرى من الحملة ؛ وان التقدم الذى حاز عليه السودان خلال نصف قرن ، كان بفضل الادارة البريطانية • وكان من الاجدر الاخذ بتلك الاعتبارات الا ان المصريين تغاضوا عنها • ويمكن تلخيص معضلة السودان بانها انماء الحكم الذاتى فى هذا القطر انماءا يسمح للسودانيين بتقرير ما اذا كانوا يرغبون باقامة دولة مستقلة ، ام ان يؤلفوا اتحادا أو أئتلافا مع مصر •

ومما زاد فى تعقيد مشكلة السودان ان القسم الجنوبى منه تستوطنه قبائل بدائية تختلف كل الاختلاف عن سكان الشمال • فهؤلاء مسلمون من أصل عربى وليس من تقارب بينهم وبين أهل الجنوب فى اللغة والمعتقد • ومن عوامل تعقيد المشكلة اصرار المصريين وعنادهم وتغافلهم عن تطور السودان سياسيا ، ووعى أهله وعيا قوميا • فان التعديلات التى اقترح المصريون ادخالها على الدستور السودانى ، كانت لا تنسجم مع الموقف الذى وقفته الحكومة البريطانية ، وهذا ما أدى الى تنفيذ الدستور فى البلاد بمعاونة

البريطانيين دون المصريين • وقد قاطع الانتخابات أحد احزاب الشمال الذى كان يطالب بالاتحاد مع مصر ، ومع ذلك فقد أخذت الانتخابات مجراها الطبيعى ، فجاء المجلس المنتخب دليلا على شعور السودانيين نحو بلادهم ومسؤولياتهم نحو أنفسهم • ومما لا ريب ان بحث المعضلة من ناحيتها الاقتصادية سيلقى ضوءا على المعضلة • لقد أدرك المصريون ان السيطرة على السودان لا تعنى السيطرة على النيل ، لان السيطرة على هذا النهر العظيم ، تتوقف الى حد كبير على الحبشة وعلى يوغندة ، وسبق للحكومة المصرية ان وافقت على قيام الحكومة البريطانية بمشروع للرى عظيم على النيل فى يوغندة وفى أعالى السودان • ومع ان اكمال هذا المشروع يتطلب مدة تقرب من ربع قرن الى ان المنافع التى سيجنيها ابناء مصر والحكومة المصرية ستكون جد كبيرة •

- ١٥ -

وبحسب أحكام معاهدة ١٩٣٠ كان العراق حليفا لبريطانيا • وسيبقى حليفا لها ما دامت المعاهدة المذكورة نافذة المفعول مدة خمس وعشرين عاما من تاريخ دخوله عصبة الامم فى عام ١٩٣٢ • ومع ذلك فان العراق ، شأن مصر ، حاول ان يجعل من الحرب وسيلة تمكنه من الحصول على بعض الامتيازات من الحكومة البريطانية • ومع ان العراق تناسى حركة رشيد عالى فى سنة ١٩٤١ ، تلك الحركة التى لو قدر لها النجاح لصارت سببا لاطالة الحرب وللاضرار بمصالح الحلفاء ، فان محاولته الحصول على بعض الامتيازات كانت من الامور الطبيعية ، وتلبية لرغبة العراق أجرت الحكومة البريطانية مفاوضات لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٠ ، تكللت بالتوقيع على معاهدة

بورتسموث فى شهر كانون الثانى لسنة ١٩٤٨ ؟ تلك المعاهدة التى نصت على وجوب السعى من اجل ايجاد سلام وصداقة متبادلة بين الدولتين ، وان التحالف بينهما يجب ان يستمر • وأهم ما ورد فى هذه المعاهدة المادة المتعلقة بالقواعد الجوية • فقد اتفق الطرفان على ان القواعد الجوية « من العناصر الاساسية للدفاع عن العراق نفسه ، وعن السلامة الدولية • كما انها حلقة فى المواصلات الرئيسية لكلى الفريقين » • وبحسب هذه المادة منحت المعاهدة القوة الجوية الملكية البريطانية حق اشغال القاعدتين العراقيتين الرئيسيتين « حتى يحين الوقت الذى يتم فيه تنفيذ معاهدات الصلح مع جميع دول الاعداء » • ومع ان الحكومة العراقية المخولة بالتوقيع على هذه المعاهدة كانت تستند على أكثرية فى البرلمان العراقى ، فانها لم تكن تمثل الشعب التمثيل الحقيقى ، لفقدان النظام الحزبى المستند على مبادىء مقررة ومعلن عنها • وأكثر من ذلك ، كانت تسود البلاد موجة من التذمر ناجمة عن سوء ادارة مشروع الخبز ، فاستغلت المعارضة هذا التذمر ووجهت ما كانت تنظمه من مظاهرات نحو المعاهدة الجديدة • وبعد ان استفحل الامر ، استقالت الوزارة ، ووعد الوصى على عرش البلاد الشعب بان معاهدة سنة ١٩٣٠ لن تعدل •

- ١٦ -

بعد استسلام الالمان ، حول الصهيونيون أهتمامهم نحو يهود أوربا الذين نجو من مذبحة هتلر • فان الفئة التى استطاعت البقاء فقدت جميع ما تملك ، واصبحت فى درجة بالغة من العوز والفاقة • حتى ان الكثيرين من يهود أوربا اصيبوا بأمراض عصبية وجسمية نتيجة ما لاقوه من أهوال • وكان الصهيونيون يطالبون بفتح أبواب فلسطين على مصاريعها لاولئك اليهود •

ولم يكن متوقعا من أناس نكبوا بأموالهم وفقدوا أقاربهم وأصحابهم في المعتقلات النازية ، ان يتصرفوا تصرفا هادئا متزنا بالنسبة لقضية الهجرة الى فلسطين • وقد لاقت العناصر اليهودية المتطرفة تأييدا من جهات متعددة • فان كلا المرشحين لانتخابات رئاسة الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٤٤ ، ايدا المشروع المعروف « بمنهج بلتمور »(١) ، كما ان الرئيس ترومان وجه طلبا الى الحكومة البريطانية للسماح بهجرة مائة الف يهودى من أوربا الى فلسطين • كذلك ان انتصار حزب العمال في انتخابات عام ١٩٤٥ ، زاد في نشاط الصهيونيون زيادة كبيرة ، سيما وان حزب العمال يعطف عطفا شديدا على الوطن القومى اليهودى ، وأكثر من ذلك ان اليهود اعتبروا الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ « غير قانونى » ، لانه لم يقترن بمصادقة لجنة الانتداب في عصبة الامم ، وافترضوا ان الحكومة البريطانية استخدمته كتدبير حربى مؤقت لاستمالة العرب ، وسوف تتنكر له حالما تنتهى حاجتها لتأييد العرب لها في الحرب • فلما أدركوا ان الحكومة البريطانية لا زالت تتمسك بالتزاماتها التى فرضها عليها صك الانتداب ، وانها لا تسمح بالهجرة المطلقة الى فلسطين ، وجهت المنظمات الصهيونية في أوربا وامريكا فيضا من الهجرة غير المشروعة نحو فلسطين • وبالوقت ذاته بدأ الارهابيون بتخريب الجسور وخطوط السكك الحديدية وغيرها من المؤسسات العامة؛ وانتهت حركتهم بتأليف عصابات منظمة تقوم بأعمال ارهابية • وكان موقف الوكالة اليهودية متباينا بالنسبة الى هذه الاعمال • وكما يتضح من الوثائق التى حصلت عليها السلطات البريطانية ، ان الوكالة اليهودية بلندن كانت على اتصال وثيق بالاعمال الارهابية التى قام بها الصهيونيون عام ١٩٤٥ • فكانت تعليمات الوكالة

---

(١) Biltmore Programme.

للارهابيين ان يتحاشوا من « الاصطدام العام » والاقتصار على « الفعاليات المنفردة » • وفي بعض الظروف كانت الوكالة تحاول التعاون مع السلطات الادارية ، مظهرة استنكارها للاعمال الارهابية ، ومع ذلك فانها كانت تبدي عجزها عن ايقاف تلك الاعمال ، لكونها لا تقر السياسة البريطانية •

ومن الغريب ان العرب واليهود كانوا متفقين على فكرة واحدة تتلخص بان القضية الفلسطينية بسيطة سهلة الحل ، فكان العرب يدعون ان كل ما يطالبون به ايقاف الهجرة اليهودية ومنح سكان البلاد بوضعهم الراهن حكما ذاتيا • بينما كان اليهود لا يرضون من الحكومة البريطانية بغير اطلاق الهجرة اليهودية من غير تحديد ، والوقوف بوجه العرب ورد مطاليبهم • ولا ريب ان العرض المتقدم في الفصول السابقة عن الجهود المتوالية التي كانت الحكومة البريطانية تبذلها من أجل ايجاد تسوية للقضية الفلسطينية تظهر ان المعضلة لم تكن من البساطة التي كان الطرفان يتصورانها • وان فشل المحاولات التي بذلتها بريطانيا وغيرها من الدول بعد الحرب العالمية الثانية ، زاد في مصاعب ايجاد حل للمعضلة • وقد سبق تلك المحاولات ان انتدبت سبع لجان بريطانية ، وقدمت ثمانية تقارير تبحث عما يجب ان يتبع من سياسة بصدد تلك المعضلة المعقدة • وجاءت تلك المحاولات مثبتة انه ليس من اليسير ايجاد حل يرضى عنه الطرفان ، وانه ليس ثمة دولة أو طائفة من الدول ، باستثناء روسيا والدول الخاضعة لها ، كانت مستعدة لفرض حل على العرب واليهود •

وقامت لجنة بريطانية اميركية بمحاولة جديدة ، كان يؤمل منها ، بما ضمته من شخصيات عالمية ان تتوفق لايجاد حل للمعضلة • ولكن مما يؤسف له ان تقريرها الذي نشر في مايس من عام ١٩٤٦ جاء مخيبا للآمال • فان

اللجنة بعد ان وضعت مبدأ عاما للقضية ، يتلخص بان فلسطين يجب الا تكون دولة عربية أو دولة يهودية ، أوصت بتوصيات حاولت فيها تلبية طلبات كلا الفريقين • ووجهت سلطة الانتداب الى ما نص عليه صك الانتداب ، تلك النصوص التى أصبحت غير قابلة للتطبيق ، منذ نيف وعشر سنوات • فمن التوصيات المتناقضة التى اوصت بها اللجنة تسهيل الهجرة اليهودية وجعل الظروف ملائمة لتحقيق ذلك الهدف بحيث لا تحول دون تأمين حقوق السكان الاخرين ومكانتهم • كما انها أوصت بادخال مائة الف يهودى الى فلسطين خلال عام ١٩٤٦ ، وتركت لبريطانيا سلطة تنفيذ تلك السياسة • وقبل ان يتم بحث هذا التقرير بجملته ، أيد رئيس الولايات المتحدة الاميركية بشدة اقتراح اللجنة بشأن ادخال مائة الف يهودى حالا الى فلسطين • اما الحكومة البريطانية فقد أعلنت عن رغبتها لمعرفة مدى استعداد الولايات المتحدة للمساهمة بما يجب تحمله من مسؤوليات عسكرية ومالية يتطلبها تنفيذ توصيات اللجنة الانكليزية الاميركية • وتحقيقا لذلك عقد الخبراء البريطانيون اجتماعا مع لجنة وزارية اميركية أوفدت الى لندن للغرض ذاته ، وانتهت تلك المشاورات بوضع أسس مشروع حكومة اتحادية فى فلسطين مؤلفة من قسمين مستقلين ، قسم عربى وآخر يهودى • ولم يرض العرب أو اليهود عن « مقترحات مورسن » المبتناة على المشروع المذكور • وموقف العرب واليهود هذا جعل الحكومة البريطانية أن تقرر فى شباط من عام ١٩٤٧ عرض القضية الفلسطينية على منظمة هيئة الامم باعتبارها وريثة عصبة الامم •

ولم تنل هيئة الامم نجاحا أكثر مما أصابته بريطانيا فى محاولاتها منفردة أو مشتركة مع الولايات المتحدة • فقد قررت لجنتها الخاصة التى الفت لغرض البحث عن حل مرض قرارا اجماعيا فى آب من عام ١٩٤٧ بوجوب

انهاء الانتداب فى أول فرصة ممكنة ، على ان يحافظ على الوحدة الاقتصادية لفلسطين • وعندما عرض قرار اللجنة على الهيئة العامة ، حبذت أكثرية الاعضاء مشروع التقسيم بينما ذهبت الاقلية الى ايجاد دولة فدرالية • وعلى أثر ذلك القرار أعلنت الحكومة البريطانية انها لا تستطيع فرض سياسة لا يقرها العرب واليهود على السواء • وما دام ايجاد حل مرض من الامور المتعذرة فانها مضطرة الى ان تتخذ الخطوات اللازمة لسحب الجيوش البريطانية من فلسطين ، ووضع نهاية للادارة البريطانية فيها فى أول فرصة ممكنة • وقد حدد موعد للانسحاب من فلسطين فى اليوم الخامس عشر من شهر مايس عام ١٩٤٨ • وفى تشرين الثانى من عام ١٩٤٧ أقر مجلس هيئة الامم مشروع التقسيم وفى شهر مارت من عام ١٩٤٨ اعترفت الولايات المتحدة بان التقسيم لا يمكن تحقيقه بطرق سلمية ، ولذلك فانها أوصت بوضع فلسطين تحت وصاية هيئة الامم لفترة موقتة • ولكن ما ان انسحبت القوات البريطانية والموظفون فى شهر مايس من عام ١٩٤٨ حتى أعلن تكوين دولة اسرائيل اليهودية ، وسارعت حكومتا الولايات المتحدة وروسيا الى الاعتراف بها • بينما ترددت الحكومة البريطانية بادىء الامر فى الاعتراف بها ، لانها لم تكن واثقة من قوة اسرائيل على البقاء ومن مكانتها الدولية ، ولهذا اكتفت بالاعتراف بها كأمر واقع فى شهر كانون الثانى من عام ١٩٤٩ عندما شارفت الحرب بين العرب واليهود على نهايتها •

وانتهت الحرب التى أثارها اعلان دولة اسرائيل ، بصالح الجهة التى كانت تتمتع بتفوق بوحدة الهدف ، وبالمقدرة على التنظيم وبالمهارة العسكرية • يظاف الى ذلك ان اليهود استقتلوا من أجل تحقيق قضيتهم • اما معرفة المسؤول عن « الخطأ » الذى أدى الى اثارة المعارك فى فلسطين فأمر يحدده

مدى الرجوع الى المراحل التأريخية للقضية الفلسطينية • وليس من مجال فى هذا البحث لاستعراض الحوادث التى وقعت فى الايام الاخيرة للانتداب أو الايام الاولى من حياة دولة اسرائيل • كما انه ليس من السهل علينا ونحن فى أواسط عام ١٩٥٠ ان نتوصل الى نتائج مقنعة عن مسببى تلك الاحداث • ويكفى ان نورد هنا ان اسرائيل بدأت أولى أعمالها بالتعبير عن شكرها للولايات المتحدة ولروسيا ، وبابداء رغبتها فى ايجاد علاقات دولية مع الدولتين • ولم تتقدم لبريطانيا بشيء ، وسكوتها هذا ينم عن عداء دفين نحو بريطانيا • ومع ذلك فليس من اليسير اصدار حكم عادل اليوم عن وجهات نظر كل من هذه الدول • على انه مما يجب الا يغفل ان اليهود كانوا ضحية دعاياتهم • فانهم عندما وجدوا أنفسهم بين الارهاب النازى ، واصرار بريطانيا على تفسير صك الانتداب تفسيرا لا ينسجم ونواياهم ، قاموا بحملة دعاية واسعة ضد بريطانيا فى العالم كله وفى الولايات المتحدة الاميركية على وجه التخصيص • تلك الدعاية التى جعلت البعض من يهود بريطانيا يتساءلون هل كان ثمة فائدة من شنق شترايخر — سفاح اليهود — ما دامت بعض سمومه انتقلت الى أقلام ضحاياه ! •

ولم يكن من الصعب على الصهيونيين ان يثيروا الكراهية نحو بريطانيا ولا سيما فى الولايات المتحدة • فقد انطلت دعاياتهم على الكثيرين حتى شملت من بيدهم مقاليد الامور • وأحسن مثال على ذلك ان الرئيس روزفلت ابدى فى عام ١٩٣٩ ان من أسباب معارضته للكتاب الابيض البريطانى « تفوق هجرة العرب الى فلسطين منذ ١٩٢١ بعددها على الهجرة اليهودية خلال تلك الفترة » ، فاذا ما وقع رئيس الولايات المتحدة بمثل هذا الخطأ الفاحش ، وتأثر بمزاعم بعيدة عن الحقيقة ، فهل نتوقع من الرجل العادى أن تكون

له وجهة نظر صائبة ، ومحايدة بقضية جد معقدة كالقضية الفلسطينية ؟ ولا ننسى كانت الظروف مواتية لان يظهر الصهيونيين اليهود بمظهر الضحية للتآمر الانكليزى العربى • بخلاف ما كان يدعيه العرب الذين كانوا لا يجدون من يستمع الى شكواهم أو من يتفهم قضيتهم ، وفى ظروف كانت اليهودية العالمية تفرض تأثيرها البالغ من أجل كسب عطف الرأى العام العالمى •

وما هى المصاعب التى جعلت من القضية الفلسطينية عقدة لا تحل الا بقوة السلاح ؟ فمن أولى المصاعب ادعاء كل من العرب واليهود بأحقية قضيته • فاذا ما استثنينا مدعى الصهيونيين بشأن ما يسمونه بحقوقهم التاريخية ، فانهم كانوا يدعون بان بريطانيا أعلنت وعد بلفور لتضمن مساعدة اليهودية العالمية خلال سنوات الحرب العالمية الاولى • وان اليهود مقابل ذلك قدموا لها المساعدات المطلوبة منهم • ومع ان وعد بلفور ضمن بصك الانتداب فان فرض الانتداب البريطانى على فلسطين لم يكن بصالح الصهيونية • اما العرب فكانوا يدعون بانه لم يكن لبريطانيا الحق فى تقديم أية وعود بشأن فلسطين الى اليهود فى عام ١٩١٧ ، ما دامت فلسطين جزءا من المنطقة التى سبق لبريطانيا فى عام ١٩١٦ ان وعدت باستقلالها •

وأى الفريقين كان على صواب فى مدعاه ؟ ان الكاتب بالنظر للاسباب المتقدمة الذكر يعتقد بان المنطقة التى وعدت بريطانيا العرب باستقلالها لم تكن تشمل فلسطين • الا ان الكثيرين من الساسة الانكليز يرفضون هذا الرأى ويؤيدون العرب فى مطاليبهم • اما مدعى اليهود بشأن المساعدات التى يزعمون تقديمها خلال الحرب ودرجة أهمية تلك المساعدات فأمر فيه نظر • فاذا صح قيام اليهود بتقديم مساعدات كبيرة الاهمية لبريطانيا ، كما يعتقد البعض

من الساسة الانكليز ، فان مدعاهم يصح ان يكون سلاحا ذا حدين • فاذا ما كانت المنشورات التى تضمنت وعد بلفور ، والتى ألقيت من الجو على الاقسام المزدحمة باليهود فى المانيا والنمسا ، ذات تأثير فى اليهود ووجهتهم توجيها فى صالح الحلفاء ، الا يعنى ذلك ان وعد بلفور كان عاملا من عوامل اثارة الكراهية والبغضاء نحو اليهود فى المانيا ، تلك الكـراهية التى بلغت ذروتها فى عهد الحكم النازى ؟ اما الزعم القائل بان فلسطين يجب ان تسلم الى بريطانيا حتى وان لم يكن ثمة مشروع صهيونى فأمر مشكوك فيه • كذلك ان الرأى القائل بان بريطانيا استفادت فائدة مادية من انتدابها على فلسطين فأمر غير صحيح ؛ حتى وان حاولت بريطانيا استغلال فلسطين لمصالحها المادية • ذلكم لان نظام الانتداب ، والاتفاق بين بريطانيا والولايات المتحدة بشأن الانتداب على فلسطين ، كانا يحولان دون ذلك ، واذا قيل ان فلسطين استخدمت قاعدة حربية ، فان ذلك كان لصالح الحلفاء العام •

وثمة صعوبة أخرى كبيرة الاهمية ، هى الغموض الوارد فى نص وعد بلفور • فما هو المدلول للعبارة التالية : « اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين » • أتعنى ان عددا كبيرا من اليهود يجب ان يدخلوا الى فلسطين بحيث يصبح اليهود فيها أكثرية ؟ أم تعنى غير ذلك ؟ فاذا ما ذهبنا الى ما ذهب اليه المستر لويد جورج بأن وعد بلفور يستهدف ذلك الهدف ، فان الشك يحوم حول ذلك المذهب ، بدليل ان حكومة المستر لويد جورج رفضت ان تصيغ وعد بلفور صياغة يفهم منها تأمين مصالح اليهود وحدهم • وعلاوة على ذلك فان صك الانتداب فرض على بريطانيا تحقيق أمرين اولهما ان على بريطانيا ان تنمى المؤسسات ذات الحكم الذاتى فى فلسطين ، وثانيهما انها ملزمة ، فى الوقت الذى تسهل السبيل للهجرة اليهودية ، الا تغمط حقوق الطوائف

الاخرى من السكان والا تضعف مكانتهم • ولنا ان نتسائل هل في الامكان تحويل أقلية يهودية الى أكثرية دون ان تغمط حقوق الطوائف الاخرى من السكان وان تضعف مكانتهم ؟ وكيف يمكن أمر المحافظة على حقوق الطوائف الاخرى واليهود يعلنون بانهم لن يرضوا ان يكونوا أقلية فى فلسطين ، البلد الذى يعتبرونه « بلدهم » لارتباطهم التاريخى به ، ويزعمون ان ليس للعرب ان يغضبوا ان اصبحوا أقلية فيه ، لانهم ينالون دائما تأييد الاقطار العربية المجاورة لفلسطين •

واذا ما كان مقررا للعرب ان يصيروا أقلية بالنسبة الى اليهود ، افلم يكن من الواجب اشعارهم بذلك القرار منذ البداية ؟ فالكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ لم يتطرق لهذه الناحية ، ولم يفسر وعد بلفور ذلك التفسير الا بعد صدور الكتاب الابيض بعشرة اعوام • وهذا ما يؤيده التباين فى سياسة الحكومة البريطانية أزاء فلسطين عند صدور الكتاب الابيض ، وسياستها فى عام ١٩٣٠ • وكان البريطانيون يبدون حذرا متزايدا كلما اقترب اليهود من نقطة التحول التى تجعلهم يصبحون أكثرية بالنسبة الى عرب فلسطين • ففى السنوات الاولى من عهد الانتداب ، وقبل ان يتولى هتلر حكم المانيا ، كان مجال الهجرة الى فلسطين واسعا دون ثمة خوف من طغيان عدد اليهود على عدد العرب من سكان البلاد • لكن الامر اختلف اختلافا كبيرا بعد ذلك بعشر سنوات • فقد أخذ خطر الهجرة يتفاقم ، حتى بلغ أمرها مرحلة دقيقة تدعو الى صدور قرار سريع • فقد أعلنت اللجنة الملكية فى سنة ١٩٣٦ ان صك الانتداب أصبح غير قابل للتنفيذ ، لانه يتعذر اتباع سياسة تحقق الوطن القومى اليهودى ، وفى الوقت ذاته يمكن انماء المؤسسات ذات الحكم الذاتى • اما مشروع التقسيم وان لاقى تأييدا كبيرا ، فقد تحطم على الصخرة التى تحطم عليها

مشروع اللجنة الخاصة لهيئة الامم المتحدة ، أى تعذر تنفيذه الا باستعمال القـوة •

وهنالك مشاكل أخرى كانت الحكومة البريطانية مضطرة لمجابهتها • أهمها وجود عناصر متطرفة فى المنظمة الصهيونية وفى الوكالة اليهودية تسعى بكل ما أوتيت من قوة ، وبأى ثمن كان ، لان تجعل من فلسطين دولة يهودية • ومما لا شك فيه ان تلك العناصر ، ساعدت كثيرا للقضاء على الوعود التى كانت المنظمة الصهيونية تقدمها للسلطات البريطانية فى فلسطين لتنفيذ السياسة التى اختطها الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ ، بتشجيعها ــ أى العناصر المتطرفة ــ بصورة فعالة علنية أم متسترة الهجرة اليهودية غير المشروعة • والمشكلة الاخرى ان الولايات المتحدة وعصبة الامم كانت تضغطان ضغطا شديدا من أجل تحقيق الاهداف اليهودية دون ان تتحملا مسؤولية النتائج الناجمة عن ذلك الضغط • فمثلا ان عطف حكومة الولايات المتحدة على القضية الصهيونية جعلها تقرر اعفاء مدخولات المنظمات الصهيونية الخيرية والجمعيات اليهودية من ضريبة الدخل ، مع علمها بان تلك المنظمات والجمعيات كانت تجمـع التبرعات من سكان الولايات المتحدة لتنفقها على أعمال الارهاب ضد السلطات البريطانية فى فلسطين • ومع ذلك فانها كانت ترفض استعمالها القوة لغرض السياسة التى كانت ترتضيها • وقد دامت سياسة الولايات المتحدة هذه مدة الانتداب • ومما يجب الا يغفل ان الامر تعقد كل التعقيد فى آخـر ايام الانتداب عندما رفضت بريطانيا بدورها استعمال القوة لغرض التقسيم بينما كانت روسيا مستعدة لذلك ، والعامل الرئيسى الذى جعل هيئة الامم ترفض استعمال روسيا القوة لغرض تحقيق التقسيم تخوفها من ان يكـون مصير فلسطين اشبه بمصير ازربيجان •

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان المشاكل التى كانت تلازم القضية الفلسطينية ستبدو للعيان بوضوح وجلاء فى السنوات القادمة • وعندئذ سيكون الحكم على تصرفات الحكومة البريطانية والسلطات البريطانية فى فلسطين ، أقل قساوة مما هو عليه الان ، ولا سيما الحكم الصادر من الصهيونيين ومن مؤيديهم • وسوف ينال الموظفون البريطانيون بعض التقدير لما قاموا به من أعمال ، مع ما كانوا يلاقونه من مصاعب ناجمة عن جهلهم حقيقة السياسة التى يجب أن يتبعونها ومن نقد شديد كان الصهيونيون يوجهونــــه للسياســـة البريطانية ، وأخيرا من خطر نشوب حركات ثورية فى بعض الاقطار العربية أو ان يقوم اليهود بتلك الحركات • ومن المؤسف حقا ان اليهود كانوا ينشرون دعايات واسعة عما يلقونه من تعنت من قبل السلطات البريطانية فى فلسطين ، وكانت تلك الدعايات تنطلى على الكثيرين من سكان مختلف أقطار العالم بينما كان العالم لا يعرف عن الخدمات الجلى التى قامت بها السلطات البريطانية فى فلسطين كقضائها على الملاريا ، وقيامها بما خفض نسبة الوفيات الى حد كبير ، واقامتها مشاريع اسالة مياه الشرب الصالحة ، واصلاحها الاساليب الزراعية ، وزراعتها للغابات ، ونشرها التعليم بين العـرب من الســكان ، وتشجيعها الصناعات الخفيفة خلال سنوات الحرب ، تلك الصناعات التى استفادت ولا زالت تستفيد منها اسرائيل كل الفائدة • هذا وان باحث المستقبل سيكتشف بدهشة بالغة الفرق الكبير بين ما أظهرته لجنة الانتداب من صرامة نحو سلطة الانتداب وما أظهرته هيئة الامم من استكانة وتخاذل بعد عشر سنوات ، عندما طلب اليها أخذ المسؤولية على عاتقها • كما سيتضح له الفرق الكبير بين ما كان يظهره الصهيونيون من احترام نحو عصبة الامم ومن عدم اكتراث لقرارات هيئة الامم •

ان العلاقات المتبادلة بين الدول العربية التى لم تراع فى عام ١٩٤١ ، اصبحت حقيقة واقعة فى عام ١٩٤٥ ، وان كانت فى الاسم على الاقل • ففى عام ١٩٤٥ وضعت الاسس لايجاد الجامعة العربية ، وفى هذا العام وقعت مصر والعراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ميثاقها • ولما كان عرب فلسطين غير مستقلين فلم يكن لفلسطين مجال الانضمام الى الجامعة باعتبارها غير مستقلة ، واكتفى بتعيين مراقب عن فلسطين فى مجلس الجامعة • وقد رحبت الحكومة البريطانية بتأليف الجامعة وعينت موظفا من كبار موظفيها ليكون حلقة ارتباط بينها وبين الجامعة • وهكذا تم تحقيق فكرة الامير فيصل بتأليف الجامعة العربية بعد ان مر ربع قرن على الطلب الذى قدمه الى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس ، والذى يتضمن ازالة الحدود الداخلية بين الاقطار العربية ، واعتبارها دولة واحدة ذات خطوط مواصلات مشتركة ونظام تعليمى موحد • على ان الجامعة العربية صرفت جل عنايتها للقضايا السياسية وخاصة منها قضية فلسطين ، دون ان تعنى العناية اللازمة بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية المشتركة بين الاقطار العربية • فلما انتهت القضية الفلسطينية النهاية المعروفة لم يبق للجامعة العربية ما تبذل عنايتها من أجل تحقيقه •

وحددت العلاقات مع شرق الاردن سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات بدأت منذ عام ١٩٣٨ ، وفى عام ١٩٤٨ عقدت المعاهدة الاردنية البريطانية ، وقد نصت هذه على أمرين وجود اتفاق عسكرى بين بريطانيا وشرق الاردن ، وتقديم مساعدات مالية بريطانية لاجل انماء البلاد اقتصاديا واجتماعيا • وفى

نيسان من عام ١٩٥٠ اضطرت بريطانيا الى الاعتراف باسرائيل اعترافا كاملا ، وبالوقت ذاته ارتضت أن يعتبر القسم العربى من فلسطين جزءا متمما لشرق الاردن ، الدولة التى أوجدها الملك عبدالله . كما وافقت على ان تشمل المعاهدة البريطانية الاردنية الجزء الجديد الذى ضم الى شرق الاردن . وبعد ضم الجزء غير المحتل من فلسطين الى شرق الاردن سميت المملكة بالاردن بدلا من شرق الاردن . وبقيت قضيتان فى حاجة الى الحل السريع الوضع الراهن لمدينة القدس والحدود المشتركة بين اسرائيل وجيرانها . (فى الظروف الحاضرة تحددها خطوط الهدنة) . ولا يمكن ان تحل هاتان القضيتان الا باتفاقات متبادلة بين الدول المعنية بالامر .

وكمحاولة للتخفيف من وطئة تأزم الوضع بين اسرائيل والدول العربية ، أصدرت حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية فى مايس من عام ١٩٥٠ ، بيانا مشتركا اعترفت فيه بحاجة هذه الدول الى السلاح من أجل استتباب الامن الداخلى ، والدفاع عن سلامتها ، والمساهمة فى الدفاع عن سلامة الاقليم برمته . ولهذا فانها تعهدت باستعدادها ، على ضوء تلك الحقيقة ، للنظر بأى طلب للسلاح تتقدم به أية دولة من ذلك الاقليم ، على ان تتعهد الدولة الراغبة بالسلاح بالا تستخدم ما تحصل عليه منه للاعتداء على دولة أخرى . وانتهى البيان بالتنويه عن عزم الدول الثلاثة صاحبة البيان بانها ستتخذ الخطوات الفعالة لمنع أية محاولة تقوم بها احدى دول الاقليم يقصد منها تغيير حدود بلادها أو تغيير خط الهدنة بينها وبين القطر المجاور لها .

ومما اتضح للحكومة البريطانية ، ان تدويل القدس حسب ما قررته الهيئةالعامة للامم المتحدة أمر يتعذر تطبيقه لان حكومة اسرائيل ، فى الوقت الذى أخذت تعد القسم المحتل من المدينة ليكون عاصمة لها طلبت ان يعهد أمر

حراسة الاماكن المقدسة الى لجنة تنتدبها هيئة الامم على الا يكون لهذه اللجنة صفة ادارية • وهذا ما يكشف عن نواياها •

- ١٥ -

وقد فشلت جميع المحاولات السياسية التى بذلت من أجل اتحاد الدول العربية ، والتغلب على الخلافات الشخصية والعائلية بين ملوك وحكام هذه الدول ، وتحقيق رغبات شعوبها فى الاتحاد ؛ تلك الرغبات التى بلغت حدها الاقصى عند الجيل الجديد من ابنائها • ومع ان الاقطار العربية تدرك تمام الادراك ان التعاون الاقتصادى هو خير تمهيد لتحقيق رغبة شعوبها ، فانها لا تسعى لتحقيق ذلك التعاون • فسوريا ولبنان ضاعفا من القيود الاقتصادية التى تباعد بين بلديهما ، مع وجود مصالح اقتصادية متبادلة بينهما ، وان انابيب النفط التى توصل نفط العراق حتى شواطىء البحر المتوسط ونفط المملكة العربية السعودية الى صيدا فى لبنان يجب ان توجد فى هذه الاقطار مصالح متبادلة بين بعضها البعض • وبينها وبين بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية من أجل سلامة أقطارهم وانماء مصادر أخرى للثروة فى الشرق الاوسط •

ان الشرق الاوسط بمختلف أقطاره ، فى حاجة ماسة الى المعاونة من أجل انما موارد الثروة فيه • فأى من أقطار هذا الاقليم يحتاج الى المعونة لانماء ثروته وللرفع من مستوى معيشة سكانه ، يجب ان يلقاها من الاقطار الاخرى • والحقيقة ان مشاكل أقطار الشرق الاوسط تلقى عناية كبيرة من الهيئات والمؤسسات المنبثقة فى هيئة الامم • ويكفى ان تكون مشكلة اللاجئين الفلسطينيين موضع دراسة وعناية من لدن لجنة اغاثة اللاجئين التابعة الى هيئة الامم والممثلة فيها بريطانيا والولايات المتحدة • وفى السنوات المتأخرة ،

أخذت الولايات المتحدة الاميركية تعنى عناية كبيرة بشؤون الشرق الاوسط . ولهذا فانها أكثرت من ارسال الخبراء الاميركان الى مختلف اقطاره ، وخير ما يثبت ذلك عنايتها بانماء المشاريع الزراعية فى المملكة العربية السعودية ، واهتمامها بمشروع السنوات السبع الذى يهدف الى انماء الاحوال الاقتصادية فى ايران . كذلك ان الخدمات التى قام بها مركز تموين الشرق الاوسط ، خلال سنوات الحرب ، لا زالت مستمرة وان تبدل اسمه بالمكتب البريطانى للشرق الاوسط . فان خبراء هذا المكتب تحت أمرة أية حكومة من حكومات الشرق الاوسط ترغب فى الاستفادة من خبراتهم . والواقع ان هذا المكتب ساهم فى خدمة الحكومة العراقية عندما رغبت فى وضع منهاج عام لمشاريع الرى فى العراق . كذلك قام المكتب بتزويد حكومات الشرق بتقارير ضافية عن كيفية اصلاح الغابات وانماء الموارد الحيوانية وطرق اجراء الاحصاءات اللازمة لها وغير هذه من القضايا الهامة لبلادها . كما ان المكتب يتلقى بصورة مستمرة طلبات كثيرة عما يجريه من دراسات تتعلق بأقطار الشرق الاوسط . وقد أجرى المكتب مفاوضات مع حكومة اليمن فى عام ١٩٥٠ ، كان يؤمل منها ، اضافة الى توطيد العلاقات السياسية بين بريطانيا واليمن تقديم المعاونة الفنية التى يحتاجها اليمن .

ومن الامور الواضحة ان المكتب البريطانى فى الشرق الاوسط قدم خدمات جلى حيثما كان النفوذ البريطانى كبيرا . ففى البحرين مثلا استطاع شيخها القضاء على استغلال اصحاب السفن لغواصى اللؤلؤ من أثر اغراقهم فى الديون ، نتيجة للجهود التى بذلتها بريطانيا عن طريق المكتب المذكور . وبدأ باصلاح الاوضاع الراهنة فى البلاد التى تخضع الى الحكم البريطانى المباشر ، فأخذ مستوى معيشة سكان هذه البلاد بالارتفاع ، اما عن طريق

استخدام مصادر الثروة فيها ، واما بمساعدة صندوق اصلاح المستعمرات وانماء مواردها[1] • ففى مستعمرة عدن أخذت حركة التعليم والخدمات الاجتماعية تنتشر بسرعة حتى شملت محمية عدن ، بما فيهـا من أوضاع متدنية • وذلك بفضل تمديد مدة الهدنة التى عقدت عام ١٩٣٦ ، والتوسع المستمر فى قوات الامن عند مختلف حكام تلك المحميات • فصار من أثر ذلك ان ساد الامن والاستقرار البلاد بشكل لم يعرفه الناس من قبل ، وأخذت حركة بيع الرقيق ، التى قضى عليها منذ عهد بعيد فى مستعمرة عدن ، تتضائل وتختفى فى المحمية نفسها ، الا ان المعضلة الرئيسة التى لا زالت قائمة ولم يستطع المكتب التغلب عليها هى كيفية جعل أرض مجدبة تدر ما يكفى حاجات شعب متزايد ، لا يجد مخرجا لابنائه ، كما كان يجد سابقا فى جاوا والحبشة وغيرهما من الاقطار التى كانت تتقبلهم • ولم يكتف فى قبرص بانماء نظام زراعى تعاونى ، وانما وضعت تصاميم من أجل وقاية ما زرع من غابات من خطرين : وقايتها من قطعان العنز الباحثة عما تتغذى به ، ووقايتها من الانسان فى بحثه عن الوقود • ولقد ارسل عدد من حكومات الشرق الاوسط خبراء يعنون بهذه المشاكل لدراسة تلك المشاريع التى لو انتشرت فى مختلف انحاء الاقليم لاثرت تأثيرا بالغا بأوضاعه الاقتصادية

---

(١) Colonial Development and Welfare Fund.

اكتوبر من عام ١٩٥٢

- ١ -

لم تضم معاهدة حلف شمال الاطلسى أى جزء من أجزاء الشرق الاوسط مع ان المعاهدة أكدت تأكيدا مشددا على أهمية هذا الاقليم ، تلك الاهمية التى أدركت حقيقتها بريطانيا منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، بينما لم تتثبت الولايات المتحدة الاميركية منها الا فى السنوات المتأخرة عندما أخذت بتقديم مساعداتها الى تركيا وايران ، وبعدما أصدرت بيانها بشأن ضمان الحدود بين اسرائيل والاردن ، وفى مايس من عام ١٩٥٠ أكد وزير خارجية بريطانيا ما سبق ان صرح به منذ عام ، بعد ان وقع معاهدة حلف شمال الاطلسى ، بان الحكومة البريطانية تهتم كل الاهتمام بالمحافظة على سلامة كل من اليونان وتركيا وايران واستقلالها • وأضاف بان « الحكومة البريطانية عازمة على متابعة سياستها بشأن معاونة تلك الدول وغيرها من التى تكافح فى سبيل تدعيم كيانها الاقتصادى وتعزيز قواتها العسكرية ، ومن أجل المحافظة على استقلالها وسلامة بلادها » • كما صرح وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية عند توقيعه المعاهدة نيابة عن حكومته تصريحا مماثلا •

وفى ايلول عام ١٩٥١ قرر مجلس حلف شمال الاطلسى دعوة كل من

تركيا واليونان للاشتراك فى معاهدة الحلف على ان يسبق ذلك موافقة الدول الاعضاء • وبعد هذا بقليل اشتركت الحكومة التركية مع حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى طلبهم الى مصر المساهمة فى تأليف منظمة للدفاع المشترك عن الشرق الاوسط • وسبق ان طلب مثل هذا الطلب الى كل من استراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا ، وكانت حكومات هذه الاقطار تهتم بالغ الاهتمام بأمر ايجاد مثل تلك المنظمة • على انه لم يطلب الى أقطار الشرق الاوسط الاخرى المساهمة فى المنظمة • ومرد ذلك ان هذه الاقطار قريبة من موقع الخطر وان خط الدفاع يجب ان يكون بعيدا عن ذلك • ومع هذا فان اقطار الشرق الاوسط أبدت حذرها ولم تكشف عن حقيقة نواياها بشأن ما طلب ايجاده • اما مصر فقد رفضت المقترحات الخاصة بمنظمة الدفاع المشترك ، كما عزفت عن اجراء أية مباحثات من أجل تحقيق تلك الفكرة ، كذلك رفضت فى عام ١٩٥١ حضور مؤتمر نيروبى الخاص بشؤون الدفاع عن افريقيا ، وكان يؤمل من حكومة مصر بنزعتها العسكرية الشديدة ، انها ستظهر رغبة شديدة للمساهمة فى مشاريع الدفاع التى يسعى الغرب لوضع تصاميمها •

وفى خلال العامين التاليين اضطرت بريطانيا الى ان تجابه مشكلتين كبيرتى الاهمية الاولى علاقتها مع مصر والاخرى مصالحها فى ايران •

ففى أوكتوبر من عام ١٩٥١ ، وبعد محادثات دامت نحو عام ، الغت الحكومة المصرية معاهدة سنة ١٩٣٦ كما ألغت اتفاقية عام ١٨٩٩ بشأن السودان • فاطلق الملك فاروق على نفسه لقب ملك مصر والسودان ، وأصدرت الحكومة المصرية قانونا يمنح السودان نوعا من الحكم الذاتى ويخول الملك فاروق حق السيطرة على شؤون السودان الخارجية والعسكرية ، وحق التصديق

على ما يشرع فيه من قوانين • كما أوجب ضرب عملة السودان باسم ملك مصر • وأعقب ذلك ان رفضت الحكومة المصرية المقترحات التى قدمتها اليها الولايات المتحدة الاميركية بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا وتركيا ، والتى طلبت بها الى مصر ان تساهم فى تأسيس منظمة للدفاع عن الشرق الاوسط • وقامت حكومة الوفد بدعايات اعتدائية واسعة ، وبتحريض كتائب التحرير للاعتداء على الجيوش البريطانية وعلى المدنيين • وبلغت تحرشات تلك الكتائب ذروتها عندما قامت مظاهرات واسعة فى القاهرة ، اعتدى فيها الوطنيون على كثيرين من الاجانب أغلبهم من البريطانيين ، واحدثوا أضرارا بالغة بالممتلكات وان لم يكن أكثرها بريطانى أو غير مصرى •

وتوقفت المحادثات بين الحكومة المصرية الجديدة والوفد السودانى الذى أرسله السيد عبدالرحمن المهدى لمفاوضة الحكومة المصرية بشأن مستقبل السودان ، أثر نشوء أزمة أدت الى تنازل الملك فاروق عن عرشه • وكان السودانيون غير مقتنعين بان جعل ملك مصر ملكا للسودان ذا مظهر اسمى ، كما انهم كانوا مستعدين لتقبل مشروع يقضى بتأليف لجنة ثلاثية يشترك فيها ممثلون من بريطانيا والسودان ومصر يعهد اليها أمر مراقبة عملية تقرير المصير فى السودان ، وبالوقت ذاته كان المصريون يخشون ان يؤدى انفصال السودان عن مصر الى احتجاز الجزء الاكبر من مياه النيل ، وان ما سيتسرب من تلك المياه الى مصر لا يكفى لحاجات الشعب المصرى السريعة المتزايدة •

وكان اعداد السودان للحكم الذاتى الدستورى يجرى بسرعة ، استجابة للوعد الذى قطعه المستر ايدن فى شهر تشرين الثانى عام ١٩٥١ بان السودان سيمنح الحكم الذاتى قبل نهاية عام ١٩٥٢ ، ومما جاء فى مسودة الدستور

المقدمة الى المجلس التشريعي السوداني في نيسان من عام ١٩٥٢ ، ان جميع الوزراء مسؤولون أمام البرلمان وان تراعي بعض التحفظات خلال فترة الانتقال ريثما يتم للسودانيين ممارسة حق تقرير مصيرهم ، وان يؤلف مجلس تأسيسي يضم أعضاء مجلسي البرلمان عند مناقشة الدستور واقراره وتحديد مستقبل السودان .

- ٢ -

ولم تعدل اتفاقية عام ١٩٤٩ ، المعقودة بين شركة النفط الايرانية والحكومة الايرانية . بسبب اصرار الايرانيين على طلبهم حصة أكثر مما يستحقون ، ورفضهم مبدأ المناصفة بالارباح المبدأ المعمول به في أقطار الشرق الاوسط الاخرى . فالايرانيون لم يكتفوا بنصيبهم من ربح الشركة الخاص بنفط بلادهم بل طالبوا بمقاسمة الشركة في جميع أرباحها حتى عما تستخرجه من نفط الكويت مثلا . ومما يجب الا يغفل ان الشركة وافقت على منح ايران نصف ارباحها عن النفط الايراني في شباط من عام ١٩٥١ ، ولكن رئيس وزرائها ، الجنرال رازمارا ، لم يسمح بنشر ذلك ، ولم يكن الجمهور الايراني على بينة من ذلك الامر عندما اغتيل رئيس الوزراء في مارت من العام المذكور . ومما لا ريب فيه ان اغتيال رازمارا ، واطلاق النار على وزير المعارف عجل في تصديق البرلمان على اقتراح قدمه الدكتور مصدق يقضي بتأميم صناعة النفط في ايران .

ولم تعترض الحكومة البريطانية على مبدأ التأميم بشرط ان تراعى اتفاقية عام ١٩٣٣ عند تنفيذه . تلك الاتفاقية التي نصت على تعهد الحكومة الايرانية بعدم الغاء أو تعديل الاتفاقية الا بموافقة الطرفين المتفقين ، وانه في

حالة حصول خلاف على نصوص الاتفاقية يرجع الى التحكيم • وهذا ما جعل الشركة تطالب بالرجوع الى التحكيم ، الا ان الحكومة الايرانية رفضت طلب الشركة وأصرت على ما ذهبت اليه • كما انها رفضت ثلاثة اقتراحات أخرى هي : (١) الاقتراحات المقدمة من شركة النفط الايرانية في حزيران من عام ١٩٥١ والتي أيدها سفير الولايات المتحدة الاميركية وهو المعروف بشدة نقده للسياسة البريطانية • (٢) اقتراحات ستوك المقدمة في شهر آب سنة ١٩٥١ والتي اوصى بها المستر افيريل هاريمان • (٣) ومقترحات البنك الدولي للاعمار والانماء المقدمة في مارت سنة ١٩٥٢ •

وقد اضطرت الحكومة البريطانية الى ان ترفع القضيـة الى مجلس الامن ، وسبق لها ان رفعت القضية في أولى مراحلها الى محكمة العـدل الدولية ، والتي أصدرت أمرها بوجوب المحافظة على الوضع الراهن • فقرر مجلس الامن ضرورة الانتظار ريثما تصدر محكمة العدل الدولية قرارها النهائي بشأن الخلاف • وفي تموز من عام ١٩٥٢ أعلنت المحكمة ان القضية المتنازع عليها ليست من اختصاصها ، ولهذا لا تستطيع ان تبدي رأيا قاطعا بشأنها • الامر الذي اضطر الشركة الى ان تتقدم بطلب الى رئيس محكمة العدل الدولية طالبة منه ان يستعمل اختصاصه الذي منحته اياه اتفاقية عام ١٩٣٣ فيعين محكما ، ما دامت الحكومة الايرانية ترفض تعيين محكم يمثلها حسب نصوص تلك الاتفاقية •

والسبب في رفض ايران اتفاقية عام ١٩٤٩ ، اعتقادها بان الاخذ بمبدأ المناصفة بالارباح يضر مصلحتها في السنوات الكثيرة الانتاج • ولو تم لها قبول ذلك المبدأ في شباط من عام ١٩٥١ لتيسر لها الحصول على خمسين مليون جنيه عوائد للنفط عن تلك السنة وحدها ، اضافة الى مبالغ كبيرة أخـرى

ستضطر الشركة الى دفعها عن مبالغ متأخر دفعها ، ورواتب المستخدمين وأجور العمال وضرائب حكومية • والحقيقة ان الخلاف على النفط لم يكن مشكلة مالية ؛ فالعامل الرئيسي لتلك المعضلة هو نفرة الشرق من سيطرة الغرب التي دامت مدة طويلة • وقد تركزت تلك النفرة في ايران على بريطانيا لعلاقتها الوثقى بصناعة النفط • يضاف الى ذلك ان تنظيم أعمال شركة النفط ، واقتصار ادارة تلك الاعمال على الاجانب وحدهم ، وتفسخ المؤسسات الايرانية بالنسبة الى مختلف مؤسسات الشركة ، اضعف كبرياء ايران وجعلها مسرحا لدعايات غير صحيحة أثرت بجمهرة الناس ، وجعلتهم يعتقدون بانه ليس عسيرا على الايرانيين ادارة تلك المنشئات • وربما كان ميل الحكومة الايرانية للوقوف موقف المحايد بين المعسكرين الغربي والشرقي كان من أهم تلك العوامل • فان قانون سنة ١٩٤٤ منع منح أي امتياز للنفط في المستقبل ، وبذلك سد الطريق بوجه الروس ؛ فلماذا لا يتخذ الدكتور مصدق خطوات جريئة من أجل سد الطريق بوجه شركة النفط الايرانية ، دون الالتفات الى الحقوق المشروعة التي تتمتع بها هذه الشركة ، وقد فاز الدكتور مصدق في أول أمره بتأييد ساحق من زملائه اصحاب الثروات الكبيرة الذين كانوا يتهربون من دفع ما يفرضه القانون عليهم من ضرائب ، وكذا الامر من اعضاء حزب تودا الذين اخفوا ميولهم الشيوعية وراء ما كانوا يشيعونه من دعايات عن استغلال الاجانب لخيرات البلاد ، ومن رجال الدين أمثال آية الله الكاشاني ، الذي اعتقل خلال سنوات الحرب العالمية الثانية لميوله المناهضة لقضية الحلفاء ، والذي هدد بالاغتيالات السياسية وشجع عليها ، وأخيرا من جمهرة الناس التي كانت تفهم بان ما تعانيه من مآسي ومصائب هو من نسج البريطانيين ، متناسين ان تلك المآسي هي وليدة تفسخ

الطبقة الحاكمة وسوء ادارتها لشؤون البلاد واهمالها مصالح الشعب •

اما طبقة السياسيين فقد كانت تزعم ان شركة النفط تسيء معاملة عمالها ، وتدفع لهم أجورا تكاد تسد حاجتهم ، مع ان بعثة منظمة العمل الدولية التي قامت بدراسة وضع عمال الشركة في سنة ١٩٥٠ ، اوضحت خلاف ذلك • فمما انتهت اليه اللجنة المذكورة ان الاجور التي كانت تدفعها الشركة الى عمالها، وساعات عملهم ، والظروف التي تكتنف العمال اثناء قيامهم بواجباتهم كانت في مستويات أعلى من تلك التي يحددها قانون العمال الايراني • ولا ريب ان ما قامت به الشركة في حقول الصحة العامة ، والاسكان والخدمات الطبية والتموين والفعاليات الاجتماعية ، وفي حقول غير هذه من الخدمات العامة الاخرى لما يدهش الساسة الايرانيين اذا ما اجهدوا أنفسهم وحاولوا الاطلاع عليها • وفي حقل التربية والتعليم فان المدارس التي أنشأتها الشركة ، لا تقل مستوى عما تتمتع به أحسن المدارس الايرانية • كذلك ان الطريقة التي اتبعتها الشركة من أجل تقنين مواد الطعام لجميع مستخدميها وعمالها ولمن تتوقف معيشتهم عليها ، كانت من ادق واضبط ما اتبع من طرق خلال الحرب العالمية الثانية • ولهذا فانها أظهرت للعيان فشل الحكومة الايرانية في اتباع طريقة لتقنين المواد الضرورية لمعيشة الشعب ، مع كل ما بذله الخبراء الاميركان من جهود لمساعدة الحكومة في قيامها بتوزيع بعض اللوازم الرئيسية توزيعا عادلا بين الناس •

ومـا ان انتهى امـد امتيـاز « البنك البريطـاني في ايران والشرق الاوسط »[١] ، حتى اضطر لغلق ابوابه وتوجيه فاعلياته نحو اقطار أخرى من الشرق الاوسط ، حيث المجال واسع لممارسة أعماله •

---

(١) كان يسمى سابقا البنك الامبراطوري في ايران •

ولم ينته الامر عند هذا الحد ، فان موجة مناوئيى بريطانيا فى ايران دفعت الحكومة الايرانية الى طلب غلق القنصليات البريطانية فى المدن الايرانية، بزعم ان أعضاء السلك القنصلى يتدخلون بالشؤون الداخلية الايرانية ، مع ان الحقيقة تدحض هذا الزعم ، وأخذت تتعالى أصوات المتصيدين بان البريطانيين أخذوا يحرضون القبائل على التمرد ، مع ان المعروف عن القبائل الايرانية انها لا تخضع لقانون ولها من مشاكلها ما يدفعها للتمرد على حكومتها ، ومما لا شك فيه انه لم يكن بصالح بريطانيا ان ترى الحكومة المركزية ضعيفة أزاء الحركات الداخلية .

وفى اكتوبر من عام ١٩٥٢ قامت بريطانيا بآخر محاولة لايجاد حل لمشكلة النفط عندما قدمت مذكرة الى الدكتور مصدق وقد اوصى كل من المستر ترومان والمستر شرشل الاخذ بها . وقد اعترفت تلك المذكرة بحق ايران بتأميم صناعة النفط بشرط ان تعرض قضية تعويض الشركة الى التحكيم باشراف محكمة العدل الدولية . وقد قبل الدكتور مصدق الاخذ بالتحكيم مشترطا ان يقتصر التحكيم على ممتلكات الشركة فى ايران ، ومع ذلك فانه وضع من القيود ما يجعل المحكمين يضطرون الى اصدار حكم مؤيد لوجهة نظر ايران . وبعد ان وجد الدكتور مصدق ان الحكومة البريطانية لا تقره على شروطه ، قام فى شهر اكتوبر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، ظانا ان بريطانيا سترضخ الى ما اتخذه من اجراءات خشية نفوذ الشيوعية الى ايران .

ان ما يؤسف له الميل العدائى الذى أظهره الايرانيون نحو بريطانيا ، لا لانه يعكر صفو العلاقات البريطانية الايرانية ، وانما يشجع ذلك الميل

الايرانيين لان يستسلموا الى ما كانوا يتصورونه سابقا ، بان كلما يصيبهم من كوارث انما هو من صنع بريطانيا . واذا ما صح زعمهم بان المساوىء نتيجة الاخطاء التى ترتكبها بريطانيا ، فلماذا لا يسعون الى التغلب على تلك المساوىء ؟ .

الخاتمة

علاقة بريطانيا بالشرق الاوسط علاقة تاريخية وثيقة ، ومع ان علاقات ايطاليا وفرنسا التجارية ، ترجع الى ابعد من تاريخ بدء العلاقات البريطانية به ، فان هذا الجزء من العالم بالنسبة الى بريطانيا يعني أكثر من تأمين مصالحها التجارية . فالشرق الاوسط قاعدة تدافع بريطانيا منها عن ممتلكاتها بالشرق وعن خطوط مواصلاتها . ولو رجعنا الى المؤلفات الانكليزية لوجدنا ان العديد منها تطرق الى تلك العلاقة . وربما كانت الدوافع لاكثر تلك المؤلفات دوافع سياسية وتجارية . ولكن بعضها جاء نتيجة حب الرجل البريطاني الى الاسفار والارتياد . فهذه الرغبة الملحة هي التي دفعت اثيلارد وفلبي ، الى ارتياد الشرق الاوسط والى اخراج ما الفوه من كتب ، كما دفعت كنج ليك قبلهم الى قيامه في سنة ١٨٣٠ « برحلته العظيمة » الى الشرق واخراجه كتابه الرائع ايوثين(١) .

والتفاوت كبير جدا بين تلك المؤلفات من حيث نوعيتها ومادتها ، كما ان الظروف التي دعت الى اخراجها متنوعة متعددة . فروبرت كرزن مثلا ، ارتاد الشرق في عام ١٨٣٠ ايضا ، والف رسالته المسماة « زيارات لاديرة الشرق »(٢) ، نتيجة بحثه عن المخطوطات في تلك الاديرة . وان هنري ليارد الذي كان يقصد سيلان باحثا عن اسباب رزقه ، وجد في نفسه اثناء

---

(١) Eothen by Kinq Lake

(٢) Visits to Monastries in the Levant By Robert Curzon

مروره فى ايران رغبة ملحة للبقاء فى الشرق الاوسط ، دفعتـه الى قيامه باكتشافات أثرية كبيرة الاهمية ، وبالتالى الى تأليفه عددا من المؤلفات القيمة . وقام هنرى راولنسون بحل رموز الخط المسمارى اثناء ما كان مقيما بريطانيا فى بغداد . والف أى . جى . براون وكان طالب طب تعلم الفارسية فأتقنها « عام بين سكان فارس » . وهذا يعد احسن ما كتب باللغة الانكليزية عن أى بلد اجنبى . وان ريشارد برتون كان جنديا وموظفا قنصليـــا ، أغرم بالاسفار غراما دفعه الى المجازفة بحياته لزيارة مكة والمدينة ، دون ما لاقاه من احداث فى مؤلف يعد اعظم ما سطر من كتب الاسفار . والقى جيمس موريير ، ومارمادوك بكثول ضوءا ساطعا على الشرق وأكسباه لونا بهيجا فيما كتباه عن « حاج بابا » و « سعيد السماك » . ولا ريب ان هاتين القصتين تعكسان صورة للشرق تعجز الكتب الاخرى عن عكسها .

وتعد المؤلفات التى كتبها رواد الاقطار العربية من الرحالة البريطانيين فى مستوى عام أعلى من مستويات المؤلفات الاخرى . ومع ان ثمة رواد من غير البريطانيين ــ من سكان سويسرة والدنمارك وهولندا والمانيا والسويد وغيرهم سطروا ما اضاف الى معارفنا عن بلاد العرب ، الا ان أهم ما نعرفه عن هذه البلاد هو من انتاج رواد بريطانيين . واذا ما كان « صحراء بلاد العرب »(١) من تأليف دوتى يحتل مقاما فى القمة بين المؤلفات عن الشرق ، فانه يعد واحدا من سلسلة طويلة من المؤلفات القيمة التى تناولت بلاد العرب ببحثها .

واذا ما قيل ان ثمة قوى تجتذب الانكليز نحو العـرب ، ففى هـذا القول الكثير من الصحة . فالموظف البريطانى فى فلسطين اتهم بأنه ميال

(١) Arabian Deserts by Doughty

الى الرياضة ويعوزه الذكاء ، وهذا ما جعله يندفع لمناصرة العرب دون اليهود مع ما ما يتمتعون به من ذكاء • ومع ذلك فان تركيا اجتذبت عددا كبيرا من الانكليز ، ولا نعنى بهم اولئك الذين جاءوا اليها لكى يستفيدوا من الامتيازات الاجنبية ، وانما نعنى فئة التجار وغيرهم ممن استقر وعاش فيها حتى فى أشد الايام ضيقا ، امثال السر مارك سايكس واوبرى هربرت • وثمة عدد كبير آخر من الموظفين والتجار ومستخدمى البنوك والتلغراف وشركات النفط من البريطانيين ، وجد فى ايران ما يشبع هوايته ورغبته • وآخرون أمثال صون وجدوا فى الاكراد ضالتهم • فبنظرهم ان الاكراد أحسن شعوب الشرق الاوسط خلقا •

ومن وراء مئات المؤلفات والمطبوعات التى نشرت عن الشرق الاوسط هناك معلومات كبيرة جدا لم تجد للنشر سبيلا ، كالتقارير التجارية والرسائل الخاصة • وربما وجدت بعض المعلومات القيمة فى تقارير الجمعيات التبشيرية ، التى استفاد المسلمون من خدماتها التعليمية والطبية فائدة كبيرة • والبعض الاخر من المعلومات مطمور بالتقارير الرسمية التى كتبها أناس اشتغلوا فى مصر أو العراق أو فلسطين ، أو اولئك الذين كانت مهمتهم خفر سواحل البحر الاحمر والخليج الفارسى ، والضرب على ايدى المهربين وتجار الرقيق أو مراقبة شواهد الاضائة واسلاك التلغراف • ومع ان الظروف تبدلت ، فان الدوافع التى تدفع النـاس الى ارتيـاد اقطار الشرق الاوسط لا زالت باقيـة •

وقد ظلت ايران والعراق والخليج الفارسى ومن ورائها تركيا طوال قرن ونصف قرن قواعد للدفاع عن الهند ومراكز مراقبة للاشراف على خطوط المواصلات المؤدية الى الهند • ومع ما طرأ من تحول سياسى فى

القارة الهندية فى السنوات المتأخرة ، فان النظرة القديمة بالنسبة لخطوط المواصلات لا زالت قائمة • وحتى فى حالة انفصال الهند وباكستان وسيلان عن رابطة الشعوب البريطانية فان سيطرة دولة أخرى على أقطار الشرق الاوسط يعد كارثة بالنسبة لبريطانيا وللعالم الحر • يضاف الى ذلك ان الشرق الاوسط وجد مصدرا غنيا لثروته فى منابع النفط فى ايران والعراق والمملكة العربية السعودية • وكما كتب أحد خبراء النفط فى عام ١٩٤٤ « ان مركز ثقل انتاج النفط العالمى أخذ يتحول من الخليج الكريبى الى الشرق الاوسط ، وسيستمر بحركته حتى يستقر فى هذا الاقليم » • وان المتتبع لشؤون النفط منذ سنة ١٩٤٤ يؤيد هذه النبوئة تأييدا كاملا •

لقد كانت نسبة مداخر النفط العالمى فى سنة ١٩٤٣ كما يأتى :

الاقليم	النسبة المئوية
الشرق الاوسط	٤٨
اميركا الشمالية	٣١
أميركا الجنوبية وجزائر الهند الغربية	١٣
الاتحاد السوفياتى	٧
أقطار أخرى	١
المجموع	١٠٠

وتتضح أهمية هذه الارقام بالنسبة الى حياة رابطة الشعوب البريطانية من مقارنة جدول اصحاب امتيازات النفط فى الشرق الاوسط :

الامتياز	الامتياز
نفط جنوب ايران	بريطانى
نفط الكويت	نصفه بريطانى ونصفه اميركى

نفط البحرين — أميركى

نفط العراق ونفط امارات الخليج:
- ربع بريطانى
- ربع بريطانى وهولندى
- ربع اميركى
- ربع فرنسى بادارة بريطانية

وهكذا فان أربعة من الدول الموقعة على معاهدة حلف شمال الاطلسى وأبرزها بريطانيا والولايات المتحدة ، تضع يدها على جميع امتيازات النفط فى أقطار الشرق الاوسط .

ولا ريب ان قلة المدخرات النفطية الروسية هى التى دفعت روسيا الى استعمال العنف فى مفاوضاتها خلال الفترة بين عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٧ بشأن النفط الايرانى . وهى واثقة من انه فى حالة اكتشاف النفط فى شمال ايران ، فلن يكون المشروع مشروعا اقتصاديا ما لم يصدر الى روسيا أو عن طريق روسيا . والسبب ذاته جعل الشركات البريطانية والاميركية تعزف عن البحث عن تلك المصادر . ولم تكترث الحكومة البريطانية بتلك المفاوضات بادىء الامر ، ما دامت المفاوضات طبيعية لم يرافقها ضغط من أجل الحصول على الامتياز . على انها كانت على بينة من ان أى امتياز تحصل عليه روسيا فى شمال ايران فسوف يمكنها من الحصول على كميات كبيرة من النفط ، ويهىء لها الظروف الصالحة لصبغ ذلك الاقليم بالصبغة الشيوعية . وقد قضت ايران على الاطماع الروسية باصدارها قانون النفط الايرانى عام ١٩٤٤ .

ولا غرابة فى ان تطمع روسيا السوفياتية بمصادر جديدة للنفط ؛ فقد توسعت صناعاتها ، وتحولت زراعتها الى زراعة آلية ؛ وهرمت أهم حقول النفط فيها ـ حقول باكو . ولهذا فان وجود سلسلة من حقول النفط تمتد

من الحدود الروسية حتى قطر لما يثير الاغراء فى نفسها • فنظرة السوفيات الى نفط الشرق الاوسط ، واستعداداتهم العسكرية لما تثير مخاوف الغرب وشكوكه • سيما وان الاقطار التى تتلقى مساعدة مارشال تستطيع فى الظروف الراهنة ، الحصول على نصف ما تحتاجه من النفط من الولايات المتحدة الاميركية ومن منطقة البحر الكريبى • غير ان عالم الغرب يسعى للاحتفاظ بما تدره مداخره من نفط أكثر مما كان عليه سابقا ، لان استهلاكه للنفط أخذ يتزايد تزايدا خلال السنوات الماضية ، ولهذا فان على بريطانيا ودول مشروع مارشال ان تعتمد على جميع ما تحتاج اليه من نفط على الشرق الاوسط وحده • ولذا يصح ان يقال ان حدود بريطانيا لا تنته عند نهر الراين بل عند الشرق الأوسط • ولا يقصد بهذا القول تأمين المصالح البريطانية وحدها ، فان تحقيق ذلك يتطلب ان يكون الشرق الاوسط قويا بعيدا عن مؤثرات السوفيات • ومن الواضح ان تلك السياسة تتفق ورغبات حكومات تلك الاقطار وشعوبها ؛ كما انها تتمشى وأهداف هيئة الامم المتحدة • واذا ما سلمنا بان بريطانيا لا تهتم الا بصالحها ، فان سياستها كانت توجه دائما ، فى الماضى والحاضر ، نحو المحافظة على استقلال كل من تركيا وايران • ولم تتوقف عن اتباع هذه السياسة الا خلال الحرب العالمية الاولى ، عندما انضمت تركيا الى اعداء بريطانيا ، مما اضطرها الى ان تشترك مع فرنسا فى تقديمها الوعود الى روسيا لتسهيل احتلال استنبول واطلاق يدها فى شمال ايران ، بينما يترك القسم الوسطى والجنوبى فى ايران منطقة نفوذ بريطانى • ولو لم يتداع نظام الحكم فى روسيا وينته حكم ذلك الاتفاق ، لاضطرت بريطانيا الى احد امرين : اما ان تسمح لروسيا للنفوذ الى القسم الوسطى فالجنوبى من ايران ، أو ان تضطر للاذعان الى ما كانت تتحاشاه منذ عشرات

السنين _ الاشتراك بحدود متجاورة مع روسيا على ما بينهما من آلاف الاميال •

ولا تقل سياسة روسيا نحو الشرق الاوسط ثباتا عن سياسة بريطانيا نحوه • فلولا فتك الاوبئة فى جيوش بطرس الكبير لاستطاعت اخضاع القسم الواقع على بحر قزوين من ايران الى الحكم الروسى مقابل ما أبدته روسيا من مساعدات لافغانستان • وان الملكة كاترين كانت تحاول طرد الاتراك من استنبول واحياء الامبراطورية البزنطية تحت التاج الروسى • وفى الحرب العالمية الثانية عندما كانت المباحثات تجرى من أجل عقد حلف يناوىء بريطانيا ، كانت الحكومة السوفياتية تشدد بطلب ما يأتى : (١) اقامة قاعدة لقواتها البحرية والحربية فى نقطة تقع بالقرب من البسفور والدردنيل ، (٢) السماح لها لان تجعل من المنطقة الواقعة جنوب باكو وباطوم ، باتجاه الخليج الفارسى منطقة نفوذ روسية • ويشبه هذا الطلب ما سبق ان نادى به الكاتب البولشفيكى ترويانوفسكى عام ١٩١٨ ، « وفارس بمثابة قناة السويس بالنسبة الى الثورة ••• ولهذا فان أول الاقطار التى يجب ان نحتلها من أجل نجاح الثورة الشرقية هى فارس » ، وتكرر طلب روسيا بشأن نفوذها الى تركيا فى مؤتمر بوتسدام ، ولكن بريطانيا والولايات المتحدة ، رفضتا ذلك الطلب • ومما لا يشك فيه ان الخلاف الروسى الايرانى بشأن النفط ، وبشأن قضية ازربيجان ، وان ما تنشره من دعايات من دور الاذاعة السوفياتية باللغات المحلية ، ذو علاقة وثقى بأطماعها لايجاد ممر لها تنفذ منه الى الخليج الفارسى يشمل أراضى تركية وايرانية وعراقية وكويتية • ومنذ ان كشفت روسيا عن نواياها بشأن الشرق الاوسط ، لم تبق بريطانيا المدافع الوحيد عن استقلال اقطار الشرق الاوسط • فبالاضافة الى الموقف الذى تقفه هيئة الامم بالنسبة

الى تلك الاطماع ، فان المساعدات الكبيرة التى تقدمها الولايات المتحدة الى تركيا وايران وحتى الى اليونان ادخلت الى هذا الاقليم عاملا ثابتا من عوامل القوة كبير الاهمية .

ولا يكفى ان يقتصر على ذكر الاتجاهات السياسـية للدول العظمى بالنسبة الى الشرق الاوسط ، فان منظمة الامم المتحدة أخذت تعنى بشؤون هذا الاقليم . واذا ما بلغت الهيئة من القوة والتأثير ما يمكنها من الوقوف بوجه أطماع الطامعين بأقطار هذا الجزء من العالم فسوف تستطيع معالجة مشاكل الشرق الاوسط معالجة ناجحة . وقد يكون من صالح البشرية ان تضع منظمة الامم المتحدة يدها على جميع مصادر الطاقة فى العالم لكى تضع نهاية لتلك الاطماع . ولا ريب ان نفط الشرق الاوسط سيحتل المقام الاول من بين تلك المصادر ، كذلك سيوضع حد لمخاوف تركيا على المضايق اذا ما أوكل الاشراف عليها الى هيئة دولية ، أو اذا ما ترك لتركيا أمر الاشراف عليها بارشاد هيئة دولية . واتخاذ مثل هذا التدبير لقناة السويس من شأنه ان يضمن لمصر وبريطانيا مصالحهما على السواء ويفيد العالم كله .

مراجع الكتاب : — (مرتبة حسب الفصول)

1. Beazley, Sir R. The Dawn of Modern Geography (1897-1906)
2. Cunningham, Wm. The Growth of English Industry and Commerce (1910-38)
3. Hakluyt, Richard. The Principal Navigations, Voyages and Discoveries of English Nation (1589-1600)
4. Hodgkin, R.H. A History of the Anglo-Saxons (1936)
5. Kirk, G.E. A short Sistory of the Middle East (1938)
6. Curson, Lord. Persia and the Eastern Question (1898)
7. Epstein, M. Early History of the Levant Company (1908)
8. Foster, Sir Wm. England's Quest of Eastern Trade (1933)
9. Longrigg, S. Four Centuries of Modern Iraq (1925)
10. *Purchas, Samuel. Purchas His Pilgrims (1926)*
11. Wilson, Sir Arnold. The Persian Guf (1928)
12. Sykes, Sir Percy. History of Persia (1930)
13. Wood, A.C. History of the Levant Company (1935)
14. Graves, Philip. The Question of the Straits (1931)
15. Graves, Sir Robert. Storm Centres of the Near East, 1879-1929, (1933)
16. Hoskins, H.L. British Routes to India (1928)
17. Issawi, Charles. Egypt: An Economic and Social Analysis (1947)
18. Miller, Wm. The Ottoman Empire and its Successors, 1801-1927, (1927)
19. Wilson, Sir Arnold. The Suez Canal (1933)
20. Chirol, Sir Valentine. The Middle Eastern Question (1903)
21. Cromer, Lord. Modern Egypt (1908)
22. Graves, Philip. Life of Sir Percy Cox (1941)
23. Hardinge, Lord. The Old Diplomacy (1947)
24. Hubbard, G. E. From the Gulf to Ararat (1916) (Turco-Persian Boundry Commission)
25. Rayan, Sir Andrew. The Last of the Dragomans (1951)
26. Shuster, W. Morgan. The Strangling of Persia 1910-11 (1920)
27. Sousa, Nasim. The Capitulatory Regime of Turkey (1933)
28. Storrs, Sir Ronald. Orientation (1945)
29. Twitchell, K.S. *Saudi Arabia (1946)*

30. Wislon, Sir Arnold. South-West Persia
31. Cruttwell, C.R.M.P. A History of Great War (1934)
32. Hay, Sir W. Rupert. Two Years in Kurdistan 1918-1920 (1922)
33. Hourani, A.H. Syria and Lebonan (1935)
34. Lawrence, T.E. Seven Pillars of Wisdom (1935)
35. Lenczowiski, G. Russia and the West in Iran 1918-1948, (1949)
36. Official History of the War in Mesopotamia (four volumes)
37. Royal Institute of International Affairs. Great Britain and Egypt 1914-36 (1936)
38. Sykes, Christopher. Wassmuss (1936)
39. Wilson, Sir Arnold. Loyalteis, 1914-20 (1931)
40. Young, Major Sir H. The Independent Arab (1933)
41. Antonius, G. The Arab Awakening (1938)
42. Barbour, Neville. Nisi Dominus: A Survey of the Palestine Controversy (1946)
43. Beutwich, Norman. Palestine (1946)
44. Jeffries, J.M.N. Palestine. The Reality (1939)
45. Royal Institute of International Affairs — Great Britain and Palestine 1915-1945 (1937)
46. Sidebotham, H. Great Britain and Palestine (1937)
47. Weizmann. Trial and Error (1949)
48. Atiyah, Edward. An Arab tells his Story (1946)
49. Belhaven, The Master of the Kingdom of Melchior (1949)
50. de Goury, G. Arabia Phoenix
51. Elwaell-Sutton, L.P. Modern Iraq (1941)
52. Hyamson, A.M. Palestine under the Mandate 1920-1948, (1950)
53. Ingrams, Hawld. Arabia and the Isles (1942)
54. Ireland, P.W. Iraq: A Study of Political Development (1937)
55. Khadduri, Dr. Majid. Independent Iraq (1951)
56. Lloyd, Lord. Egypt Since Cromer (1933-34)
57. Longrigg, S. Iraq, 1900-1950
58. Macdonald, A.D. Euphrates Exile (1936)
59. Monroe, Elizabeth. The Mediteranean in Politics (1939)
60. Parkes, James. A History of Palestine from 135 A.D. to Modern Times (1949)
61. Philby, H. St. J.B. Arabian Days: An Autobiography (1948)
62. ——————. Arabian Jubilee (1952)

63. Rosevellt, Kernit. Arabs, Oil and History (1948)
64. Speiser, E.A. The United States and the Near East (1950)
65. Royal Commission — Report on Palestine (1937)
66. Report of a Committee set up to consider Certain Correspondence between Sir Henry McMahon and Sharif of Mecca 1915 and 1916. Cond. 5974 (1939)
67. Palestine: Statement of Policy-Cmd. 6019 (1939)
68. Groseclose, E. Introduction to Iran (1947)
69. Knatchbull-Hugessen Sir H. Diplomat in Peace and War (1949)
70. Millspaugh, Dr. A.C. Americans in Persia (1946)
71. Paiforce: The Official History of the Persia and Iraq Command 1941-46 (1948)
72. Royal Institute of International Affairs — The Middle East: A political and Economic Survey.
73. White Paper on Anglo-Egyptian Conversation on the Defence of Suez Canal and on Palestine (Nov., 29, 1951)
74. Egyptian Green Book.
75. Jewish Agency — The Jewish Case before Anglo-American Committee of Inquiry on Palestine (1947)
76. The Political History of Palestine under the British Administration.
77. Palestine: Termination of the Mandate, 15th. May, 1948.
78. Koesler, Arthur. Promise and fulfilment (1948)
79. Warriner, Doreen. Land and Poverty in the Middle East (1948)